ذو الرُّمة

شاعر الطبيعة والحب

تأليف

كيلانى حسن سند



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

تصدير

هذه الدراسة عن ذى الرمة « الشاعر الأموى » . حاولت فيها أن أستكشف عالمه النفسى ، والفنى من خلال شعره . بعد أن لفتنى الى أهميته ما كتبه المستشرق الألمانى « بروكلمان » حين قال :

« وذ الرمة يحسن مطابقة الحروف للمعانى فيصور ضرب رجل الجندب على الرمل بترديد الراء والضاد » .

وقد اعتمدت فى دراسته على « ديوانه » الذى نشره «مكارتنى» فى كمبردج ۱۹۱۹ م بعد أن انتسخت لنفسى نسخة خاصة منه .. وحاولت أن أتجنب ما يقع فيه كثير من الدارسين من الانسياق وراء الدراسة التاريخية السهلة لعصر الشاعر وحياته ؛ أو الانسياق وراء التفسيرات الاجتماعية والنفسية لأحداث حياته مهملا الجانب الفنى ، الذى هو أهم ما فى حياة الفنان ـ كما يفعل العقاد ـ فى تراجمه ، وانما توخيت الجمع بين الأسلوبين ، فدرست حياته ،

وكشفت عن خبايا نفسه المحبة الشاعرة ، كما اهتممت بالكشف عن مزايا أسلوبه الخاصة ؛ التى تجعله – فى رأيى – فى مصاف الفنانين المجددين ، لا فى المعانى والأفكار ، وانما فى اللغة أيضا بما أحدثه فى أسلوبه من مخالفات لغوية ، اعتبرها النحاة واللغويون والنقاد القدامى من قبيل الشاذ ، ويعتبرها النقد المعاصر من قبيل اعادة البناء اللغوى ليلائم البناء النفسى للشاعر أو « كسر البناء » كما يطلق عليها ذلك الدكتور محمد مندور . ولقد استهديت فى ذلك بالكثير من القراءات فى علم النفس ، واللغة ، وما تقدمنى به الباحثون من دراسات ، وأخيرا فاننى آمل أن أكون بعملى هذا استطعت أن أكشف عن وجه هذا الشاعر العملاق غبار الزمن .. ليهتم به الباحثون والدارسون وعشاق الأدب .

١٩٧٠ — كيلانى حسن سند

الباب الأول

الفصل الأول

ذو الرمة : حياته ونشأته

حياته :

هو غيلان بن عقبة بن بيهس ، يكنى أبا الحارث ، ولد عام ٧٧ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان ، ينتمي الى صعب بن ملكان ابن عدى بن عبد مناة (١) ويمتد نسبه الى مضر ، وعدى التي ينتمي اليها تكون مع تيم ؛ وعكل ، وضبة ـ الرباب التي يفخر بها كثيراً في شعره ؛ والرباب بطن من بطون بني تميم .

يقول ذو الرمة في أبيات يهجو فيها هشاما المرئي ، مسقطا قبيلته امرأ القيس من عداد بني تميم :

يعد الناسبون الى تميم بيوت العز أربعة كبارا (٢)

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٣٦ .

(٢) الناسبون : العارفون بالأنساب .

يعدون الرباب لهم ، وعمـرا وسعدا ثم حنظلة الخيـارا (١)
ويهلك بينها المرئى لغـــوا كما ألغيت فى الدية الحوارا (٢)

ويفخر بعدى فى موطن آخر فيقول :

بذى لجب تدعو عديا كمـاته اذا عثنت فوق القوانس عثير (٣)

كما يهجو هشام عديا قوم ذى الرمة فيقول :

غضبت لرحل من عدى تشمسوا وفى أى يوم لم تشمس رحالها

ولقد كانت منازل بنى تميم بأرض نجـد « دائرة من هنالك على البصرة ، واليمامة حتى يتصلوا بالبحرين . منتشرة الى العذيب من أرض الكوفة ، ولهم بطون كثيرة منها بنو سعد بن زيد مُناة ؛ وبنو منقر « قوم مى محبوبته » ، وبنو امرىء القيس ، وبنو عوف ابن كعب ، وبنو الحارث بن يربوع ، وبنو دارم بن مالك بن حنظلة آل الفرزدق الشاعر وغيرهم ، ومن منازلهم : صلب المعا ، ورهبى ، والدهناء ، والاحساء ، والرمادة ، وشرف الأرطى ، وقسا (٤) .. وقسا هذه سوق باليمامة ، هذه الأماكن تتردد فى شعر ذى الرمة كثيرا ، ومن المؤكد أن منازل قومه قريبة من «قسا» فى اليمامة يقول مخاطبا بلال بن أبى بردة :

ولكننى أقبلت من جانبى قســـا
أزور امرءا محضا نجيبا ، يمانيا (٥)

---

(١) الرباب ، وعمرو ، وسعد وحنظلة : فروع من قبيلة تميم .

(٢) المرئى : نسبة الى امرىء القيس ، لغوا — لايعد منها ، الحوار — ولد الناقة ساعة أن تضعه ولا يؤخذ فى الدية .

(٣) لجب : صخب ، كماة — فرسان ، عثنت — ثارت ، القوانس — الخوذات ، عثير الغبار ، والمعنى : بجيش صاخب يدعو فرسانه قبيلة عدى لمناصرتهم حين يحتدم القتال ويثور الغبار .

(٤) القبائل العربية لعمر كحالة .

(٥) محضا — خالصا تقيا .

كما يمدح المهاجر بن عبيد الله والى اليمامة ، ويشكو له من رجل اسمه « طرثوث » سلبه البئر التى يستقى منها قومه ..

أما تلقيبه بذى الرمة ؛ فلقد اختلف الباحثون فى سبب ذلك، وصاحب « الأغانى » كفانا مؤنة البحث عن هذه الأسباب ، فألم بها جميعا ، فمن هذه الأسباب : أنه لقب لقبته به مية ، ذلك أنه رآها لأول مرة ، وقد طلب منها الماء ، وقيل بل خرق اداوته ، وقال لها : اخرزى لى هذه .. فقالت : والله ما أحسن ذلك ؛ وانى لخرقاء، فقال : لأمها مريها أن تسقينى ، فقالت لهـــا : قومى يا خرقاء ، فاسقيه ماء ، فقامت فأتته بماء ؛ وكانت على كتفه رمة ، وهى قطعة من حبل فقالت : اشرب يا ذا الرمة فلقب بذلك ؛ وقيل بل سبب ذلك هو أن والدته ، واسمها ظبية من بنى أســد . مرت به على الحصين بن عبدة ، وقد كان كتب له تميمة فى صغره ـ أثناء قضائها بعض الحوائج وهو جالس فى ملأ من أصحابه ، ومواليه ، فدنت منه فسلمت عليه ، وقالت له يا أبا الخليل ألا تسمع قول غيلان وشعره ؟ قال ، بلى، فتقدم منه فأنشده وكانت المعاذة مشدودة على يساره فى حبل أسود ، فقال الحصين : أحسن ذو الرمة فغلبت عليه ؛ وثمة رأى ثالث نرى ترجيحه ، هـــو أنه لقب بذى الرمة لقوله :

لم يبق غــير مثــل الركــود   وغير مرضوخ القفا موتود (١)

أشعث باقى رمة التقليد

ويؤكد ذلك أيضا قول شارح الديوان « وسمى ذا الرمة لقوله « رمة التقليد » وتلقيب الشاعر بكلمة ترد فى بيت من شــعره كثير شائع ؛ وقد حفظ لنا التاريخ أســماء عدد كبير منهم ، كامرىء

---

(١) مثل ـ منتصبات ، ركود ـ مقيمات ، مرضوخ ـ مشقوق ، موتود ـ الوتد ، أشعث ـ منتشر الشعر ، رمة التقليد ـ الحبل البالى ، والمعنى : لم تبق فى الديار سوى الأثافى (الحجارة التى يطبخ عليها) وغير الوتد المشقوق المتقلد بحبل قديم بال .

القيس الذى لقب بذى القروح لقوله : « وبدلت قرحاً داميا بعد صحة » والمتلمس ، واسمه جرير بن عبد المسيح لقوله :

فهذا أوان العرض ، حيا ذبابه زنابيره ؛ والأزرق المتلمس

والمثقب العبدى لقوله :

أرين محاسنا ، وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون (١)

والمؤمل بن جميل بن أبى حفصة الذى أطلق عليه « قتيل الهوى » لقوله :

قلن من ذا ؟ فقلت هذا اليمامى ؛ قتيل الهوى ، أبو الخطاب

وعبيد الله بن قيس الرقيات لتغزله فى أكثر من واحدة اسمها رقية ، ومثل هؤلاء صريع الغوانى والقطامى ؛ لقوله : « يحطهن جانبا فجانبا حط القطامى القطا القواربا » ، والممزق .. لقوله : « والا فأدركنى ولما امزق » وغير هؤلاء كثير (٢) .

واذا حاولنا أن نتعرف على ملامحه ، وجدنا تضاربا فى الآراء فبينما يحسنه بعضهم يقبحه البعض الآخر ، والراجح ما ورد فى الأغانى : من أنه كان مدور الوجه ، حسن الشعر جعده ؛ أقنى ؛ أنزع ، خفيف شعر العارضين ؛ أكحل العينين ؛ حسن الضحك مفوها ، اذا كلمك كلمك أبلغ الناس .. يضع لسانه حيث يشاء ، وقال محمد بن صالح قال لى خالد وأبو عمرو : لم يكن أحد من القوم فى زمانه أبلغ من ذى الرمة ؛ ولا أحسن جوابا ، وكان كلامه أكثر من شعره ، كما كان اذا ألقى شعره « بربر بصوته » وقد وصفته محبوبته « خرقاء » بأنه كان رقيق البشرة ، عذب المنطق ، حسن الوصف ، مقارب الرصف عفيف الطرف ؛ ويبدو أن ما وصفه به ابن قتيبة وغيره من دمامة فلكى يجدوا مناسبة ـ كعادتهم ـ للأبيات التى نظمتها (كنزة) أو كثيرة « ابنة عم مى » أو أمتها على

---

(١) كنن ـ أخفين ، الوصاوص ـ الثقوب ينظر منها .

(٢) لجلال الدين السيوطى فصل طويل فى كتابه المزهر عن هؤلاء الشعراء .

اختلاف فى ذلك ثم نسبتها له لتسوء العلاقة بين العاشقين ، ويظهر أنها نجحت فى اغضاب « مية » فلقد ظل ذو الرمة طيلة حياته يقسم أنه لم يقل هذا الشعر ؛ ويقول : (كيف ؟ وقد قضيت حياتى فى التغزل بها) فلقد زعم هؤلاء الرواة أنه تغزل بمية دون أن تراه ؛ ولما رأته وجدته أسود دميما قالت : واسوأتاه !! وابؤساه ... واضيعة بدنتاه التى نذرت ذبحها لو أنها لقيته .. فقال ذو الرمة :

على وجه مى مسحة من ملاحة

وتحت الثياب الخزى لو كان باديا

ألم تر أن الماء يخبث طعمه

وان كان لون الماء أبيض صافيا

فيا ضيعة الشعر الذى لج وانقضى

بمى ، ولم أملك ضلال فؤاديا

بل يزعم هؤلاء الرواة أن أمه حين عرضته على « الحصين » ، قالت لمن حوله : «اسمعوا شعره ولا تنظروا الى وجهه» وما أظن أن أما تستقبح ابنها حتى لو رآه الناس جميعا قبيح الوجه ، دميما، وقد تحدث عن ولوع النساء به ، كما وصف نفسه بأنه كالغصن الأملود ولكن « مجحفات الزمن المريد ؛ نقحن جسمى عن نضار العود ؛ بعد اهتزاز الغصن الأملود » .

ولم يحدثنا التاريخ بشىء عن والده ؛ كما لم يرد له ذكر فى ديوانه ، مما يجعلنا نعتقد أنه كان رجلا من عامة الناس . لا شأن له ولا ذكر ، أو لأنه تركه صغيرا فلم تع ذاكرته عنه شيئا . فلقد قيل : ان أخاه هشاما هو الذى رباه ، وكان لذى الرمة ثلاثة أخوة هم هشام وجرفاس ومسعود ، وكلهم شعراء حتى زعم أعداؤه وشانئوه أن اخوته يتعاونون فى نظم القصائد التى تنسب اليه ، لشهرته ، ومن شعر هشام :

حتى اذا أمعروا صـــــفقى مباءتهم
وجرد الخطب أثباج الجراثيم (١)

ويعقب ابن قتيبة قائلا : وليس له غيرها ، ولكن أبا الفرج الأصفهانى يسوق ملاحاة شعرية بين هشام وذى الرمة ؛ فذو الرمة يقول لأخيه هشام :

أغر هشاما من أخيه ابن أمه
قوادم ضـــأن أقبلت ، وربيـــع

وهل تخلف الضأن الغزار أخا الفتى
اذا حل أمر فى الصـــدور فظيـــع

ويجيبه هشام بقوله :

اذا بان مالى من ســــوامك لم يكن
اليك ورب العـــالمين رجـــوع (٢)

فأنت الفتى ما اهتز فى الزهر الندى
وأنت اذا اشـــتد الزمـــان منـــوع

ويبدو من قصيدة ذى الرمة أنه ألمت به سنوات عجاف ، أو مرت به ضائقة مالية فلجأ الى هشـــام أخيه الذى لم يلن ، ولم يعطف ، رغم يسر حاله ؛ ورغد عيشه يقول ذو الرمة :

تباعدت منى اذ رأيت حمولتى تدانت، واذ أحيا عليك قطيع(٣)

---

(١) أمعر الرأس ـ سقط شعره ، صفقى مباءتهم ـ ناحيتى معاطن ابلهم ، اثباج ـ ظهور ، الجراثيم ـ أصول الشجر ، والمعنى : رحلوا بعد أن أسقط الصيف أوراق الشجر التى تحيط بمعاطن الابل .

(٢) بان ـ انفصل وبعد ، السوام ـ الابل والماشية ، والمعنى : اذا ما انفصلت عنك بنفسى وبمالى ـ فاننى سوف لا أعود الى مخالطتك فأنت أنانى تقبل على الانسان حين تقبل عليه الحياة وتبتعد عنه حين يشتد به الزمان .

(٣) ـ تدانت ـ قلت ، أحيا ـ كثر .

والتعبير « بتدانت » أى قلت يدل على ذلك ، بينما زاد قطيع هشام ؛ ومع هذا كان أقسى عليه ـ فى رأيه ـ من الحجر .

أبا ذاك أو يندى الصفا من متــونه
ويجبر من رفض الزجاج صدوع (١)

ولكن هشاما يعرض عليه أن تعود المودة بينهما فيقول له :

أغيلان ان ترجع قــوى الود بيننا
فكل الذى ولى من العيش راجـــع
فكن مثل أقصى الناس عندى فانني
بطول التنائى من أخ الســوء قانع

وأكاد أتهم ذا الرمة بالاسراف ، واستباحته مال أخيه الغنى، فلقد قال رجل للأصمعي : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة ، وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم عليه برد قيمته مائتا دينار وهو ينشد ودموعه تجرى على لحيته « ما بال عينك منها الماء ينسكب » فكذلك كان يستحل (٢) يزيد بن الطثرية الشـــاعر الغزل مال أخيه الغنى «ثور» فكان يزيد يأتى العطار فيقول له : أدهنى دهنة بناقة من ابل ثور ؛ فيفعل ذلك ، وكان ذا جمة حسنة فاذا كثر عليه الدين هرب فتبدى ، فاذا ذكر « حوشية » محبوبته عاد فاقتطع من ابل أخيه ما يقضى به دينه ، فاستعدى عليه ثور السلطان فأمر بحلق رأسه » .

ويبدو أنه كان يؤثر بالثقة والحب أخاه مسعودا الذى هو أسن منه أيضا ، وعاش بعده ؛ وقد رثاه فقال :

---

(١) يندى ـ يبلله الندى والمراد يعرق ، الصفا ـ الصخر ، متونه ـ ظهوره يجبر ـ يلتئم ، رفض الزجاج ـ حطام الزجاج المتكسر .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ .

الى الله أشكو ، لا الى الناس ، اننى
وليـــلى كلانا موجع مات رافده (١)

كما رثاه مرة ثانية ورثى معه صديقه وابن عمه أوفى أحـــد رواة الحديث فقال :

تعزيت عن أوفى بغيـــلان بعـــــده
عـــزاء وجفـن العـــين ملآن مترع

خوى المسجد المعمور بعد ابن دلهم
فأضحى بأوفى قومه قد تضعضعوا (٢)

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعـــــده
ولكن نكأ القرح بالقـــرح أوجـع

فلقد كان يصحبه معه فى رحلاته ؛ويخاطبه فى شعره ،ويصغى للومه وعتابه :

أقول لمسعود « بجرعـــاء مـــالك »
وقد هم دمعى أن تسح أوائله (٣)

ورأتهما مية مرة مقبلين فى الصحراء ، وعليهما أثر الارهــاق والتعب من ذلك السفر البعيد فهربت منهما :

قد عجبت أخت بنى لبيــــــد وهربت منى ومن مســـعود
رأت غلامى ســـفر بعيـــــد يدرعان الليل ذا السدود (٤)

وها هو مسعود الذى يحبه ويشفق عليه • يلومه لأن الحب قد استخفه ، والحنين اعتصر نفسه :

---

(١) رافده ـ مساعده ومعاونه •
(٢) خوى ـ خـــلا ، نكأ القرح ـ أى جرح الجرح بعد قربه من الشفاء ،
(٣) بجرعاء مالك ـ أحد منازل بنى تميم •
(٤) يدرعان الليل ـ يشتملان به •

كأن فؤادي هاض عرفان ربعها ... به وعى ساق أسلمتها الجبائر (١)
عشية مسعود يقول وقد جرى ... على لحيتى من عبرة العين قاطر
أفى الدار تبكى أن تفرق أهلها ... وأنت امرؤ قد حلمتك العشائر

ولقد اشتهر مسعود بلومه العنيف لأخيه ذى الرمة شفقة عليه ، وحبا فضرب به المثل فى ذلك أبو تمام فيما بعد فقال :

ان كان مسعود سقى أطلالهم ... سيل الشئون فلست من مسعود

لأنه كان يلوم أخاه فيقول أبو تمام : لو عدل عن اللوم الى البكاء فلست منه ؛ وهذا أبلغ فى التبرى (٢) « ونعلم من شعره أنه كانت له بنت اسمها « ليلى » كما جاء ذكر اسمها فى رثاء مسعود له « اننى وليلى كلانا موجع مات رافده » وكثيرا مالامته على كثرة أسفاره ؛ وتعريضه نفسه للهلاك ؛ فهو كثير الكسب للمال ؛ كثير الانفاق له .

تقول بنتى اذا رأت وعيدى ... هم امرىء ، لهمه كيود (٣)
ذى بدوات ؛ متلف ، مفيد ... أمضى على الهول من الطريد (٤)
انك سام سموة فمودى ... فقلت لا ، والمبدىء المعيد (٥)
ما دون وقت الأجل المعدود ... هل أغدون فى عيشة رغيد
والله أدنى لى من الوريد

ربما كانت « ليلى » ابنته هذه هى التى فجرت ينابيع

---

(١) هاض - كسر ، وعى الساق - جبرها بعد الكسر ، الجبائر - مفردها جبيرة وهو ما يوضع حول الساق المصابة من خشب وغيره ، والمعنى : حين عرفت ديار المحبوبة أصيب قلبى بما تصاب به ساق مكسورة سقطت جبائرها .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٨٤ .

(٣) امرىء كيود لهمه - يقاسى ويعانى من تطلعاته وأهدافه البعيدة

(٤) ذى بدوات - صاحب حاجات ومطالب .

(٥) سام سموة فمودى - ساع لتحقيق غاية بعيدة فأنت هالك بسببها .

الحب الأبوى فى نفسه فجعلته يعطف ـ كما ستوى ـ حتى على فراخ القطا والمكاكى ؛ وأطلاء الغزلان وجآذر البقر الوحشى ، ولأنه كان مفيدا متلافا ـ كما عبر هو عن ذلك ـ عاش فقيراً ، فكل ما كان يجتمع له من مال يبدده وينفقه ، وقد مر ذكر من رآه فى البصرة ينشد شعره وعليه برد بمائتى دينار ـ ومن فقره الذى اعتز به صاغ هذه التجربة التى خالف فيها الموروث الشعرى ، فلقد اعتاد الشعراء أن يصوروا المرأة بالصورة التى لا يجذبها سوى الشباب والمال ؛ فاذا انعدما انعدم الحب ، قال علقمة الفحل :

يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب(١)

ولكن ذا الرمة يقول غير ذلك : يقول : ان فقره لم يزر به عند محبوبته :

وما الفقر أزرى عندهن بوصلنا ولكن جرت أخلاقهن على البخل

فآخذه النقاد التقليديون على ذلك ، فقال ابن قتيبة وقد غلط فى قوله فى النساء : «وما الفقر أزرى عندهن» البيت قالوا والجيد قول علقمة :

يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

وقول امرىء القيس :

أراهن لا يحببن من قل ماله ولا من رأين الشيب فيه ،وقوسا

واذا كنا قد وفينا صفاته الحسية حقها من البحث ، فان صفاته النفسية التى هى أشد خطرا فى حاجة الى الالمام بها ؛ وأول ما يطالعنا من ذلك **تدينه ، وتمسكه بأخلاقيات الاسلام** ، فكان يصلى ؛ واذا سافر قصر الصلاة ، فاذا لم يجد الماء تيمم

نصى الليل بالأيام حتى صلاتنا
مقاسمة يشتق أنصافها السفر (٢)

---

(١) شرخ الشباب ـ ريعانه .

(٢) نصى ـ نصل ، والمراد لطول وكثرة أسفارنا نصلى دائما صلاة القصر .

ويهجو هشاما المرئى وقومه بأنهم يضيعون أوقات الصلاة ، ويشربون الخمور والأنبذة :

أضعن مواقيتَ الصلوات عمدا

وحالفن المشاعل والجرارا

وسنرى حين نتحدث عن مصادر ثقافته أن تدينه قد جعله يستمد الكثير من صوره وتعبيراته من الدين؛ والقرآن الكريم ، ولقد أجمع كل رواة الأدب على تقاه وعفته ، فقال عنه الأصمعى(١) ما أعلم أحدا شكا حبا أحسن من شكوى ذى الرمة مع عفة ، وعقل رصين ، لقد قال عن نفسه حين حضرته الوفاة « لقد همت بمى عشرين سنة فى غير ريبة ولا فساد»(٢) وعن عيسى بن عمر قال : كان ذو الرمة ينشد الشعر فاذا فرغ قال والله لأكسعنك بشيء ليس فى حسبانك ؛ سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقيل : كان ذو الرمة حسن الصلاة ، حسن الخشوع ، وقال : ان العبد اذا قام بين يدى الله حقيق أن يخشع .. «وكثيرا ماكان ينشب صراع داخلى فى نفسه بين ما يشكوه من هوى ؛ وبين ما يتطلبه الدين والعقل من عفة ؛ وبعد عن طيش المحبين :

ألا ، لا أرى مثل الهوى داء مسلم

كريم ولا مثل الهوى ليم صاحبه

ومن صفاته أنه كان يعرف أقدار الناس ، ويعترف بفضائلهم فلقد قال يوما لأبى عمرو بن العلاء :

«أنت مفرد فى علمك ، وأنا فى شعرى ذو أشباه(٣) ..» كما كان صبورا جلدا ، صبورا على تحمل المشاق ، وكثيرا ما افتخر بشجة الفيافى والظلمات على ناقة ضامرة دون أن يضعف رغم طول السفر

---

(١) الأغانى ج ١٦ .

(٢) روضة العاشقين .

(٣) الموشح للمرزبانى .

ومخاطر الطريق ، وهو صبور جلد فى حبه ، وان كان الحب كثيرا ما ينتصر عليه ، ويتغلب على صبره فيقذف به فى الطريق باحثـــا عن منازل محبوبته ليتزود منها بنظرة أو كلمة حب أو عتاب، وربما واصل السفر ثمانية أشهر بتمامها من أجل ذلك :

ومغفى فتى حلت له فـــــوق رحله
ثمانية جردا صـــلاة المســـافر (١)

لهذا قد شحب وجهه : وضمر عوده ، من ســـقام السرى ، والحب :

فتى ، مسلهم الوجه شارك حبها
سقام السرى فى جسمه بسقام (٢)

وهو رغم صبره وشجاعته ـ كأى أعرابى يخشى البحر ويفزعه اهتزاز القناطر المقامة على المياه ، وقد مدح عمر بن هبيرة فقال له :

كم جبت دونك من تيهـــــاء مظلمة
تيه اذا ما مغنى جنهـــا ســـمرا (٣)

ومزبد مثـــل عرض الليــــل لجتـــه
يهل شكرا على شـــطيه من عبـــرا

كما أن محبوبته من قوم : لم تنغض بهن القناطر ؛ أى تهتز وتضطرب ؛ ومن صفاته النفسية أيضا اعتزازه بكرامته حتى مع الأمراء والخلفاء . فلقد وقف منتظرا مع سائر الشعراء على باب الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ؛ وكان كثير الصدوف عن الشعراء فلم يستقبل أحدا منهم سوى من عرف بالتقى، والتدين ، فساء ذلك

---

(١) ثمانية جردا . ثمانية كاملة .

(٢) مسلهم الوجه ـ ضامره ، السرى ـ السير ليلا .

(٣) معنى البيتين : كم قطعت نحوك من صحراء مظلمة يسمع فيها أصوات الجن لوحشتها ، وكم قطعت من بحر عريض كالليل يشكر الله من يعبره سالما .

ذا الرمة فنظم قصيدة شاكية نحس فيهـــا اللوم والعتاب والاعتزاز بل يفخر فيها بنفسه فيقول :

أعاذل عوجى من لسانك عن عـــذلى
فما كل من يهوى رشادى على شكلى (١)

فما لائم يوما أخ ؛ وهـــو صادق
إخائى ،ولا اعتلت على ضيفها ابلى (٢)

اذا كان فيها الرسل لم تأت دونـه
فصالى ولو كانت عجافا،ولا أهلى (٣)

ولو قمت مذ قام ابن ليلى لقد هوت
ركابى بأفواه السماوة ، والرجل (٤)

ولكن عدا بى أن أكون أتيته
عقائل أوصاف يشبهن بالخبـل (٥)

أتتنى كـــلاب الحى حتى عرفننى
ومدت نسوج العنكبوت على رحـلى

كما يصف نفسه بالنجدة ؛ واغاثة الملهوف فيقول :

ومستنجد فرجت من حيث تلتـــقى
تراقيه احـــدى المفظعـات الكوارب

ورغم أنه مات شابا لم يتجاوز الأربعين من عمره الا أن المخاطر التى خاضها ، والتجارب التى مر بها خاصة تجربة الحب ، بجانب

---

(١) عوجى ـ اصرفى ياعاذلتى لسانك عن عذلى .

(٢) ولا اعتلت ـ لم ينتفع بخيرها من لبن أو لحم .

(٣) الرسل ـ اللبن ، فصال ـ جمع فصيل وهو ولد الناقة ، عجافا ـ ضعيفة هزيلة .

(٤) ابن ليلى ـ لقب عمر بن عبد العزيز ، والسماوة والرجل ـ مكانان .

(٥) عقائل أوصاف ـ بقايا مرض .

موهبته الفطرية الخاصة ـ قد جعلت منه صاحب نظرات نافذة فى الحياة .. نلاحظها متناثرة خلال شعره من ذلك قوله :

لعل انحـــدار الدمع يعقب راحـــة
من الوجد، أو يشفى نجى البلابل(١)

قال أبو بكر بن عياش : كانت تصيبنى مصيبة ، فأصبر وأكظم فأسرع ذلك فى بدنى ؛ فمررت بكناسة الكوفة فرأيت أعرابيا ينشد « خليلى عوجا من صدور الرواحل » ، هذا البيت والبيت السابق ذكره فأصابتنى مصيبة ، فبكيت فوجدته أهون على ، فسألت عن الأعرابى ؛ فقيل هـو ذو الرمة (٢) ومن نظراته التى هى وليـــدة تجربته الصادقة فى الحب قوله « والشوق يقتـاد من ذى الحاجة البصرا ؛ وقوله : «وكم من محب رهبة العين ـ هاجر» ثم تلك الصفات الأخرى التى هى وليدة تلك التجربة : **كالاخلاص والوفاء** وكتمان السر :

فان تحدث الايـــام يامى بيننـــــا
فـــلا ناشر سرا ، ولا متغـــير

هذا بجانب ما نتحدث عنه بتفصيل فى الفصـــل المعقود عن تجربة حبه .. من صفات لازمت هذا الحب .. وأخيرا نلاحظ أن **غلالة من الحزن والكآبة** تلف بعض قصائده ، وبخاصة مطالع هذه القصـــائد ، ومصدر هذا الحزن : توقعه الهـلاك دائما فالماشى فى الصحراء كما عبر عن ذلك ـ كالماشى على حد السيف ، وكم تعرض هو وناقته للهلاك ، كما أن كل ما يراه يذكره بنهاية كل حى .. الأطلال المتهدمة ؛ الأحباب الذين تفرق بينهم الأيام ؛ يضـــاف الى ذلك طمـوحه الذى لا حد له ، طموحه فى أن يكون شـــاعرا كبيرا كالفرزدق وجرير ، وقد سأل الفرزدق بعد أن أسمعه قصـــيدة من شعره أو بعبارة الأغانى :

---

(١) الوجد ـ الحب ، البلابل ـ وساوس النفس .

(٢) شارح الديوان المطبوع عام ١٩١٩ .

وقف الفرزدق على ذى الرمة ؛ وهو ينشد قصيدته التى يقول فيها :

اذا ارفض أطراف السياط وهللت
جروم المطايا عذبتهن صيدح (١)

فقال كيف تسمع يا أبا فراس ، قال : أسمع حسنا ؛ قال : فمالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ، قال يمنعك من ذلك ذكر الأبعار ؛ وبكاؤك الديار » ؛ ثم طموحه فى أن يحصل على عطايا الأمراء والحكام ورغبته فى أن يعيش حياة رغدة خالية من منغصات الحرمان التى يشكو منها ؛ والتى قد تلجئه الى مثل أخيه هشام الذى يضن عليه ويصرف وجهه عنه • لهذه الاسباب نسمع مثل هذه الأنات تتردد فى شعره :

متى يبلنى الدهر الذى يرجع الفتى
على بدئه أو تشتعبنى شواعبه (٢)

ويكرر هذه الأمنية مرة ثانية :

متى أبل أو ترفع بى النفس رفعة
على الراح احدى الخارمات الشواعب(٣)

ويقول لناقته وهو يمنيها الامانى :

تلاقى ان سبقت به المنايا
تلاد أغر ، متلاف ، مفيد (٤)

---

(١) ارفض – تفرق وتشعث من الضرب ، وهللت – صارت كالأهلة من الهزال ، جروم المطايا – أجسادها ، عذبتهن صيدح – أرغمتهن على الجرى ، والمعنى: اذا ما أسرعت المطايا وهزلت من السير والضرب المتواصل – أتعبتهن صيدح (اسم ناقة الشاعر) بقوتها ومواصلتها السير •

(٢) يبلنى – يصيرنى باليا ، الشواعب – المنايا ، والمعنى : متى يبلنى الزمن أو يختطفنى الموت لأستريح من عذاب الحب والهجران •

(٣) الخارمات الشواعب – الموت •

(٤) تلاد – مال قديم •

ويقول لها مرة ثانية وقد آلمها فراق ابل الدهناء مثل ما يؤلمه فراق أهله وأحبابه :

عشـــية حنت فى زمامى صـــبابة
الى ابل ترعى بــــلاد الجآذر (١)
ستستبدلين العام ان عشت سالما
الى ذاك من ألف المخاض البهازر (٢)
قلوصين عوجاوين بلى عليهمـــــا
هواء السرى ثم اقتراح الهواجر (٣)

وكيف يهنأ بالعيش من حياته دائما على ظهر ناقة ضـــامرة تطوى به لهب الصحراء لا ينام الا غرارا بجوار ناقته : « كتحليـــل الألى ، ثم قلصت ، به شيمة روعاء تقليص طائر » كل مـــا يحتمى به من الحر ثوبه وعمامته التى يبسطها على وجهه ؛ وحين يريد أن يروى ابله يربط وعاء بحبل ويدليه فى بئر عميقة ذات ماء آجن ، مطحلب ، عشش فيها العنكبوت ؛ فيهدم للعنكبوت بيته ثم يصـــب المـــاء فى حوض للابل لتشرب ، فمنها ما يشرب قليلا ؛ ومنها ما لايشرب أبدا ؛ أو مايذوى وجهه بعيدا ــ ثم يستأنف رحيله وقرن الشمس لم يبـــد حاجبه ؛ واذا وضـــع رفيقه جنبه على الحجارة استغرق فى النوم فكأنه ينام على الحشايا « ذات الزخارف » هذا الى جانب عذاب الحب وآلامه ، بســـبب أهلها الذين آلوا ألا يزوروها ؛ وبسبب اطاعتها هى للوشاة •

---

(١) الجآذر ــ البقر الوحشى •
(٢) المخاض ــ النوق الحوامل ، البهازر ــ الضخام السمان •
(٣) قلوص ــ بعير أو ناقة ، عوجاء ــ عجفاء ضامرة من السير ، أبلاهما ــ جعلهما ضامرتين ، اقتراح الهواجر ــ السير فى الهجير وقت الظهيرة واشـــتداد الحر •

والمعنى : لقد حنت ناقتى الى رفاقها من ابل البادية حيث يكثر البقر الوحشى ، فوعدتها بأننى حين التقى بك وتمنحنى المال ــ سأشترى لها ناقتين نشيطتين ضامرتين من السير ليلا ونهارا •

أطاعت بك الواشين حتى كأنمـــا
كلامك اياهـــا عليك حـــرام

مع ما يدفعه اليه حنينه المتجدد من بحثعنها فى تلك الصحراء الشاسعة حتى يهتدى الى منازل أهلها بعد أن رحلوا عن ديارهم :

فرب بلاد قد قطعت لوصـلكم
على ضـــامر منها السـنام المحطما

هذه لا شك بعض الأسباب التى كست شعره تلك الغلالة من الحزن ؛ فمنحته مذاقا انسانيا خاصا تهتز له أوتار قلوبنا رغم بعد المسافة الزمنية بيننا ؛ وبين الشاعر :

ولقد كان رغم اتقاد عاطفته متزنا عاقلا لا يقدم على أمـر يجر عليه المتاعب ، فلقد انتقده حبتر بن ضباب « فى قوله : ضبر رعى روض القذافين » فقال له : أسمنت فانبعث أى ليس هذا ممـــا توصف به النجائب لأن الرحلة تعجلها عن السمن ، فقيل له ألا تهجو بنى حبتر فامتنع وقال : انهم رماة رواة أى يروون الشعر ويرمون الرجل بمعايبه .

الفصل الثانى

ثقافته

يشير ابن طباطبا فى كتابه « عيار الشعر » الى ما يجب على الشاعر أن يأخذ به نفسه « من أدوات يجب اعدادها قبل مراسه، وتكنف نظمه ؛ منها : التوسع فى علم اللغة والبراعة فى فهم الاعراب ، والرواية لفنون الآداب ؛ والمعرفة بأيام العرب وأنسابهم ومناقبهم ، ومثالبهم · والوقوف على مذاهب العرب فى تأسيس الشعر والتصرف فى معانيه ، فى كل فن قالته العرب فيه ؛ وسلوك مناهجها ·· »

ولقد تسلح ذو الرمة بهذه الأدوات ، وغيرها قبل أن يقوم برحلته القصيرة مع الشعر ولقد تكفل له بالتوسع فى علم اللغة ؛ والبراعة فى فهم الاعراب نشأته فى رمال الدهناء بين قومه من بنى عدى · نعم كان كثير التردد على كناسة الكوفة ، ومربد البصرة ؛ كما قام برحلات الى دمشق عاصمة الأمويين ، والى خراسان وأصبهان وغيرها لمدح الولاة والحكام ولكن ذلك جاء بعد أن اكتملت شاعريته ونضجت أدوات تعبيره ، فأصبحت زيارته للحضر عاملا من عوامل ترقية شعره ؛ وترقيقه لا عاملا من عوامل الافساد أو ادخال اللحن

والخطأ فى شعره ، لذلك كان أئمة اللغة يعتمدون على شعره . ويستشهدون به ، حين قعدوا قواعد اللغة ، أو جمعوا مادتها من شفاه الأعراب ؛ وتجولوا بين القبائل البعيدة المتناثرة فى سبيل ذلك متحملين الأهوال والمتاعب ، وفى كتب اللغة والنحو العديد من أبيات شعره التى أوردها العلماء للاستدلال على صحة كلمة أو بيان معنى أو للاسترشاد لمعرفة قاعدة أو اثباتها ؛ أو البرهنة على ما شذ عن هذه القاعدة ، والكتاب لسيبويه وأساس البلاغة للزمخشرى ، والعين للخليل بن أحمد ، وكتب البلاغة والادب أكبر دليل على ذلك .

وقد قال حماد الراوية (١) : قدم علينا ذو الرمة فى الكوفة فلم نر أحسن ؛ ولا أفصح ، ولا أعلم بغريب منه .. وقال عنه الأصمعى : (٢) ذو الرمة حجة لأنه بدوى وليس يشبه شعره شعر العرب . الا واحدة تشبه شعر العرب وهى التى يقول فيها : والباب دون أبى غسان مسدود » لذلك كان أهل البادية الفصحاء يعجبون بشعره(٣) : عن صالح بن سليمان أن جريرا والفرزدق كانا يحسدان ذا الرمة ؛ وأهل البادية يعجبهم شعره « ولا يغض من ذلك ما قاله الأصمعى فى موقف الدفاع عن النفس من أن ذا الرمة قد أكل البقل والمملوح فى حوانيت البقالين حتى بشم .. » وذلك فى صدد الدفاع عن زعمه « بأن أقل ما تقول العرب الفصحاء « فلانة زوجة فلان ، وانما يقولون : « زوج فلان » فقيل له ألم يقل ذو الرمة ؟ .

أذو زوجة بالمصر ، أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاويا(٤)

فقال : العبارة التى أوردناها سابقا ، ثم ان الأصمعى لم ينف صحة استعمال زوجة وانما قال ذلك قليل ..

---

(١) الأغانى جـ ١٦ .
(٢) الموشح للمرزبانى .
(٣) الأغانى جـ ١٦ .
(٤) ثاويا ـ مقيما .

أما المنبع الثانى الذى أمده بثروة غزيرة من التعبير والتصوير فهو الاسلام والقرآن الكريم ؛ نرى صورة ذلك ؛ واضحة فى شعره ، فحين يشتد به الوجد وتلهبه بسياطها لواعج الشوق يعلل نفسه قائلا : « أن الكريم وذا الاسلام يختلب » ، والصائد يرمى الفريسة فتخطئها السهام رغم شهرته بالرماية لأن « الأقدار غالبة » .

رمى فأخطأ ، والأقدار غالبة

فانصعن،والويل هجيراه والحرب (١)

والثور يكر على كلاب الصيد ، كأنه يطلب الشهادة أو يحتسب من الله الأجر .

فكر يمشق طعنا فى جواشنها

كأنه الأجر فى الاقبال يحتسب (٢)

كما أوردنا له فيما سبق الأبيات التى يتحدث فيها عن قصره الصلاة ؛ والتيمم ؛ وهجائه لامرئ القيس لانصرافها عن الصلاة ومعاقرة الخمر وكثيرا ما يدعو لرفيقيه بأن يجزل الله لهما الثواب اذا عاجا ناقتيهما معه على ديار المحبوبة :

تكن عوجة يجزيكما الله عنده

به الأجر أو تقضى ذمامة صاحب

أو يقول لهما : وصاحبتما يوم الحساب محمدا

ويستمد بعض التعبيرات القرآنية كقوله :

---

(١) انصعن — اندفعن وهربن ، هجيراه — هذيانه وكلامه ، الويل والحرب — الهلاك والضياع .

(٢) يمشق — يسرع فى طعنه ، جواشنها — صدورها ، يحتسب — يطلب الأجر من الله .

تردیت من ألوان نـور كأنـــــه
زرابی ، وانهلت علیك الرواعد (١)

والاماء یمسحن الجمال مما علق بها من شوك مسح العوابد بأكفهن ركن البیت الحرام :

یمسحن عن أعطافه حسك اللوى
كما تمسح الركن الأكف العوابد

ویحترس احتراسا دینیا فی مدحه لبلال بن أبی بردةفیقول « یجیرك بعد الله من تلف الدهر » ویصف سحر عینی محبوبتـــه بأن البابلیین هاروت وماروت قد نفسا السحر فیهما :

وعین كأن البـــابلیین لبســا
بقلبك منها یوم معقلة سـحرا (٢)

ولو أن لقمـــان الحكیم تعرضت
لعینیه می سـافرا كاد یبرق »(٣)

وتعبیره بالباخع الوجد نفسه وقوله : ان الأمر المكروه قد ینطوی علی الخیر ، والأمر المحبوب قد یحتـوی علی الشر ، فی قوله :

ألا أیهذا الباخع الوجد نفسه
لشیء نحته عن یدیه المقـادر (٤)

فكائن تری من رشدة فی كریهة
ومن غیة تلقی علیها الشراشر (٥)

---

(١) زرابی ـ بسط منقوشة ، الرواعد ـ السحب الممطرة ذات الرعد .
(٢) البابلیین ـ هاروت وماروت ، وفی الأساطیر العربیة أنهما علما الناس فن السحر ببابل .
(٣) یبرق ـ یبهت .
(٤) الباخع ـ القاتل ، نحته ـ أبعدته .
(٥) الشراشر ـ المحبة .

انما هو صياغة موفقة للآية الكريمة : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ؛ وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

أما **المنبع الثالث** أو الرافد الثالث لثقافته ، فهو تلك الحصيلة الواسعة من التراث الشعرى فلقد كان راوية للراعى النميرى، وحين كان يحاجه أحد فى شعره كثيرا ما كان يستشهد على صحة ما يقول بأبيات من شعر الراعى كما حدث ذلك حين اعترض عليه أحدهم بقوله : « لقد جعلت لها ذفرى كذفرى الناقة ؛ فاستشهد بقول الراعى « وذفرى أثيلة » وربما كانت روايته لشعر الراعى هى التى هدته الى وصف الابل ، ثم توسع فى ذلك فشمل الوصف عنده الابل وغيرها ، وهذا ما عناه حين قال ان مثلى ومثل الراعى كمثل شاب يتبع شيخا فسلك به شعبا ، ثم تركه الشاب وسلك شعابا كثيرة من بعده ، كما أنه ألم بدواوين الشعراء الآخرين منذ عصر امرىء القيس الى وقته ، وفى الديوان قصيدة يبدؤها بقوله :

قف العيس فى أطلال مية فاسأل
رسوما كأخلاق الرداء المسلسل (١)

تشبه أن تكون معارضة لمعلقة امرىء القيس المشهورة ؛ فبالاضافة الى الاتفاق بينهما فى الوزن والقافية نجد عبارات برمتها؛ من معلقة امرىء القيس فى قصيدة ذى الرمة ، مثال ذلك تأثره بقول امرىء القيس :

خرجت بها امشى تجر وراءنا
على أثرينا ذيل مرط مرحل (٢)

فيقول :

كأن لم تحل الزرق مى ولم تطأ
بجرعاء حزوى ذيل مرط مرحل

(١) العيس ـ الابل البيض ، رسوما ـ بقايا الديار ، أخلاق الرداء ـ الرداء القديم البالى ، المسلسل ـ المخطط .

(٢) المرط ـ كساء من صوف أو حرير ، مرحل ـ عليه تصاوير الرحال .

ولالمامه الواسع بالشعر العربى اتهمه ابن سلام بالأخذ من غيره فقال : وكان ذو الرمة كثير الأخذ من غيره ؛ ومما أخذه من غيره · ويذكر أمثله كثيرة لذلك ، من هذا قوله : « يطفو اذا ما تلقته الجراثيم (١) » أخذه من قول العجاج : اذا تلقته الجراثيم طفا » وقوله : كأنها فضة قد مسها ذهب » من قول امرىء القيس :

كبكر مقاناة البياض بصفرة
غذاها نمير الماء غير المحلل (٢)

ويزعم رؤبة كما يزعم العجاج أن ذا الرمة يصوغ معانى رجزهم شعرا (٣) قال رؤبة لبلال بن أبى بردة : علام تعطى ذا الرمة وهو يعمد الى مقطعاتنا فيصلها فيمدحك بها ؟ فقال : والله لو لم أعطه الا على تأليفه لأعطيته ؛ وأمر له بعشرة آلاف درهم » واذا كنا لا نوافق هؤلاء الذين يتهمونه بالأخذ من غيره ، ونعد المشابه من شعره بأشعار غيره أثرا من آثار ثقافته فنحن لا ننكر علمه الواسع بالشعر واطلاعه على شعر معاصريه ، وتأثره بهم كما يتأثر كل انسان بما يقرأ · بل نحن نحمد له ذلك ؛ فالموهبة دون صقل واطلاع لا يمكن أن تصنع شاعرا خالدا كذى الرمة ؛ وما أكثر الأفكار والاحساسات التى تتشابه لتشابه التجارب الانسانية والطبيعة البشرية ، وقد قال زهير ·

ما أرانا نقول الا معادا
أو معارا من قولنا مكرورا

والرافد الرابع هو المامه الواسع — كما اشترط ابن طباطبا — بأيام العرب ووقائعهم يظهر ذلك بارزا فى مدائحه ، وأهاجيه

(١) يطفو — يرتفع ، الجراثيم — أصول الشجر ، والمعنى : يرتفع بصدره حينما تقابله جذوع الأشجار لينال من ورقها ·

(٢) يصف امرؤ القيس لون محبوبته بأنه أبيض ضارب الى الصفرة فكأنه درة اختلط بياضها بصفرة ، وغذاها الماء الصافى الذى لم يحله ·· انسان أو حيوان ·

(٣) الأغانى ج ١٦ ·

وفخرياته • فحين يمدح الملازم بن حريث وهو من بني حنيفة يذكر بعض أيامهم وانتصاراتهم كأسرهم لعمرو بن كلثوم وشده الى بعير الحارث بن ظالم الغطفاني فيقول :

هم قرنوا بالبكر عمرا وأنزلوا
بأسيافهم يوم القروض ابن ظالم

وكذلك يفعل حين يفتخر بقبيلته :

أخذنا على الجفرين آل محرق
ولاقى أبو قابوس منا ومنذر

وأبرهة اصطادت صدور رماحنا
جهارا وعثنون العجاجة أكدر (١)

تنحى له عمرو فشك ضلوعه
بنافذة نجلاء والخيل تضبر (٢)

أبى فارس الحواء يوم هبالة
اذ الخيل فى القتلى من القوم تعثر

كما يستتبع ذلك بالضرورة الالمام بمثالب القبائل الاخرى التي يهجوها أو يهجو واحدا منها • والى جانب هذه المعرفةالواسعة بأيام العرب ووقائعهم • معرفته الشاملة لصفات وحوش وطيور وهوام البادية ، كما كان على علم بأنواع الرياح وأسمائها ومهابها والأنواء ؛ ومواقيتها ؛ والسحب وألوانها ، والممطر منها وغير الممطر ، بل ان دارسا لعلم الحيوان كالجاحظ يستخلص من

---

(١) عثنون العجاجة ــ أوائل الغبار ، عمرو • عمرو بن كلثوم •

(٢) تضبر ــ تثب ، المعنى : أننا انتصرنا فى الموقعة التى كانت قريبا من الجفرين وهما بئران للماء على جد النعمان كما لاقى أبو قابوس منا ومنذر ابنه الويل وقد انتصرنا على أبرهة أحد ملوك اليمن ، وكان جدى مسعدة وهو جده من قبل أمه فارس الحواء (اسم فرسه) الذى قاتل عليه آنئذ •

شعره أوصاف وعادات حيوانات الصحراء ، وحشراتها من ذلك تعقيبه (١) على بيت ذى الرمة الذى يقول فيه :

تراه اذا هب الصبا درجت به
غرابيب من بيض هجائن دردق (٢)

فيقول : والصبا والجنوب تهبان فى أيام يبس البقل ، وهو الوقت الذى يثقب النعام فيه البيض • ويقول الجاحظ أيضا : وفى الظهيرة ؛ الصوت الضعيف يصبح عاليا قال ذو الرمة :

اذا حثهن الركب فى مدلهمة
أحاديثها مثل اصطخاب الضرائر (٣)

وقال : اذا قال حادينا لتشبيه نبأة
صه لم يكن الا دوى المسامع (٤)

وقد أفضنا فى الفصل الذى عقدناه عن « وصف الطبيعة » فى الحديث عن الصحراء والحيوانات التى وصفها ذو الرمة وصفا تسجيليا فيه كثير من التفصيل حتى ليكاد لا يدع عضوا من أعضاء الناقة خاصة ، الا وصفه •• لهذا قال عنه بعض النقاد القدامى انه أوصف الناس لفلاة ؛ وهاجرة ، وحرباء ، وضب ، وحية الخ (٥) •• ولم يكن ذو الرمة يعتمد فقط على ملاحظته وخبرته بل قد يسأل بعض ذوى الخبرة فى حياة البادية ليستفيد منهم ؛ فلقد سأل يوما أعرابية عن الغيث فقالت : غثنا ما شئنا • فكان ذو الرمة يقول : قاتلها الله ما أفصحها •• ويعقب على ذلك المبرد قائلا . وترك ذو الرمة هذا المذهب على اعجابه به ، واختياره له وقال :

---

(١) الحيوان للجاحظ •

(٢) غرابيب ـ سود وهى أفراخ النعام ، هجائن ـ شديدة البياض ، دردق ـ صغار •

(٣) الضرائر ـ الزوجات لزوج واحد والمعنى : للأصوات فى الصحراء المظلمة صخب كصخب الضرائر •

(٤) صه ـ اسكت (اسم فعل أمر) •

(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة •

« ولا زال منهلا بجرعائك القطر » فقيل له هذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها لأن القطر اذا دام فيها فسدت ، والجيد قول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها
صوب الربيع وديمة تهمى (١)

والواقع أن ذا الرمة احترس فى صدر البيت اذ قال : «ألا يا أسلمى يا دار مى على البلى» فدعا لها بالسلامة ، وفى ذلك حماية لها من أن يفسدها دوام المطر .

وثقة ذى الرمة فى معرفته بفنه ، والمامه بموضوع وصفه ، واتقانه لأداة تعبيره جعلته يجادل حتى الأمراء الأدباء ويصوب لهم أخطاءهم كما فعل مع بلال بن أبى بردة حين أنشد أبيات حاتم الطائى : « لحا الله صعلوكا » الى أن قال :

يرى الخمس تعذيبا،وان يلق شبعة
يبت قلبه من قلة الهم مبهجا

فقال ذو الرمة : يرى الخمص تعذيبا ؛ وانما الخمس للابل وانما هو خمص البطن فمحك بلال وكان يحب المجادلة ؛ وقال هكذا أنشدنيها رواة طىء ؛ فرد عليه ذو الرمة فمحك (جادل) فدخل أبو عمرو بن العلاء ، فقال له بلال : كيف تنشدهما ؛ وعرف أبو عمرو الذى به ؛ فقال : كلا الوجهين .. فقال : أتأخذون عن ذى الرمة ؟ قال : انه لفصيح وانا لنأخذ عنه بتمريض ، وخرجا من عنده ، فقال ذو الرمة لأبى عمرو بن العلاء : والله لولا أنى أعلمك حططت فى حبله ؛ وقلت فى هواه ؛ لهجوتك هجوا لا يقعد اليك معه اثنان .

والحق أن ذا الرمة كان يعرف رسوخ قدمه فى الشعر وتمكنه

---

(١) الكامل للمبرد جـ ١ .
والديمة ـ سحابة ، تهمى ـ تمطر .

من فنه ، لذلك كان يعتز بشعره ، ويفاخر به ، وبخاصة أنه يضيف الى الموهبة ـ الصنعة وحسن الاتقان بل كان كثير التهذيب لشعره حتى لقد شكا منه اليه بعض رواة أشعاره : فقال له : « أفسدت على شعرك » . وذلك أن ذا الرمة كان اذا استضعف الحرف أبدل مكانه (١) ومن اعتزازه بشعره ؛ قوله لأحد ممدوحيه :

سيأتيكم منى ثناء ومدحة
محبرة، صعب، غريض قريضها (٢)
سيبقى لكم الا تزال قصيدة
اذا اسحنفرت أخرى قضيب أروضها (٣)
رياضة مخلوج ؛ وكل قصيدة
وان صعبت ، سهل على عروضها (٤)

لذلك كان كثير التساؤل .. لم لا يعد فى الفحول من الشعراء ؟ نعم لم لا يعد منهم . وكل أدوات الفن لديه وافية مكتملة ؟ كما كان ينافح عن شعره كل مصاول ، فلقد هجا « الحكم بن عوانة الكلبى » لأنه عاب شعره ، وقد هدد أبا عمرو ابن العلاء حين أيد بلال بن أبى بردة ولم يؤيده فى رأيه . كما كان يدافع عن شعره بالحجة والرأى فيستدل بكلام السابقين على صحة ما قال ، ويرد على من قال له : لماذا لم تصف الناقة بمثل

---

(١) الموشح للمرزبانى .

(٢) محبرة ـ نفيسة مكتوبة ، غريض ـ طرى جديد .

(٣) اسحنفرت ـ ذهبت ومضت ، قضيب ـ لم تذلل ولم تروض أى لم تكتمل وتهذب .

(٤) مخلوج ـ خبير متعود على رياضة الشعر أو رياضة من به «مس» وجنون والشعراء كذلك .

والمعنى : ستأتيك منى قصيدة محبرة رائعة جديدة فى صياغتها ومعانيها فاذا ما فرغت من هذه بدات فى صياغة أخرى لم تكتمل ، واننى لقادر على صياغتها مهما صعب عروضها ووزنها .

ما وصفها به الراعي،بأن الراعى وصف ناقة ملك ـ أما أنا فوصفت ناقة سوقة ، كما ينكر أنه يعرف القراءة فحين يسأله عيسى بن عمرو أتقرأ ؟ يقول : «بيده على فيه» اكتم علي فانه عندنا عيب(١)٠ انه لا يريد لشعره أن يشاب بما ينال منه أو يضعف من شأنه ؛ لذلك كثيرا ما أصلح ما ظنه الناس خطأ رغم أن بديهته كانت أصدق فى التعبير بالبليغ الرائع من علمهم ، فحين أنشد :

اذا غير النأى المحبين لم يكد
رسيس الهوى من حب مية يبرح (٢)

قال له ابن شبرمة : أراه قد برح ٠ فغيرها فى الحال بعد أن فكر تفكيرا مبرحا شادا ناقته بزمامها ؛ متراجعا بها الى الوراء ثم قال : لم أجد ؛ وقد أخطأ ابن شبرمة فان هذا كقوله تعالى : « اذا أخرج يده لم يكد يراها » ومن قوله لعيسى بن عمرو : اكتم على فانه عندنا عيب ٠٠ يثبت لنا أن ذا الرمة كان على علم بالقراءة والكتابة ؛ ولقد عرف عنه معاصروه من النقاد ذلك رغم انكاره ، فلقد عابوا عليه تشبيهه عين الناقة بالميم « وقالوا لولا أنه يقرأ ما أمكنه ذلك ؛ وعن سلمة بن محارب : أن ذا الرمة كان يقرأ ويكتب ؛ ولقد قال لعيسى بن عمرو : اكتب شعرى ، فالكتاب أحب الى من الحفظ لأن الأعرابى ينسى الكلمة ٠ وقد سهر فى طلبها ليلته فيضع فى موضعها كلمة في وزنها ينشدها الناس (٣) ولعل مما يعضد ذلك كثرة تصويره لآثار الديار بالكتاب المحو ٠٠ أو الوحى المنشور ، واذا كان القدامى قد اعتبروا معرفته القراءة عيبا ؛ فنحن نعد ذلك فضيلة تضاف الى فضائله ومزاياه الكثيرة ٠٠

---

(١) الأغانى جزء ١٦ ٠

(٢) ورسيس الهوى ـ بقية منه ٠

(٣) الحيوان جـ ١ للجاحظ ص ٤١ ومجلة المجلة عدد ١٣ من مايو ١٩٦٦ بقلم عادل سليمان (مقال) ٠

وأخيرا فان شاعرنا قد توفى في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٧ هـ عن أربعين عاما وكان يقول عن نفسه أنا ابن نصف الهرم ، وقد اختلف فى سبب وفاته ؛ فقيل توفى وهو خارج الى هشام بن عبد الملك ودفن بحزوى وهى الرملة التى كان يذكرها فى شعره كثيرا حتى قال له حلبس الأسدى : أنك تنعت الفلاة نعتا لا تكون منيتك الا بها فلما دنا من البصرة ، قال :

وانى لعاليهـا ، وانى لخـائف
لما قـال يوم الثعلبيـة حلبس

فلما توسط الفلاة نفرت به ناقته فسقط عنها فمات ، وعن رجل من بني تميم « أنه اشتكى النوطة زمنا فلما تماثل للشفاء واحتجنا الى زيارة بنى مروان ؛ وركب ناقته فقمصت به وكانت قد أعفيت من الركوب فانفجرت النوطة التى كانت به ٠٠ فأرسل الى أهله ، فحضروا اليه ودفنوه بعد موته برأس حزوى » ، وقيل بل نفرت به ناقته وهو عائد من قبل الخليفة ووردت ناقته أهله فركبها أخوه وقص أثره حتى وجده ميتا وعليه خلع الخليفة ٠ لكن الأصمعى يروى عن أبى الوجيه أنه قال دخلت على ذى الرمة وهو يجود بنفسه فقلت له : كيف تجدك ؛ قال : أجدنى والله أجد ما لا أجد أيام أزعم أنى أجد ما لم أجد حيث أقول :

كـأنى غـداة الزرق يامى مدنف
يجـود بنفس قد أحـم حمامهـا (١)

قال : وكانت منيته هذه بالجدرى وفى ذلك يقول : ألم يأتها انى تلبست بعدها مفوفة ؛ صواغها غير أخرقا ؛ ويقول محمد بن الحجاج الأسدى انه كان يزوره فى مرضه الذى مات فيه ؛ وكان مقيما بالحجر ٠٠٠

---

(١) مدنف ـ مريض ، حم حمامها ـ قرب الموت ٠

الباب الثانى

الحب فى شعر ذى الرمة

الفصل الأول

ذو الرمة العاشق

فى السن التى يبلغ فيها الشاب قوته واكتماله ، تلك السن التى تتميز بالقلق واشتعال الرغبة وتوهجها وأعنى بها السن من العشرين الى الأربعين ؛ وفى رمال الدهناء الواسعة حيث الحر الشديد اللاهب والحياة الجافة ، وليس لدى شاب كذى الرمة من واحه يتفيأ ظلالها سوى واحة الحب ؛ يتغنى به فتردد البيد أغنياته ، ويسامر به رفاقه ، ويستثير نشاط أصدقائه الذين يصحبونه فى الأسفار ، وقطع هذه الآماد المتطاولة :

ونشوان من طول النعاس كأنه
بحبلين من مشطونة يترجح (١)
أطرت الكرى عنه ، وقد مال رأسه
كما مال رشاف الفضال المرنح (٢)
اذا مات فوق الرحل أحييت روحه
بذكراك والعيس المراسيل جنح (٣)

(١) نشوان ــ سكران ، مشطونة ــ بئر معوجة ، يترجح ــ يتأرجح ويتمايل.
(٢) الكرى ــ النوم ، الفضال ــ الخمر .
(٣) العيس المراسيل ــ الابل اللينة السير ، جنح ــ مائلة من النشاط .

وليس معه من أحد سوى رفيق أشعث الشـــعر مغلوب على أمره من النعاس مرتخي العمامة ؛ ذهب بنشاطه السفر ، يناديه الشاعر فلا يسمعه الا كما يسمع ماتح الماء صدى صوت من يناديه من قاع البئر العميقة وقد ونى غرفه للماء من التعب حتى اذا سمع حديث الشاعر عن محبوبته مى ؛ وما نظمه فيها من شـــعر نشط ودبت الحياة فى عظامه ٠

وأشـــعث مغلوب على شـــدنية
يلوح بها تحجينها ، وصليبهـــا (١)
أخى شقة ، رخو العمامة ، منـــه
بتطلاب حاجات الفـــؤاد طلوبها (٢)
تجلى السرى من وجهه عن صـــفيحة
على السير ؛مشراق كريم شحوبها (٣)
كأنى أنادى ماتحا فوق رحلهـــــا
ونى غرفه ، والدلوناء قليبهـــا (٤)
رجعت بمى روحــــه فى عظـــامه
وكم قبـــله من دعـــوة لا يجيبهـــا

فى هذه السن ؛ ووسط هذه الصحراوات الشاســـعة المهلكة التقى ذو الرمة بمحبوبته التى استبدت بقلبه ، وسيطر هواهـــا على كل جارحة من جوارح نفسه فصار بحق مضرب المثل فى الحب ، حتى قال الأصمعى فى صدد الحديث عنه « ما أعلم أحدا من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حبا أحسن من شكوى ذى الرمة مع عفة ورصانة عقل ٠٠ » ويعقب صديقه عصمة بن مالك الفزارى على حديثه عن احدى زياراته لمى وقد صحبه فيها بقوله : «فو الله ما رأيت أشد صبابة ولا أحسن صبرا منه ٠٠ » (٥)

---

(١) شدنية ـ ناقة ، تحجينها وصليبها ـ علامتان فى الناقة ٠
(٢) أخى شقة ـ سفر بعيد ، منه ـ ذهب نشاطه ، تطلاب ـ طلب الحاجات
(٣) تجلى ـ ظهر ، صفيحة الوجه ـ ظاهره ، مشراق ـ مشرقة جميلة ٠
(٤) الماتح ـ من ينزل فى قاع البئر ليملأ الدلو منها ٠
(٥)تزيين الأسواق ٠

ويقول عنه صاحب « معاهد التنصيص » هو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ؛ بل ان داود الأنطاكى مؤلف تزيين الأشـــواق يترجم له مع من ترجم لهم من الشعراء المتيمين والعذريين من أمثال المرقش الأكبر وأبى صخر الهذلى وعروة بن حزام ؛ وجميل وكثير والعباس بن الأحنف وغيرهم ، وقد أشار أبو العلاء فى « رســالة الغفران » الى ولعه بمى فقال : وما أشك أنه ــ أمتــع الله الآداب ببقائه لو رزق محاورة أبى الاســود على عرجــه ؛ وبخله المتناذر وجرجه ــ لكانت مقته له أبلغ من مقة مهدى ليلاه ؛ ولا أقول رؤية أبيلاه ؛ ولو أدرك محاضرة أبى الخطاب (الأخفش الأكبر) لكان بدوش عينيه أشد شغفا من الحادرة (النابغة) بسمية ومن غيــلان بمية ٠٠ لأنه قال :

وعينـــــان قال الله كونا فكانتــــا
فعولين بالألباب ما تفعــل الخمـــر

لقد اكتوى بنار الحب فانصهرت نفسه ، ولانت طبيعتــــه البدوية ، ورقت مشاعره واكتسب تلك الحساسية الزائدة ؛والتوتر النفسى الخلاق الذى شحذ حواسه وفتح فى نفسه ألف نافذة ونافذة تستقبل معطيات الحياة بنهم وتلهف ، فلم يعد يعبر من حوله صوت دون أن يلتقطه ، أو رائحة طيبة دون أن تسكر حواسه ، أو مشهد من مشاهد الصحراء المختلفة دون أن يترك طابعه فى نفســه ٠٠ مما أكسب شعره هذا الغنى الخصب فى الصــور التى تدرك بمختلف الحواس ؛ وترك عليه هذه المسحة من الرقة واللين الحضرى رغـم بداوته ؛ ولعل ذلك هو ما أغرى عددا من المغنين بتلحين شـــعره وتأديته فى حضرة الخلفاء ، والأمراء ؛ فهذا اسحاق بن ابراهيــم الموصلى يحدثنا عن أبيه بأنه قد صنع لحنا فأعجبه فأخذ يبحث عن الشعر الذى يلائمه فلم يوفق وفى المنام رأى رجلا يقول له : أين أنت من قول ذى الرمة :

ألا يا اسلمى ٠٠ يا درامى على البلى
ولا زال منهــلا بجرعائك القطر (١)

(١) جرعائك ــ رمالك ، القطر ــ المطر .

فلما استيقظ دعا بمن ضرب عليه وغنى به فاذا هو « أوفق ما خلق الله » وتنبه منذ ذلك الوقت الى الغناء فى شعره ؛ وصنع فيه ألحانا كثيرة ؛ ولعل ما أوحى به الى الموصلى فى حلمه هو علمه بحب الرشيد لشعره ؛ وحفظه له منذ صباه الباكر .... لذلك كان يطرب كلما غناه بقصيدة من قصائده مما جعل الموصلى يطلب من الخليفة هارون الرشيد أن يقطعه شعر ذى الرمة ، ويحظر ذلك على سواه . فعمل مائة صوت فى هذا الشعر ، وحصل على مئات الآلاف .. كما جاء فى نص عبارته ..

ولعلنا نعذر الرواة القدامى حين يضطربون فى نسبة بعض الأبيات له ؛ فلقد نسبوا له هذه الأبيات التى منها :

أصلى فما أدرى اذا ما ذكرتها
اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

كما نسبوها الى مجنون بنى عامر ، وقد ضمنها « شوقى » مسرحيته عن « المجنون » والسبب فى ذلك هو هذه الحرارة والتوهج العاطفى الذى نلحظه فى شعره ، كما نلحظه فى شعر الشعراء العذريين الذين حفظت الأجيال شعرهم كنموذج للشعر الوجدانى الخالد .

فأين التقى ذو الرمة بمحبوبته ؟ وما حديث حبهما ؟

لقد كان ذو الرمة تميميا من الرباب أحد بيوت بنى تميم المشهورة وهو يقول عن هذه البيوت مفتخرا أو أمده جرير بذلك كما يزعم بعض الرواة :

يعد الناسبون الى تميم
بيوت العز أربعة كبارا

يعدون الرباب لهم وعمرا
وسعدا ثم حنظلة الخيارا

ويحدد لنا الجماعة الذين ينتسب اليهم فى نفس القصيدة وهم الرباب فيقول :

وانى حين تزخـــر لى ربـــابى
عماعم امنح الثقلين جـــــارا (١)
كما كانت مية أيضا تميمية من بنى منقر :
تميمة ، نجـــدية •• دار أهلهـــا
اذا موه الصمان من سبل القطر (٢)

وقد كانت منازل بنى تميم بأرض نجد ؛ دائرة من هنـــالك على البصرة واليمامة حتى يتصلوا بالبحرين وانتشرت الى العذيب من أرض الكوفة ؛ ولهم بطون كثيرة « ولبـــنى تميـــم منـــازل كثيرة •• صلب ، رهبى ؛ مغنى المثنى ؛ الحيار ؛ الدهنـــاء ؛ الاحساء ، سحنان ؛ الرمادة ؛ وبرة ، الحيرة ، فرع الحفر ؛ شرف الأرطى ؛ الشعر , والصمان » فى هـــذه المنازل أو فى بعضهـــا التقى ذو الرمة بمية حيث كان قوماهما متجاورين بخاصـــة فى فصل الشتاء ؛ الفصل الذى يجمع بين القبائل قبل أن يشتتهـــا الصيف اللاهب فيتفرقون باحثين عن « الأعداد » وأمـــاكن الماء ؛ وهو يؤكد ذلك فى شعره فيقول :

أما استحلبت عينيك الا محـــلة
بجمهور حزوى أو بجرعـــاء مالك
لنا ولكم يامى ، آمست نعاجهـــا
يماشين أمات الرئال الحـــواتك (٣)
ويقول: متى تظعنى يامى عن دار جيرة
لنا ، والهوى برح على من يغالبه (٤)

وقد كان قوماهما يتبادلان الزيارة شأن كل جوار ، حتى اذا

---

(١) تزخرلى ــ تجتمع لى ، عماعم ــ جماعات ، الثقلين ــ الانس والجن •

(٢) موه ــ كثر فيه المطر ، الصمان ــ الحجارة الصلبة ، سبل القطر ــ ما انحدر من ماء المطر ، استحلبت ــ اسالت الدمع •

(٣) النعاج ــ البقر الوحشى ، الرئال ــ أفراخ النعام ، الحواتك ــ القصيرات الخطو • والمعنى : قد رحل قومك وحلت محلهم الحيوانات الوحشية فالبقر الوحشى يماشى فيها أفراخ النعام •

(٤) برح ــ شديد وقوى •

عزم قوماهما على الرحيل انشغلوا عن الزيارة بالاستعداد والتأهب

أراح فـريق جيرتك الجمالا
كأنهـم يريدون احتمـالا (١)
فبت كأننى رجـل مـريض
أظن الحى قـد عزمـوا الزيـالا
فأرغـوا بالسـواد ، فذرقـرن
وقد قطعوا الزيارة والوصـالا (٢)

لقد التقى بها فى مختلف هذه المنازل التى ذكرناها ، بل تتردد فى ديوانه منازل أخرى ربما لم يهتد اليها مؤلف كتـاب « القبائل العربية » وأكثر هذه الأماكن ترددا فى شعره «الزرق» التى هى كثبان رملية بالدهناء ؛ فقد ذكرها نحو ثمانى عشرة مرة، ثم تليها حزوى « التى ترددت فى شعره اثنتى عشرة مرة ، ثـم « وهبين » وحوضى » « ومشرف » وجرعاء مالك وقد ترددت كل منها فى شعره نحو ثمانى مرات ، يلى ذلك « صلب القرينة » ؛ و « المعا » والقلات ، وشارع « واللوى » ؛ وقد ذكر كلا منهـا قريبا من خمس مرات ؛ كما ترددت فى شعره مرة أو مرتين هذه الأماكن : الخلصاء ، الحرد ، منعرج الهذلول ؛رابية الخوى ؛الدحل الأشيم ؛ جوجلاجل ، ماء الوشـيج ، النميط ، لوى لبن ، قسـا فتاخ ، السبيبة ؛ النقا ؛ ذو الرمث ؛ برقة الثور ؛ أقواع الشماليل الوحيد ، معقلة ؛ الحفر ؛ نعف الأجرع ؛ الدهناء » .

وقد يذكر كل مكان على حدة كقوله :

بجانب الزرق لم تطمس معالمهـا
دوارج المور ؛ والأمطار والحقب (٣)

---

(١) أراح فريق جيرتك الجمالا — اعادوها الى منازلهم استعدادا للرحيل ، احتمالا — سفرا ورحيلا .

(٢) أرغوا — رغت ابلهم وارتفعت اصواتها ، السواد — الليل ، ذرقرن — أشرقت الشمس .

(٣) المور — التراب ، الحقب — جمع حقبة وهى ثمانون عاما تقريبا .

ديـار ميــة اذ مى تســاعفنا
ولا يرى مثلهــا عجم ، ولا عرب

وقوله :

عليكن يا أطــلال مى بشــارع
على ما مضى من عهدكن ســلام

وقوله :

لعمرك انى يـوم جرعــاء مشرف
لشوقى لمنقاد الجنيبة ، تابـع (١)

وقد يجمع أكثر من موضع فى القصيدة الواحدة ، مشــيرا الى أن كل منزل منها قد أثار شجونه وذكرياته ، أو لأن بعضهــا معالم فى الطريق الذى سلكته حمول « مية » وأهلها حين الرحيل فمن الأول قوله :

ما فى التلاقى أبدا من مطمع
ولا ليالى شارع .. برجـع
ولا لياليـنـا بنعف الأجــرع

وكقوله :

عفا الزرق من أطلال مية والدحل
فأجماد حوضى حيث زاحمها الحبل(٢)
كأنا وميــا بعد أيامنــا بها
وأيام حزوى لم يكن بيننــا وصــل

وقوله :

لميــه اذ مى معــان تحله
فتاخ فحزوى فى الخليط المجاور (٣)

---

(١) منقاد الجنيبة ــ الناقة ، والمعنى : اننى اتبع قوم محبوبتى منقادا الى مايدعونى اليه شوقى .

(٢) عفا ــ زال وامحى ، الحبل ــ رمال مستطيلة ، أجماد حوضى والدحل ــ مكانان .

(٣) معان ــ وطن ، فتاخ فحزوى ــ مكانان .

وقوله :

عصيت الهوى يوم القـــلات واننى
لداعى الهوى يوم النقا لمطيـع (١)

أرآجعــــة يامى أيامنـــا التى
بذى الرمث أم لا ؛ مالهــن رجــوع

ومن النوع الثانى الذى يعدد فيه الأماكن لمرور آل مية عليها وهم مرتحلون .. هذه الأبيات :

نظرت بجرعـــاء السبيبة نظـــرة
ضحى ،وسوادالعين فيالماء غامس(٢)

الى ظعن يقرضـــن أجـــواز مشرف
شمالا وعن ايمانهـن الفوارس (٣)

ألفن اللوى حتى اذا البروق ارتمى
به بارح راح من الصيف شامس (٤)

وأبصرن أن النقع صارت نطافـه
فراشا وأن البقـــل زاو ويابس (٥)

تحملن من قاع القرينـة بعدمـــا
تصـــيفن حتى ما عن العــد حابس

ويقول عن جمالها وقد سرن أشباها طوالع من «صلب القرينة مارات بمياه الوشيج وأكناف حوضى الرملية :

---

(١) القلات ، يوم النقا . ذو الرمث ـ أمكنة التقيا بها .

(٢) جرعاء السبيبة ـ مكان ، وأجواز مشرف والفوارس واللوى ، وقاع القرينة ـ كلها أماكن فى صحراء الدهناء .

(٣) يقرضن أجواز مشرف ـ يملن عنها ، الظعن ـ الجمال عليها الهوادج .

(٤) البروق نبت ضعيف ، بارح راح ـ رياح شديدة الهبوب .

(٥) النقع ـ المستنقع ، نطافه ـ ماؤه ، فرشا ـ قليلا ضحلا ، العد ـ مكان يتجمع فيه الماء .

واذ هن أكتـــاد بحوضى كأنمـا
زها الآل عيدان آلنخيل البواسق (١)

طوالع من صلب القرينة بعدما
جرى الآل أشباه الملاء اليقـائق (٢)

وقد جعلت زرق الوشيج حداتهـــا
يمينا وحوضى عن شـــمال المرافق

كما قد يجمع بين بعض الاماكن فى القصيدة الواحدة لأنها قريبة متجاورة تكون مكانا واحدا يتضـــح ذلك من الأبيـــات الآتية :

ويوم بذى الأرطى الى بطن مشرف
بوعثائه حيث اسبطرت حبالهـا (٣)

عرفت لها دارا فأبصر صـــاحبى
صفيحة وجهى قد تغـــير حالهـــا

أمن أجل دارصـــير البين أهلهـــا
أيادى سبا بعدى وطال اختيالهـــا

بوهبين تسنوها السوارى وتلتقى
بها الهوج شرقياتهـــا وشمالها (٤)

ومثل :

ألاحى بالزرق الرسوم الخواليـا
وان لم تكن الا رميمـــا بواليـــا

فما كدن لأيابين جرعـــاء مالك
وبين النقـــا يعرفن الا تماريا (٥)

---

(١) أكتاد ـ جماعات ، زها ـ رفع .
(٢) اليقائق ـ البيض .
(٣) اسبطرت ـ امتدت .
(٤) تسنوها ـ ترويها .
(٥) تماريا ـ ظنا وشكا .

كما تتعدد منازل آل مى لتعدد أماكن الاقامة ؛ فكلما عادوا من رحلة الصيف التى تتكرر كل عام ينزلون فى مكان غير الذى كانوا فيه من قبل ، وذو الرمة يصرح بذلك فى شعره :

تجيش الى النفس فى كل منـزل
لمى ، ويرتاع الفـؤاد المشـــوق

لقد كانت مى تقيم مع قومها فى تلك المنازل البعيـــدة عن الريف القريب من البحر ، فالبدوى يأنف أن يقيم فيه : فهى تقيم:

بأجرع مقفار بعيد من القـــرى
فلاة ، وحفت بالفـــلاة جوانبـــه

بعيدا عن البحر وملوحته :

بأرض هجان الترب ؛وسمية الثرى
عذاة ؛ نأت عنها الملوحة والبحر (١)

وهناك فى فصل الشتاء تنسج الطبيعة للأرض رداء أخضر فمياه المطر تهطل بغزارة وتتجمع فى الحفر والفجوات الصخرية، كما تمتلىء الأحواض المعدة لاســـتقبال ذلك ، وينبت حولها وعلى جوانبها ، ربما لمسافات واسعة • البقل وشـــجر الرمث الذى تسمن عليه الابل وقطعان الماشية كما يورق شجر الأرطى ؛والسدر والبروق وشجر الفرقد والقلقلان وغيره من أشـــجار الباديـــة ، وتتساقط الأوراق الخضراء على تلك الفجوات المائيـــة والأحواض وتسبح على وجهها :

تحل اللوى أوجدة الرمـل كلمـــا
جرى الرمث فى ماء القرينةوالسدر(٢)

فهى :

بأدعاص حوضى ثم موضع أهلهـــا
جراميز يطفو فوقها ورق السدر (٣)

---

(١) هجان ـ كريمة التربة ، وسمية الثرى ـ أصابها المطر أول فصـــل الربيع ، عذاة ـ طيبة لم تسق الا بماء السحاب •

(٢) الرمت ـ نبات حمضى ، والسدر ـ شجر النبق •

(٣) ادعاص ـ رمال مجتمعة ، جراميز ـ حياض الماء •

وتهب النسمات الرخية حاملة معها أنفاس الأزهار العطرة التى تملأ الجو أريجا :

تطيب بها الأرواح حتى كأنما
يخوض الدجى فى برد أنفاسها العطر

ويمتد أول النهار وآخره ؛ فيحلو للفتيات الشابات الخروج فى هذين الوقتين ، يخرجن حينا فى الضحى يتخطرن كسرب من الظباء :

الا أيها الربع الذى غير البلى
كأنك لم يعهد بك الحى عاهد

ولم تمش مشى الأدم فى رونق الضحى
بجرعائك البيض الحسان الخرائد (١)

ويخرجن أحيانا أخرى فى العشى وقد لبسن الحلى فى السوق والأذرع يمشين بخطا قصار كدبيب القطا يداعبن الشباب بكلمات حلوة حلاوة عسل النحل الممزوج بالماء البارد لا تلبث أن تتغلغل الى القلوب المتعطشة مطمعة اياها بالأمل الحلو ، حتى اذا أنسوا اليهن وأملوا الوعد منهن خيبن ظنهم وهدمن الامل الذى بنوه والحلم الذى نسجته كلماتهن المطعمة المؤيسة :

وبيضا تهادى بالعشى كأنما
غمام الثريا الرائح المتهلل (٢)

خدالا قذفن السور منهن والبرى
على ناعم البردى بل هن أخدل (٣)

قصار الخطا يمشين هونا كأنه
دبيب القطا بل هن فى الوعث أوجل (٤)

---

(١) الأدم ـ الظباء البيض ·

(٢) الثريا ـ نجم معروف ، المتهلل ـ الممطر ·

(٣) خدالا ـ ممتلئات الأعضاء من اللحم ، السور ـ الأساور ، البرى ـ حلقات ذهبية تزين بها النساء أيديهن وسواعدهن ، البردى ـ نبات ناعم الورق معروف ·

(٤) وهنا ـ على مهل ، الوعث ـ الرمل ، القطا ـ نوع من الحمام مشهور بقدرته على الاهتداء ، أوجل ـ أخوف ·

نواعم ، رخصـــات كأن حديثهـــا
جنى النحل فى ماء الصفا متشمل (١)
رقاق الحواشي منفذات صدورهـــا
وأعجازها عما به اللهو ٠٠ خذل (٢)
أولئك لايوفين شـــيئا وعدنـه
وعنهن لا يصحو الغوى المعـذل (٣)

وقد تومض احداهن بابتسامتها وميض البرق الى من يبادلها الحب أو الاعجاب :

يرين أخا الشوق ابتســـاما كأنه
سنا البرق فىعرف له جاد ماطره (٤)

فيثرن لواعج نفسه ؛ ويصبنه بما يشبه الدوار ٠٠٠

اذا ما الفتى يوما رآهـــن لم يزل
من الوجـــد كالماشي بداء يخـــامره

كما يمشين جماعات ؛ جماعات كقطيع من البقر الوحشى ؛ كل جماعة تضم الفتيات المتقاربات فى السن ٠

وسرب كأمثـــال المها قد رأيتـــه
بوهبين،حور الطرف؛ بيض محاجره
خدال الشوى،نصفان ،نصف عوانس
ونصف عليهن الشفوف معاصره (٥)

---

(١) رخصات ـ طريات ، الصفا ـ الحجارة الملســـاء ، متشمل ـ هبت عليه ريح شمالية ٠

(٢) الحواشى ـ الحديث ، منفذات صدورها ـ نافذات فى الصدور ٠

(٣) المعذل ـ الذى يلومه الناس على تصرفاته ٠

(٤) عرف له ـ أوله ٠

(٥) الشـوى ـ الأطراف الأذرع والسيقان ، عوانس ـ بلغن الحلم ولم يتزوجن ، معاصره ـ الفتاة أدركت ، الشفوف ـ الثياب الرقيقة أو الخمر الرقيقة ٠

وكما تخرج الفتيات جماعات جماعات ، يخرج الفتيان كذلك يلتمسون اللهو والمرح والمغازلة ·

ليالى أبدى فى الديـــار ؛ ولم ألح
مراحي؛ لم أزجر عن الجهل زاجره (١)
أطاوع من يدعو الى ريق الصـــبا
وأترك من يقلى الصبا لا أؤامره (٢)

فى تلك الأنحاء تقضى القبيلة من القبائل فصل الشـــــتاء كله وأوائل فصل الصيف · حتى اذا اشتد الحر فذوت الأعـواد الخضراء ؛ ونفضت الريح شجر البهمى فارتعش كخيول شـــــقر تنفض نواصيها ؛ وارتحل نجم الثريا ايذانا بقدوم الصيف :

أقامت بها حتى ذوى العود فى الثرى
وساق الثريا فى ملاءتـــه الفجـــر
وحتى اعترى البهمى من الصيف نافض
كما نفضت خيل نواصيها شـــقر (٣)

واكتست جداول الماء الى الرياض بما أسفته الريح من شوك وورق يابس ، وسرت الديدان المسماة بالأساريع فى بقله الجاف، وصرت الجنادب بين تلك الأعشاب اليابسة :

يعرجن بالصمان حتى تعـــذرت
عليهن أرباع اللوى ومشـــاربه (٤)
وحتى رأين القنع من فاقىء السفا
قد انتسجت قريانه ومذانبـــه (٥)

---

(١) ليالى أبدى مراحي ـ أظهر مرحى ، ولم ألح ـ لم يتغير وجهى من الأسفار والتعرض للريح والشمس ، الجهل ـ اللهو والغواية ·

(٢) يقلى ـ يهجر ، الصبا ـ دواعى الصبا من لهو وعبث ، لا أؤامره ـ لا أصادقه وأصاحبه ·

(٣) البهمى ـ نبات صحراوى ·

(٤) أرباع اللوى ـ جمع ربع وهو المكان ·

(٥) القنع ـ مجرى ماء ، قريان ومذانب ـ مجارى المياه الى الرياض ، فاقىء السفا ـ الشوك والورق الذى سفته الريح ·

وحتى سرت بعد الكرى في لويه
أساريع معروف ، وصرت جنادبه (١)

لقد لعبت الرياح الحواصد ببقايا نبات القلقلان ، وأخرجت كل ما فيه من ثمر ؛ كما فقس بيض طيور المكاكى المرقشة فطارت فراخه ؛ وتقلص طرفا النهار الغداة والعشى :

وجال السفا جول الحباب ؛ وقلصت
مع النجم عن أنف المصيف الأبارد (٢)
وهاجت بقايا القلقــلان ، وعطلت
حواليه هوج الرياح الحواصــد (٣)
ولم يبق فى منقــاض رقش توائـم
من الزغب أولاد المكاكى واحد (٤)

لقد جف كل شيء ، النبات بمختلف أنواعه :

فودعن أقواع الشماليل بعدما
ذوى بقلها أحرارها وذكورهــا (٥)
ولم يبق بالخلصاء مما عنت بــه
من الرطب الا يبسها وهجيرها (٦)

كما جف الماء فى كل مكان ولم يبق منه الا الضحل الذى لا يروى ظمأ ولا يطفىء غلة :

---

(١) لويه ـ بقله اليابس ، معروف ـ موضع ، صرت ـ صوتت .

(٢) الحباب ـ فقاقيع الشراب ، وقلصت ـ نقص وارتفع ، أنف المصيف ـ أوله ، الأبارد ـ الغداة والعشى .

(٣) القلقلان ـ نبت له ثمر ، عطلت حواليه ـ أخرجت مافيه من ثمر .

(٤) منقاض رقش ـ المكان الذى يفقس فيه بيض طير المكاكى ، الزغب ـ الفراخ الصغيرة التى لم ينبت فيها الريش .

(٥) أقواع ـ جمع قاع ، الشماليل ـ موضع ، احرارها وذكورها ـ الأحرار ما حلا ورق ، والذكور ماخشن منه .

(٦) الخلصاء ـ موضع ، عنت به ـ اعتنت به فنبت نباتا حسنا .

ألفن الهوى حتى اذا البروق ارتمى
به بارح راح من الصيف شامس (١)

وأبصرن أن النقع صارت نطافـــه
فراشـــــا وأن البقـــل ذاو ويابس

بل اصفر لونه ، وتغير طعمه ؛ واجترأت القطا على أن تخوض فيه :

وخاض القطا فى مكرع القوم باللوى
نطافا بقاياهن مطروقة صـــفر (٢)

لقد اشتد الحر وقست الحياة على كل شيء حتى الابل المعروفة بالصبر ضاقت به بعد أن لذعها سفا الشوك المتطاير الى النقـــر التى فى رءوسها حيث يأوى القراد :

رمى أمهات القرد لذع من الســفا
وأحصد من قريانه الزهر النضر (٣)

كما تساقط الوبر عن صغار الابل ؛ وترقرق السراب على وجه الرمال :

وطار عن العجم العفـــاء ؛ وأوجفت
بريعان رقراق السراب الظواهر (٤)

فحنت الابل الى الارتحال : وهاجت لأعداد المياه الأباعر كما عزم آل مى على مغادرة هذه الديار :

---

(١) سبق شرح البيتين .

(٢) مكرع ـ مكان شرب الناس والدواب ، نطافا ـ قليلة ، مطروقة ـ طرقها الناس وشربوا منها كثيرا .

(٣) أمهات القرد ـ نقرة فى رأس البعير يأوى اليها القراد ، أحصد ـ نضج وحل حصاده .

(٤) العجم ـ صغار الابل ، العفاء ـ الوبر ، أوجفت ـ اضطربت ، ريعان ـ أول ، الظواهر ـ المرتفع الظاهر من الأرض .

فلما رأين القنـــع أسفى وأخلفت
من العقربيات الهيوج الأواخـر (١)

جذبن الهوى من سقط حوضى بسدفة
على أمر ظعان دعتـــه المحاضر (٢)

لقد أصبحوا ولا معدى لهم عن الارتحال :

تحملن من قاع القرينة بعدمـــا
تصيفن حتى ما عن العد حابس (٣)

واذا كنا لم نستطع أن نحدد فيما سلف مكانا بعينه يقيـــم فيه آل مية في الشتاء ، بل رأينا أكثر من مكان لهم ، ذلك لاتساع هذه الصحراء المسماة برمال الدهناء التى ينزلون فيها ، فهـــم فى كل عودة ينزلون فى مكان مغاير ربما لأن مكانهم الاول قـد شغل أو لأن الأماكن لا يفضل أحدها الآخر فى هذه الصحراء .

فكذلك لا نستطيع أن نجزم بالمكان الذى يرحلون اليـــه فى الصيف ، بل ربما الشاعر نفسه لايقطع بذلك فهو يذكر لنا أن سفرهم بعيد ، يجعل وصل من يواصلهم يتراخى ويفتر :

تحملن من حزوى فعارضن نيـــة
شطونا تراخى الوصل ممن يواصله (٤)

---

(١) القنع ــ مجرى فيه ماء ، أسفى ــ طار منه السفا (الشوك والورق) وأخلفت من العبقريات الهيوج الأواخر ــ جاءت الرياح الحارة المتأخرة التى تجىء بنوء العقرب خلف النبات فأيبسته .

(٢) سقط حوضى ــ مكان ، سدفة ــ ظلمة ، طعان ــ من يدعوهن الى السفر والرحيل ، المحاضر ــ أماكن المياه .

(٣) سبق شرحه .

(٤) حزوى ــ مكان ، نية ــ نوى ، عوجاء ــ مائلة عن القصد ، تراخى ــ تباعد والمعنى : رحلن من حزوى قاصدين نية أو مقصدا بعيدا لايهتدى اليه ولايصله من يريده الا بمشقة .

ويقول :

ديـار لمى أصبح اليـوم أهلهـا
على طية زوراء شتى شعوبهـا (١)

ولعل من أسباب ما يدور بينهم من لغط وحوار ؛ وهـم عازمون على السفر ــ اختلافهم حول المكان الذى ينزلون فيه :

عشية جاءوا بالجمـال وبينهـم
مخالجة لم يبرموها كما هيـا (٢)

ان كل ما يشغلهم هو اختيار « الماء » الذى لم تكن قد سبقت اليه قبيلة أخرى فشغلته ؛ وليس من الضروري أن يكون مكانـا بعينه أو ماء بعينه :

تحملن من قاع القرينـة بعدما
تصيفن حتى ما عن العـد حابس
الى منهـل ، لم تنتجعه بعكـة
جنوب ولم يغرس به النخل غارس (٣)

وغالبا ما يكون هذا الماء بعيدا عن الريف الذى يضيق بـه العربى الخالص ، كما يكون واقعا بين أرض مرتفعة تحميـه من الجفاف والتبخر ؛ وتحتفظ له ببرودته وكثرته :

تيمم ناوى آل خـرقاء منهـلا
له كوكب فى صرة القيظ بارد (٤)

---

(١) طية ــ القصد الذى يريده ، زوراء ــ معوجة تخالف ارادته ، شـتى شعوبها ــ شعبها واتجاهاتها مختلفة أى سار أهل مى الى جهة غير معروفة لأن آراءهم حول المكان الذى يقصدونه كثيرة مختلفة ٠

(٢) مخالجة ــ خلاف حول السفر ٠

(٣) لم تنتجعه ــ لم تقصده وتذهب اليه ، عكة ــ شدة الحر ، جنوب ــ ريح حارة تهب من الجنوب ، لم يغرس به النخل غارس ــ بعيد عن القرى ٠

(٤) تيمم ــ قصد ، كوكب ــ معظم ، قيظ ــ شدة الحر ٠

لقى بين أجماد وجرعـــاء نازعت
حبـــالا بهن الجازئات الأوابد (١)

ليمكنهم أن يستقوا منه ، ويسقوا قطعانهم :

حتى وردن عذاب المـــــاء ذا برق
عدا يواعدنه الأصرام والعـــكرا (٢)

لكن الشاعر قد أفصح فى بعض قصائده عن بعض تلك الأماكن فهو قد ذكر لنا مرة ماء « الوشيج » على أنه الماء الذى بقصده آل (مية) فقال :

فأصبحن يمهدن الخـــدور بسدفة
وقلن الوشـــيج الماء والمتصـــيف

كما يذكر لنا أيضا أنها تصيف فى الحفر وان كان لم يحـــدد هل هى « حفر سعد » أم « حفر الرباب » وبينهما مسيرة شـــهر كما يقول شارح الديوان : ــ

غـــراء آنســـة تبـــدو بمعقلة
الى سويقة حتى تحضر الحفـــرا (٣)

فأين ومتى التقى بها ؟ من المؤكد أن التقاءه بها كان يكثـــر فى الشتاء حين يعود كل حى الى المكان الذى ارتحل عنه أو الى مكان قريب منه ؛ فتعود الألفة واللقاء الى سالف عهدها :

وفى كل عام رائع القلب روعـــة
تشائى النوى بعد ائتلاف الجمائل (٤)

---

(١) لقى ــ ملقى أى المنهل ، أجماد ــ أرض غليظة ، وجرعاء ــ أرض لينة رملية ، نازعت ــ جاذبت ، الجازئات ــ الحيوانات المتوحشة المجتزئة بالمرعى ، حبالا ــ رمالا مستطيلة •

(٢) ذابرق ــ حجارة ورمل ، العد ــ منهل لاينقطع ماؤه ، الأصرام ــ القطيع من الناس ، والعكر ــ القطيع من الابل مابين العشرين الى الأربعين •

(٣) غراء ــ بيضاء ، معقلة وسويقة والحفر ــ أماكن فى صحراء الدهناء •

(٤) تشائى ــ تفرق البعد والسفر ، الجمائل ــ الجمال •

اذا الصيف أجلى عن تشائى من النوى
أملنا اجتماع الحى فى عام قابل (١)

وقد رأينا تلك المنازل التى ينزلونها فى الشتاء تتكرر بكثرة فى شعره « كالزرق » التى تكررت نحو ثمانى عشرة مرة . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يزورها فى مغناها الصيفى حين يشتد به الشـوق ويؤرقه الحنين ؛ فيقطع اليها المفاوز ؛ التى تكنفها الظلمات ولا يتردد فيها سوى صوت البوم :

لك الخـير ؛ كم كلفت عينى عبرة
اذا انحدرت عادت سريعا جمومها (٢)
وكلفتنى من سير ظلمـاء والدجى
يصيح الصدى فيها؛ ويضبح بومها (٣)

ويقول :

فـرب بلاد قـد قطعت لوصـلكم
على ضامر منها السنام المحطمـا

متجاهلا حرص أهلها على أن يظل بعيدا عنها ، وعن ديارها ، خاصة وأنها زوجة لغيره :

خليـلى أدى الله خـيرا اليكمـا
اذا قسمت بين العبـاد أجورهـا
بمى اذا أدلجتمـا اطردا الكرى
وان كان آلى أهلها لا أطورهـا (٤)

واذا كنا لا نستطيع أن نقطع بأول لقاء لهما ؟ متى كان ؛ ولا فى أى مكان قد حدث ؟ فان ذلك لا يمنعنا من أن نستنتج ، ونرجح كما هو الشأن فى استخلاص الحقائق الأدبية ، والرواة الذين حدثونا عن أول لقاء لهما لم يحددوا شيئا من ذلك ؛ كل ما ذكروه

---

(١) أجلى ـ انكشف وذهب والمعنى اذا ما الصيف انجلى وذهب بما فيه من تفرق ، أملنا الالتقاء فى العام القادم .

(٢) جمومها ـ دمعها الكثير .

(٣) يضبح بومها ـ يصوت ويصيح .

(٤) الادلاج ـ السير ليلا ، لا أطورها ـ لا أدنو منها .

جاء عاما كما فى رواية عمـــارة بن ثقيف الذى قال : حدثنى ذو الرمة : أن أول ما قاد المودة بينه وبين مية أنه خرج هو وأخوه وابن عمه فى بغاء ابل لهم فقال بينا نحن نسير اذ أجهدنا العطش فعدلنا الى حواء عظيم فقال لى أخى وابن عمى ايت الخواء فاستسق لنا فأتيته وبين يديه فى رواقه عجوز جالسة ، قال فاستسقيت فالتفتت وراءها فقالت : يا مى اسق الغلام ، فدخلت عليها فاذا هى تسبح علقة لها وهى تقول :

يا من رأى برقا يمر حينـــا
زمزم رعدا ؛ وانتحى يمينـــا (١)
كأن فى حافاتــــه حنينـــا
أو صوت خيل ضمر يردينـــا (٢)

قال ثم قامت تصب فى شكوتى ماء وعليها شوذب لها ، فلما انحطت على القربة رأيت مولى لم أر أحسن منه ؛ قال فلهوت بالنظر اليها ؛ وأقبلت تصب الماء فى شكوتى والماء يذهب يمينا وشمالا، قال فأقبلت على العجوز وقالت : يا بنى : ألهتك مى عما بعثك أهلك له ، أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا ، قال فأقبلت على العجوز فقلت اما والله ليطولن هيامى بها ، قال : وملأت شكوتى ؛ وأتيت أخى وابن عمى ، ولففت رأسى فانتبذت ناحية ؛ وقد كانت مى قالت ؛ لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من صغرك ؛ وحداثة سنك فأنشأت أقول :

قد ســـخرت أخت بنى لبيـــد
منى ومن سـلم ومن وليـــد (٣)
رأت غـــلامى ســـفر بعيـــد
مثل ادراع اليلمق الجـــديد (٤)

---

(١) زمزم ـ صوت •

(٢) حنينا ـ صوت الابل ورغاؤها ، ضمر ـ ضامرة ، يردينا ـ تعدو •

(٣) يظهر أن صاحب الأغانى روى الأبيات من محفوظه الخاص فجاءت على غير ماهى عليه فى الديوان •

(٤) اليلمق ـ قباء وهو نوع من الكساء •

قال وهي أول قصيدة قلتها ثم أتممتها : هل تعرف المنزل بالوحيد ..

ثم مكثت أهيم بها عشرين سنة .. » هذه الرواية تعطينا الدليل على أن ذا الرمة قد التقى بها أول ما التقى لهذا الداعي أو لداع مشابه له من دواعي الصحراء ، فمن غير المعقول أن يشبب شاعر بفتاة دون أن يراها ، ودون أن تستأثر بنفسه بسبب أو أكثر من أسباب الاعجاب ، بل أن مجرد رؤية عابرة لفتاة أيا كانت هذه الفتاة لا يمكن أن تترك هذا الأثر العميق الذى جعله يتغنى بجمالها ويعبر عن وقع هذا الجمال في نفسه ؛ ويفرض اسمها على التاريخ ، لذلك فنحن نرفض ما قاله ابن قتيبة من أن مية مكثت زمانا تسمع شعر ذى الرمة ، ولا تراه ؛ فلما رأته وكان أسود دميما ؛ قالت : واسوأتاه !! وابؤساه !! واضيعة بدنتاه التى نذرت ذبحها ان لقيته ، فقال ذو الرمة :

على وجه مى مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الخزى لو كان باديا

« فكشفت ثوبها وقالت : أشيئا ترى ؟ لا أم لك . فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه
وان كان لون الماء أبيض صافيا

فقالت له أتحب أن تذوق طعمه ؛ قال اى والله ؛ فقالت له : تذوق الموت قبل أن تذوقه (١) .

هذه القصة التى رواها ابن قتيبة من القصص الكثير الذى يصنعه الرواة والمحدثون ليكون سببا أو مقدمة لما يروونه من شعر ؛ فحين قرءوا هذه الأبيات التى قيل ان ذا الرمة يهجو بها حبيبته ميا ، وينال منها أبى عليهم خيالهم أن يتركوها دون أن يقدموا لها بحادثة تجتذب الجمهور ؛ هذه القصة التى تجعل ذا الرمة يشبب سنوات وسنوات من عمره بفتاة دون أن تراه أو تحادثه ؛ وان كانت تسمع أشعاره تتردد على شفاه الناس - قصة مختلقة من أساسها لأسباب كثيرة ، أولها أن ذا الرمة نفسه أنكر أنه قائل

---

(١) وفيات الأعيان .

هذه الأبيات ؛ وكان يرد على من يزعم ذلك بقوله : كيف أقول هذا وقد قطعت دهرى وأفنيت شبابى أشبب بها وأمدحها ثم أقول هذا !! « وامتعض لهذا وحلف بجهد ايمانه ما قالها (١) » .

بل عرف ذو الرمة فيما بعد من لفق عليه هذه الأبيات ؛ فلقد كانت أمة لآل قيس بن عاصم اسمها كنزة كما فى ابن سلام (٢) .. « أو هى ابنة عم مية أو « كثيرة » أم سهم بن بردة - كما فى رواية الأغانى (٣) قائلة هذا الشعر لتسىء ما بين ذى الرمة ومى من علائق الحب والمودة ، فتباعد بينهما اما بسبب الغيرة أو بايعاز من زوج مى لتتخلص له زوجته ، أو بايعاز من قومها والقصة تحمل معها عوامل هدمها ونقضها ، ذلك أنه من غير المعقول أن يناقض الشاعر نفسه ؛ فيرميها فى عفافها الذى طالما تغنى به أليس هو القائل :

ليست بفاحشة فى بيت جارتها
ولا تعاب ، ولا ترمى بها الريب

وهو الذى ينفى أنه حدثها أو بدا وجهها له ؛ أو نضا الدرع عنها داعيا على نفسه بأن يكون هدفا لكل مكروه ان كان قد زعم ذلك :

إذا فرمانى الدهر من حيث لا أرى
ولا زال فى أرضى عدو أحاربه
اذا نازعتك القول مية أو بدا
لك الوجه منها أو نضا الدرع سالبه

بل ينفى أن تكون الثياب مصدر حسنها وجمالها فيقول :

زين الثياب وان أثوابها استلبت
على الحشية يوما زانها السلب

ومن كانت صفتها ما جاء على لسان الشاعر من عفاف وخلق

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١١٠ .
(٢) طبقات فحول الشعراء .
(٣) الأغانى جـ ١٦ .

لا يتصور أن تصنع شيئا مما ورد في « وفيات الأعيان » من بذاءة في الحوار ، وتدن في التصرف فتكشف ثوبها ، وتساله هل يحب أن يذوق طعمه « اذن فالقصة منتحلة ، والأبيات لم تصدر عن ذي الرمة الذي أفنى حياته في التغني بجمال محبوبته ، ومن هذا ندرك أن ذا الرمة لم يكن في حبه شيئا شاذا غير ما جرت عليه قوانين الحياة من أن انسانا يرى انسانا فيعجب بمظهره ثم يقترب منه أكثر فتتكشف له نواحي الجمال النفسي والروحي الأخرى فيزداد به التصاقا ، وتتكرر الالتقاءات وتتشابك الذكريات ، وتنسج خيوطها الذهبية حول العاشقين ، فيتمكن الحب ، وتزيد في تأريثه والهابه تلك العقبات المختلفة التي يصطدمان بها فيتمنيان الفرار والاعتزال بعيدا عن الناس . بل قد يتمنيان ما تمناه « كثير » لنفسه ، ولمحبوبته من أن يكونا جملين أجربين تبتعد عنهما الجمال الصحيحة خشية العدوى ؛ فيتركان بمنأى يرعيان معا .. ويرتعان معا :

فياليتنا يا عز من غير ريبة
بعيران ، نرعى في خلاء ونعزب (١)
كلانا به عر ، فمن يرنا يقل
على حسنها جرباء تعدى وأجرب (٢)

أو يتمنيان أن يكونا على رمث تضطرب به الأمواج الهادرة ، بعيدا ؛ بعيدا عن الشاطىء حتى اذا دنا منهما أحد ابتلعته الأمواج، كما تمنى ذلك أبو صخر الهذلي فقال :

تمنيت من حبي علية أننا
على رمث في البحر ليس له وفر
فنقضي هم النفس في غير ريبة
ويغرق من نخشى ملامته البحر

وليس معنى ذلك أننا ننكر أن يتوهج الحب في سرعة خاطفة؛ ولكننا ننكر أن يستمر اذا كان سريعا خاطفا ، وقد عرض علينا

(١) ريبة ـ شك ، نعزب ـ ننفرد .
(٢) عر ـ جرب .

ابن حزم أنواعا من الحب الخاطف والحب غير الطبيعي (١) كحب صديقه أبي السرى عمار بن زياد مولى المؤيد الذى رأى فى نومه جارية فاستيقظ ، وقد ذهبت بقلبه فجعلته مغموما ، مهموما ، لا يهنئه شيء ، ومن ذلك الحب بالوصف ، والحب من نظرة واحدة .. ويعقب ابن حزم على ذلك بقوله : وهذا لله قد وقع لغير ما واحد ؛ ولكنه عندى بنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير ، لا بد له اذ يخلو بفكره ان يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعينا يقيمها نصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها : فان وقعت المعاينة يوما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية : « ويقول « فمن أحب من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر ومخبر بسرعة السلو .. وهكذا فى جميع الأشياء . أسرعها نموا أسرعها فناء وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفادا . ويؤكد ذلك بقوله : ومن الناس من لا تصح محبته الا بعد طول المخافتة وكثير المشاهدة ؛ ومتمادى الأنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالى .. وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ؛ ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه ألا ضربا من الشهوة .. » لقد أطلنا قليلا فى نفى الخبر الذى يزعم أن مية لم تر ذا الرمة زمنا طويلا ، فلما رأته أنكرته ، لنثبت ما يحدث فى الواقع دائما ؛ وما تؤيده قصائد ذى الرمة التى انتزعها من وجدانه وصور فيها ما عاناه من شوق وقلق طيلة عشرين عاما ، لقد علق بها صبيا لم يناهز العشرين من عمره وأخذ حبه ينمو معه الى أن بلغ حدود الاربعين وهى السن التى فارق فيها الحياة . فلن يكون ذلك أبدا من تلك الانواع العبثية الخاطفة من الحب التى حدثنا عنها ابن حزم ، وانما هذا الحب قد نما ونضج مع توالى الأيام وتكرر اللقاءات بما فيها من رضا وغضب، وقطيعة ووصال، وتضييق من الأهل والوشاة، وسنرى فيما بعد كيف ضاق به أهلها كما ضاق به زوجها « عاصم » بل حدثنا الرواة أيضا أنه أغرى يوما مية على أن تسبه وتنال منه .. وقد آن لنا بعد طول سياحة أن نجيب على سؤالنا الذى أثرناه

(١) طوق الحمامة ص ١٩ ، ص ٢٠ .

فى بدء هذا الحديث وهو : أين ؛ ومتى التقى بها ؟ .. لقد ترك لنا الرواة شمعة صغيرة يمكن أن تهدينا فى هذه الدروب الملتوية ؛ حين حدثونا عن قصة اللقاء الاول كما جاءت فى الأغانى والتى تعرضنا لها من قبل . فقد جاء فى هذه القصة أن أول شعر قاله فيها :

قد سخرت أخت بنى لبيد
منى ومن سلم ومن وليد

ورواية الديوان جاءت مغايرة بعض المغايرة لما جاء فى «الأغانى» فقد ورد البيت السابق هكذا :

قد عجبت أخت بنى لبيد
وهربت منى ومن مسعود

وهو أنسب لما بعده اذ يقول : « رأت غلامى سفر بعيد » فثنى غلام ، ولو كانوا ثلاثة كما فى رواية الأغانى لجمع ؛ كما أننا نعلم أن مسعودا الأخ الأصغر لذى الرمة ، وقد كان كثيرا ما يرافقه فى السفر ، أما سلم ووليد ؛ فلم يرد لهما ذكر فى شعره ؛ ولا نعرف عنهما شيئا ، وأول القصيدة :

هل تعرف المنزل بالوحيد
قفرا محاه أبد الأبيد (١)

فالمكان الذى التقيا فيه لأول مرة يمكن أن يكون هو « الوحيد» كما تشير الى ذلك قصة أول لقاء اشارة سريعة عابرة ، فما الأسباب التى نعتمد عليها فى ترجيح ذلك ، أول هذه الأسباب، أن ذا الرمة كان ينظم الرجز فى مطلع حياته الشعرية ثم عدل عنه الى الشعر بعد أن عجز عن اللحاق بأشهر رجازين فى عصره وأعنى بهما رؤبة والعجاج وقد قال هو ذلك عن نفسه . قال (٢) قلت الرجز فلما رأيتنى لا أقع من الرجلين (العجاج ورؤبة) أخذت فى القصيد وتركته .. « وهذه الأبيات من الرجز الذى كان ينظمه ثم عدل عنه ؛ والتعبير « بسخرت » أو عجبت » كما فى روايتى البيتين فيهما ايماء الى قولها له : لقد كلفك أهلك السفر على ما أرى من

(١) أبد الأبيد ـ الزمن المتطاول .

(٢) الموشح للمرزبانى .

صغر سنك »، يضاف الى ذلك أن « الوحيد » هذه رغم أنها تكررت في شعره مرتين فقط الا أن مكانا مكملا لها وملتصقا بها هو حوضى تكرر أكثر من ثماني مرات ؛ وقد جمع بينهما في الأبيات الآتية :

ألا يا دار مية بالوحيد
كأن رسومها قطع البرود (١)

الى أن يقول :

فهجت صبابتى ولكل الف
تهيج الشوق معرفة العهود

غداة بدت لعينى عند حوضى
بدو الشمس من جلب نضيد (٢)

واذا كانت الصورة الأولى هي التي تلتصق في نفس الشاعر لأنها بهرته وحركت وجدانه ؛ فان ذا الرمة التصقت في نفسه صورة لقائه الأول لها ، وهي التي عبر عنها بالشمس بدت من خلال السحاب الرقيق ، كما أشار الى أن منازل أهلها « بأدعاص حوضى في أبيات أخرى له :

بأدعاص حوضى ، ثم موضع أهلها
جراميز يطفو فوقها ورق السدر (٣)

وأيا كان فمنازل مي وأهلها كثيرة متداخلة كما وضحنا ذلك في الأجزاء الأولى من البحث ، والذي نريد أن نقوله :أن ذا الرمة قد التقى بمية في الوحيد أو في مكان قريب منه ؛ التقى بها في مطلع حياته اذ كان شابا صغير السن ؛ يمرن لسانه على نظم الأراجيز فأحبها ؛ وظل هذا الحب ينمو معه قرابة عشرين عاما ؛ كان من أثره هذا الفيض من الشعر الوجداني الرقيق الذي نحتفي الآن بدراسته.

---

(١) البرود ـ الثياب المنقوشة .

(٢) جلب ـ سحاب مجلوب .

(٣) جراميز ـ حياض ماء .

الفصل الثانى

ملامح مى وصفاتها النفسية والجسدية

فمن مى ؛ وما ملامحها التى استهوت الشاعر ، وجعلته أينما ولى لا يرى سوى خيالها ، وظلها ٠٠ ؟

لقد اختلف الرواة فى اسم أبيها ؛ كما اختلفوا فى اسم أبيه أيضا ؛ فهى مية بنت فلان ابن طلبة بن قيس بن عاصم ٠٠(١) كما فى رواية ابن قتيبة ، وهى : مى بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ، كما فى رواية ابن سلام (٢) ٠٠ وهى « مية بنت طلابة ابن قيس بن عاصم الغسانى في رواية ثالثة » (٣) وفى معاهد التنصيص ووفيات الأعيان : «مية بنت مقاتل» ٠٠ لكن صاحب الاغانى يقول : كان ذو الرمة يشبب بمى بنت طلبة بن قيس بن عاصم المنقرى ٠٠ » فهو يؤيد ما جاء فى روايتى ابن سلام وابن قتيبة اذا اعتبرنا كلمة « فلان » وهما من الناسخ أو خطأ مطبعيا وهى بنت

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ ٠

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٠

(٣) تزيين الأسواق ٠

عاصم بن طلبة ـ كما قال أبو عبيد البكرى(١) فما الرواية الصحيحة التى نعتمد عليها ، يبدو أننا سنرفض كل هذه الروايات المضطربة، ونعتمد على ما جاء فى شعر الشاعر : فهو الوثيقة الرسمية الصحيحة التى يمكن الاعتماد عليها لقد قال لنا ذو الرمة ان اسم أبيهـا « منذر » ، حين تناول باللوم تزويجه لها من انسان قليل الشأن ؛ لا يصلح لها زوجا ؛ فقال :

لئن زوجت مى خسيسـا لطالمـا
بغى « منذر » ميا خليلا يهينهـا

وأكد ذلك شارح الديوان فقال : منذر هو أبوها ؛ فهى اذن « مية بنت منذر » جدها قيس بن عاصم المنقرى الذى قدم (٢) على الرسول عليه السلام فى وفد بنى تميم فأكرمه ، وقال له : « أنت سيد أهل الوبر .. » والذى كان أحد ملوك الغساسنة « تميل اليه العرب ؛ ويعطى له القياد ؛ حتى ضربت به الأمثال » فقال طرفـة ابن العبد :

ولو شاء ربى كنت قيس بن عاصـم

وهو من قبيلة بنى تميم ، المترامية الأطراف ، التى تمتـد منازلها بأرض نجد الواسعة الخصبة ؛ المشهورة بجمالها وهوائها :

تميمية ؛ حـلالة كل شـتـوة
بحيث التقى الصمان والعقد العفر (٣)

يشتهر قومها بالجاه ، والمال الوفير ؛ فهم « أهل الجياد وأهل العدو والعدد » ، ترى حول دورهم الابل الضخمة والخيول الفارهة:

وقد يمسى الجميع أولو المحـاوى
بها المتجاور الحلل المقيـم (٤)

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٨٤ .
(٢) الوفيات .
(٣) العقد ـ رمل منعقد ، العفرة ـ بياض تعلوه حمرة .
(٤) أولو المحاوى ـ أصحاب البيوت جمع محوى وهو البيت ، الحلل ـ الأماكن التى يحلونها .

بعقوتها ، الهجـــان وكل طـــرف
كأن نجـــار نقبتـــه أديـــم (١)

وفى أفنيتهم يكثر هدر الابل وصهيل الخيل :

حرى حين يمسى أهلها من فنائهم
صهيل الجياد الأعوجيات والهدر (٢)

يمتلكون العبيد والاماء :

وأبصرتهم حتى رأيت قيانهـــم
هتكن الستور وانتزعن الأواخيا (٣)

ويلبس نساؤهم الثياب الحريرية الرقيقة التى تشف عمـــا تحتها :

اذا شف عن أجســـادها كل ملحم
من القز واحورت اليك المحاجر (٤)

تظهر عليهن آثار النعمة ، فيتحلين بألوان مختلفة من الحـــلى التى يزين بها سوقهن وسواعدهن الممتلئة .

وأمثال النعـــاج من الغـــوانى
تزينهـــا الملاحة ؛ والنعيـــــم
جعلن الحلى فى قصـــب خـــدال
وأزرهن بالعقـــد الصريـــم (٥)

يخرجن للنزهة فى طرفى النهار الضحى أو وقت الطفل قرب المساء ؛ يركضن الأرض بأرجلهن ليكشـــفن عن جمالهن وزينتهن .

(١) بعقوتها ــ ماحول الدار ، الهجان ــ الابل الكريمة ، طرف ــ فرس ، نجار ــ أصل ، نقبته ــ لونه ، أديم ــ جلد .
(٢) الأعوجيات ــ ابل منسوبة الى الفحل أعوج .
(٣) قيانهم ــ اماءهم ، الأواخيا ــ الحبال تدق فى الأرض تربط فيها الدواب.
(٤) القز ــ الحرير ، ملحم ــ نوع من الثياب ، احورت ــ نظرت اليك .
(٥) قصب خدال ــ سواعد ممتلئة ، الصريم ــ الرمل والمراد أن اعجازهن شبيهة بالرمل المنعقد لضخامتها .

اذا مشـــين مشـــية تأودا
هز القنالان ومـــا تخضـــدا (١)

يركضـــن ريط اليمن المعضدا

يخرجن معا ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة ؛ يبتسمن حين يلتقين فى خفر وحياء ايماض البرق اللامح :

اذا ما خرجـن عن ثـــلاث وأربع
تبســـمن ايماض الغمام المكلل (٢)

ينطلقن فى مرح ، وقد توسطتهن أجملهن ، وغالبـــا ما تكون مية :

يهادين ، جماء المرافق ، وعثـــة
كليلة حجم الكعب ؛ ريا المخلخل (٣)

يطمعن الشباب بنظراتهن ؛ حتى اذا أججن فى القلوب نـــار الشوق صددن ؛ وقطعن حبل الرجاء :

اذا ما امرؤ حـــاولن أن يقتتلنـــه
بلا احنة بين النفوس ولا ذحل (٤)

تبســـمن عن نور الأقاحى فى الثرى
وفترن من أبصار مضروجة كحل (٥)

وشففن عن أجيـــاد غـــزلان رملة
فلاة ؛ فكن القتل أو شبه القتل (٦)

---

(١) تأودا ـ تمايلا ، ماتخضد ـ ما انكسر أو انثنى ، ريط اليمن المعضدا ـ الثياب اليمنية المنقوشة .

(٢)المكلل ـ المجتمع كالاكاليل .

(٣) يهادين ـ يمشين حولها ، جماء المرافق ـ غير بارزة عظام الساقين والذراعين ، وعثة ـ تسير ببطء لامتلائها .

(٤) احنة ـ حقد ، ذحل ـ ثأر .

(٥) مضروجة ـ مشقوقة واسعة .

(٦) أجياد ـ أغناق .

ومما لا شك فيه أن ميا كانت من أكثرهن فتنة حتى استطاعت أن تبهر ذا الرمة بجمالها ؛ فنسى ما ارسل من أجله ، وظل شاخصا ببصره الي مواطن الفتنة فيها ذاهلا عما حوله ، والماء الذى تصبه اليه ينساب على الأرض من حوله الى أن نبهته أمها قائلة : « ألهتك مى عما بعثك أهلك له » فأجابها جواب المدرك لما أصابه « والله ليطولن هيامى بها (١) » لقد رآها أبو سوار الغنوى ومعها بنون صغار فوصفها فقال : مسنونة الوجه ، طويلة الخد ؛ شماء الأنف ؛ عليها وسم جمال ... ، فقالت ما تلقيت بأحد من بنى الا فى الابل؛ قلت (والقائل ابن سلام) : أفكانت تنشدك شيئا مما قاله فيها ذو الرمة قال : نعم ؛ كانت تسح سحا ما رأى أبوك مثله .

ويزكى ما رواه أبو سوار الغنوى ؛ ما أورده صاحب الأغانى حيث قال : قال محمد بن الحجاج الأسيدى : مررت على مية وقد أسنت ، فقلت ؛ يا مية ؛ ما أرى ذا الرمة الا قد ضيع فيك قوله :

ما أنت من ذكـــراك ميـــة مقصر
ولا أنت ناسى العهـــد منها فتذكر
تهيم بها ما تســـتفيق ؛ ودونها
حجاب وأبـواب ، وسترمســـتر

قال : فضحكت ، وقالت : رأيتنى يا ابن أخى ؛ وقد وليت وذهبت محاسنى ويرحم الله غيلان فلقد قال : هذا فى ؛ وأنـــا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرة فى عين المقرور ، ولن نبرح حتى أقيم عندك عذره ، ثم صاحت يا أســماء : اخرجى ؛ فخرجت جارية كالمهاة ؛ ما رأيت مثلها ، فقالت أمالمن شبب بهذه وهويهـا عذر، فقلت : بلى فقالت: «والله لقد كنت أزمان كنت مثلها أحسن منها ، ولو رأيتنى يومئذ لازدريت هذه ازدراءك اياى اليــوم ؛ انصرف راشدا » لقد اعتاد بعض الباحثين والنقاد تطبيق الشـــك الديكارتى على كل قصة كهذه ، وقد يزعم زاعم كيف أمكن لامرأة كمى تقيم فى مجتمع مقفل يعتز بالشرف ، ويحاسب المرأة عليـــه

(١) طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ .

كالمجتمع العربى أن تقص كل ذلك عن نفسها والحق أن المرأة العربية كان من مفاخرها الخالدة أن يتحدث الناس بقصة حبها وابن حزم يعجب من ذلك وان كان لا يملك أن ينكره لقرب عهده به ؛ واطلاعه على ما كتب عنه ؛ يقول ابن حزم (١) : «وقرأت فى بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوه بذكرهن ، ولا أدرى ما معنى هذا على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى» فالقصة اذن صحيحة فى جوهرها ؛ وان اختلفت العبارة التى تؤديها ؛ ومن هذه القصة ؛ ومن أوصاف أبى سوار الغنوى السالفة ندرك أن ميا كانت على قدر غير ضئيل من الجمال ، احتفظت ببقية منه بعد أن أسنت وتعدد أطفالها وليس أمامنا الآن الا أن نستشف هذا الجمال الذى حدثنا الرواة عنه من خلال الصور الفنية التى رسمها الشاعر بقلمه العاشق ، لقد كاد ألا يترك شيئا فيها دون أن يصفه فاستطاع بذلك أن يعطينا صورة متكاملة لمى بجانبيها النفسى والجسدى .

لقد تعرضنا لبعض ملامحها حين قلنا انها تميمية ، تنتسب الى قوم أغنياء يملكون العديد من الخيول والابل والقيان ؛ولا يلبس نساؤهم الا الثياب الحريرية الشفافة ..

اذا شف عن أجسادها كل ملحم
من القز واحورت اليك المحاجر

كما أن الجمال التى تحمل رحالهن ضخمة ؛ عالية كأنها نخل يبرين أو هجر :

كأن أظعان مى اذ رفعن لنا
بواسق النخل من يبرين أو هجرا

فلا عجب أن تكون مية تامة الجسم ، ممتلئة الذراعين ، والساقين ، « كأن حلى شواها ألبس العشرا » مع خلو من اليبس والاعوجاج :

---

(١) ص ٤٢ طوق الحمامة .

وحلى الشوى منهـــا اذا حليت به
على قصبات ، لاشخات؛ ولا عصل (١)

أما جسمها فقويم معتدل كالقناة المستقيمة ينتهى بما يشبه الكثيب الرملى ؛ لذا فهى تنوء به ؛ ويرهقها المشى ، فاذا مشـــت اهتز خلفها فى جمال وروعة :

ترى خلفها نصفا قنـــاة ، قويمة
ونصفا نقـــا يهتز أو يتمرمر (٢)
تنوء بأخراهـــا ؛ فلأيا قيامهـــا
وتمشى الهوينا عن قريب فتبهر (٣)

كما أن خديها أسيلان مرتويان بماء الشباب والنعمة تميل الى الطول :

أسيلة مستن الدموع وما جرى
عليه المجن ، الجائل ، المتوشـــح (٤)
وألمحن لمحا من خدود أســـيلة
رواء ؛ خلاما ان تشف المعـــاطس (٥)

بيضاء صافية البياض ، فاذا نضحت جسمها بالطيب وبخاصة الزعفران بدت كظبية تتعرض لأشعة الشمس فى وقت الطفل أو وقت الضحى :

---

(١) الشوى ـ الأطراف الساعدان والساقان ، لاشخات ولا عصل ـ أى ليست دقيقة ولا معوجة ·

(٢) نقا ـ كثيب من الرمل · يتمرمر ـ يهتز ·

(٣) تنوء بأخراها ـ تثقلها عجيزتها ، لأيا ـ بعد جهد ، الهوينا ـ قليلا وببطء ، تبهر ـ يصيبها الاعياء ·

(٤) أسيلة ـ طويلة ، مستن الدموع ـ مجرى الدموع والمراد خداها ، المجن ـ الوشاح والمراد البطن والصدر ، أسيلة مستن الدموع المراد طويـــلة الخدين ، وصدرها وبطنها يتصف بالضمور فالوشاح يجول حولهما ·

(٥) رواء ـ ممتلئة ، المعاطس ـ الأنوف ، تشف ـ ترق والمراد أنهن ممتلئات الخدود رقيقات الأنوف ·

وجيد ؛ ولبات نواصـــع وضـــح
اذا لم تكن من نضح جاديها صفرا (١)

فاذا نضحته بالطيب كان كالمطلى بالذهب :

كأن جلودهـــــن مموهـــات
على أبشارهـــا ذهبا زلالا (٢)

لذلك فكثيرا ما يذكره بها مرأى ظبية انعكست أشعة الضحى أو الغروب على ظهرها الأبيض ؛ واشرأبت بعنقها الأغيد لتـلاحظ طلا صغيرا تركته خلفها فراعه منها جمال لونها ، وعينيها ، وجيدها .

ذكرتك اذ مرت بنـــا أم شادن
أمام المطايا تشرئب وتســنح (٣)

من الآلفات الرمل أدمـــاء حرة
شعاع الضحى فى متنها يتوضح (٤)

تغادر بالوعســاء ؛ وعساء مشرف
طلا ؛ طرف عينيها حواليه يلمح

هى الشبه أعطافا ، وجيــدا ومقلة
ومية أبهى بعد منهـــا ؛ وأملح (٥)

لم تشوه صفاء جسمها ونعومته خيلان أو ندوب : ملســـاء ليس بها خال ولا ندب « لها بشر مثل الحرير » .

لقد امتازت مية بالجيد الأتلع الناعم الذى يشبه جيد ظبيـــة مشرئبة تتطلع الى وليدها كما رأينا ذلك فى الصورة السابقة :

---

(١) اللبة ـ النحر ، نضح ـ رش ، الجادى ـ الطيب (الزعفران) .

(٢) مموهات ـ مطليات ، زلالا ـ صافيا خالصا .

(٣) شادن ـ غزال صغير ، تشرئب ـ تمد عنقها ، تسنح ـ تتعرض أو تمر عن شماله .

(٤) أدماء حرة ـ بيضاء كريمة الأصل ، الوعساء وعساء مشرف ـ رملة لينة، طلا ـ الظبى الصغير .

(٥) العطف ـ الجانب ، الجيد ـ العنق .

كجيـــد الرئم ، أتلع ؛ لا قصـــيرا
له غضن ، ولا قفـــرا عطولا (١)

فاذا ما احتواها ضجيعها ، لف ذراعـــه حول جيد ظبية ذات غزال ؛ فهى تميل بعنقها متطلعة اليه :

هضيم الحشا ، يثني الذراع ضجيعها
على جيد عوجاء المقلد ، مغزل (٢)

يتطوح قرطها عاليا كأنه يتدلى من جبل ؛ من يســـقط منه يهلك :

ترى قرطها في واضح الليت مشرفا
على هلك فى نفنف يتطـــوح (٣)

ذات عينين واسعتين ، حوراوين ، سوداوين :

تخللن أبواب الخـــدور بأعـين
غرابيب ، والألــوان بيض نواصع

فهي : عقيلة أتراب كأن بعينهـــا
اذا استيقظت كحلا،وان لم تكحل (٤)

لقد جمع الله فيهما كل حسن وجمال فمن رآهما أصيب بمـا يشبه الدوار :

وعينان قال الله كونـــا فكانتـــا
فعولان بالألباب ما تفعل الخمـــر

فاذا ابتسمت ابتساما سريعا كوميض البرق ؛ كشـــفت عن ثنايا بيضاء نقية ؛ يزيدها جمالا ما بينهـــا من فلج ؛ يترقرق عليها رضاب عذب ذو نكهة طيبة .

---

(١) الرئم ـ الظبية ، أتلع ـ مرتفع ، لاقفرا عطولا ـ أى ليس خاليا من التزين بالحلى .

(٢) هضيم الحشا ـ ضامرة البطن ، مغزل ـ ذات غزال ، عوجاء المقلد ـ تميل بعنقها على ضجيعها وأصله الظبية تلتفت الى ولدها .

(٣) الليت ـ جانب العنق ، مشرفا ـ مرتفعا ، على هلك ـ يهلك من يسقط منه .

(٤) عقيلة ـ مختارة ، أتراب ـ لدات وهن من فى مثل سنها .

تريك بيـــاض لبتهـــا ووجهـــا
كقرن الشمس أفتــق ثم زالا (١)

وأشنب واضحـــا حسن الثنايا
ترى من بين ثنيتـــه خـــلالا (٢)

كان رضـــابه من ماء كـــرم
ترقرق فى الزجاج وقد أحـالا (٣)

لو رأى الأخرس عذوبة ثناياها لنطق :

هجان الثنايا مغـربا لو تبسـمت
لأخرس عنه كاد بالقول يفصح (٤)

كما تكشف عن لثاة ذات لعس وحوة :

عن واضح ثغـــره ، حو مراكزه
كالأقحوان زهت احقافه الزهـرا (٥)

وينسدل شعرها الأسود الغزير على جانبى ظهرها كالحيات التى تلدغ قلب العاشق :

وأســحم كالأســـاود مســـبكرا
على المتنين منســـدلا ، جفـــالا (٦)

ممتدا الى رءوس الوركين :

تريـــك ، وذا غـــدائر واردات
يصبن عثاعث الحجبات ســـود (٧)

---

(١) قرن الشمس ـ أول ظهورها ، أفتق ـ فتق السحاب وبرز منه ٠

(٢ ، ٣) وأشنب واضحا الخ : أى وثغر أبيض الأسنان يشبه رضابه الخمر التى تترقرق فى الزجاجة وقد مر عليها حول فازداد عتقها ٠

(٤) هجان مغربه ـ شديدة بياض الثنايا ٠

(٥) حو مراكزه ـ اللثة ضاربة الى السواد وهى علامة صحة عند العرب القدامى ، الأقحوان ـ زهر أبيض ، زهت ـ لونت ، أحقافه ـ رماله ٠

(٦) مسبكرا ـ طويلا ، ممتدا ، جفالا ـ كثيرا ، الأساود ـ الحيات ٠

(٧) واردات ـ طوال ، الحجبات ـ رءوس الأوراك ، عثاعث ـ لينة كالأرض الرملية ٠

كثيرا ما تطويه بالمدارى وتسرحه :

وذو غدر فوق الذنوبين مسبل
على البان يطوى بالمدارى ويسرح(١)

ولطوله وغزارته يلفها كالرداء حين تتجرد الا من الدرع القصير :

اذا انجردت الا من الدرع وارتدت
غدائر ميال القرون سخام (٢)

لين ناعم غير قصير ولا أصهب لأنها عربية حرة :

هجان تفت المسك فى متناعم
سخام القرون؛ غير صهب ولا زعر (٣)

ملتفة الجسم ؛ دقيقة الخصر ، لينة العظام :

أناة ؛ تلوث المرط منها بدعصة
ركام ؛ وتجتاب الوشاح فيقلق (٤)

وتكسو المجن الرخو خصرا كأنه
اهان ذوى عن صفرة فهو أخلق (٥)

ذات أنامل مسترسلة ناعمة ؛ حمراء الأطراف كبنات النقلة التى تختفى وتظهر :

خراعيب ؛ أملود ، كأن بنانها
بنات النقا تخفى مرارا وتظهر (٦)

---

(١) فوق الذنوبين ـ أسفل المتنين وهما جانبا الظهر .

(٢) سخام ـ ناعم لين .

(٣) صهب ـ صفر والعرب تأنف من الاتصاف باصفرار الشعر لأن ذلك يدل على أنه غير عربى ، زعر ـ قصير .

(٤ ، ٥) أناة ـ تسير ببطء ، تلوث المرط ـ تلف الثوب ، بدعصة ـ بعجيزة مثل كثيب من الرمل المجتمع ، تجتاب ـ تلبس ، المجن ـ الثوب وكل مايستر ، اهان ـ عود العذق وهو ما يكون به البلح فى النخلة ويسمى العرجون . أخلق ـ أملس أى أن خصرها ضامر ناعم كالعرجون .

(٦) خراعيب ـ طوال ، أملود ، ناعمة والمراد أصابعها .

تخضب يديها بالحناء كثيرا :

أسيلة مستن الوشاحين قانىء
بأطرافها الحناء فى سبط طفل (١)

يبدو ثديها المشرئب فوق الحشا الضامر جميلا رائعا :

بعيدات مهوى كل قرط عقدنه
لطاف الحشا تحت الثدى الفوالك(٢)

اذا تحدثت تحدثت بصوت خفيض تقطعه ابتسامتها السريعة المتلألئة :

يقطع موضوع الحديث ابتسامها
تقطع ماء المزن فى نزف الخمر (٣)

تزين ابتسامتها الحديث :

كأن على فيها تلألؤ مزنة
وميضا اذا زان الحديث ابتسامها

كلامها خال من اللغو والثرثرة :

تبسم ايماض الغمامة جنها
رواق من الظلماء فى منطق نزر (٤)

تكره الصخب ونسج القصص والأحاديث :

صمت الخلاخيل ،خود ليس يعجبها
نسج الأحاديث بين الحى والصخب (٥)

يشبه حديثها حلاوة العسل الممزوج بالماء المثلوج :

ونلت سقاطا من حديث كأنه
جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع (٦)

---

(١) أسيلة ـ طويلة ، مستن الوشاحين ـ ملتقى الوشاحين والمراد الخصر سبط ـ ناعم لين ، طفل ـ ناعمة أيضا ٠

(٢) الفوالك ـ الملتفة ٠

(٣) موضوع الحديث ـ حديثها الخفيض ، المزن ، جمع مزنة وهى السحابة المطرة ، نزف الخمر ـ أى الخمر المسكرة ٠

(٤) جنها ـ خبأها ، نزر ـ قليل ٠

(٥) خود ـ شابة ناعمة ٠

(٦) الوقائع ـ جمع وقيعة وهى ارض صلبة تمسك الماء ٠

أو طعم الزنجبيل المعسل :

ولو كلمت مى عـــواقل شـــاهق
رغاثا من الأروى سهون عن الغفر (١)

لا يجد فيها عائبها ما يعيبها به :

فيالك من خد أســيل ، ومنطق
رخيم ، ومن خلق تعلل جادبه (٢)

لا تحب أن تنطق بفاحش القول :

قطوف الخطا ؛ عجزاء ؛ لاتنطق الخنا
خلوب لألباب الرجال ، مطولها (٣)

لا تحوم حولها الظنون :

ليست بفاحشــة فى بيت جارتهــا
ولاتعاب ولا ترمى بهـــا الريب

ورغم أن الطبيعة قد وهبتها كل هذه المحاسن التى قلمـــا تلتقى فى انسان واحد ، تضيف هى الى الجمـــال الطبيعى ضروبا أخرى من أسباب الفتنة التى تستهوى الرجال ؛ فهى مفرطة فى التطيب ؛ لا تدع جزءا من جسدها دون أن تضمخه بالطيب ؛ تتعهد ثناياها العذاب البيض بالاستياك لتظل لها نصاعتها :

جرى الأسحل ، الأحوى بطفل مطرف
على الزهر من أنيابها فهى نصـــع (٤)

فتظل لفمها نكهته الطيبة الى ما بعد انقضاء الليل ،والهبوب من النوم :

---

(١) عواقل شاهق ــ وعول اعتقلت فى الجبل ، رغاثا ــ مرضعات ، الأروى ــ اناث الوعول ، الغفر ــ أولادهن .

(٢) جادبه ــ عائبه .

(٣) قطوف الخطا ــ قصيرة الخطا ، الخنا ــ الفحش ، مطولها ــ لاتفى بوعد .

(٤) الأسحل ــ شجر تتخذ منه المساويك ، الاحوى ــ الاسود ، طفل ــ ناعم ، مطرف ــ محنى والمراد أصابعها ، الزهر ــ البيض .

كأن السلاف المحض منهن طعمـــه
اذا جعلت أيدى الكواكب تضجع (١)

تفت المسك فى شعرها الناعم ؛ وتشعره جسدها وتمســـح الأنف والصدر والترائب :

هجان تفت المســـك فى متناعـم
سخام القرون غير صهب ولا زعر
وتشعره أعطافهـــــا ؛ وتســوفه
وتمسح منه بالترائب ؛ والنحر (٢)

واذا كانت تلبس الثياب الحريرية الشفافة ، وقد تتجـرد منها مكتفية بالدرع مسدلة شعرها الغزير الممتد حول كتفيهــــا وظهرها ؛ فهي أيضا تتحلى بأنواع مختلفة من الحلى ، تتحلى بالأساور والدماليج والبرى :

وفى العاج منها ، والدماليج والبرى
قنا مالىء للعين ، ريان ، عبهـر (٣)

كما تتقلد عقود المرجان :

كأن عرى المرجان منها تعلقت
على أم خشف من ظباء المشافر (٤)

ولاتفتأ تتعهدعينيها الساحرتينبالكحل

من الأشرفات البيض فى غير مرهة
ذوات الشفاه الحو والأعين النجل (٥)

---

(١) السلاف ـ الخمر ، المحض ـ الخالص ، تضجع ـ تميل الى المغيب .
(٢) تشعره أعطافها ـ ترشه على جسدها ، تسوفه ـ تشمه .
(٣) العاج ـ الاساور ، الدماليج ـ أساور تلبس فى العضدين ، البرى ـ حلقات من ذهب يتحلى بها ، عبهر ـ غليظة .
(٤) الخشف ـ ولد الظبية .
(٥) الأشرفات ـ الطوال المرتفعات ، المرهة ـ ترك الكحل ، النجل ـ مفردها نجلاء وهى شدة بياض العين مع شدة سوادها .

وكفتاة تشعر بما لجمالها من أثر فى النفوس ؛ ووقع على القلوب نراها تتعرض للشباب لتوقعهم فى شراك حبها حينا بالمشية المتأودة ، وركض الأرض برجليها ليسمع صوت حليها وحينا بابراز مواطن أخرى من فتنتها كالبسمة العابرة ؛ والنظرة القاتلة ، واظهار النحر أو الجيد ...

حتى اذا تمكن حبها في القلب ، وتيقنت أن عاشقها لايستطيع الفكاك من أغلال حبها الوثيقة ، أخذت تتدلل عليه ؛ وتلعب بعواطفه فهى :

تقارب حتى تطمع التابع الصبا
وليست بأدنى من اياب المنخل (١)

فاذا شكا اليها حبه وصبابته ؛ وأطلعها على أسرار قلبه ؛ لتبادله الحب سخرت منه قائلة انما أنت تمزح :

لمى شكوت الحب كيما تثيبنى
بودى ، فقالت : انما أنت تمزح
بعادا ، وادلالا على وقد رأت
ضمير الهوى قد كاد بالجسم يبرح

وهى ضنينة بالوصال رغم ما تلوح به من آمال كاذبة ووعود خادعة :

اذا قلت يجرى الود أو قلت ينبرى
لها الجود يأبى بخلها واعتدالها
على أن ميا لاأرى كبلائها
من البخل ثم البخل يرجى نوالها (٢)

هذه هى صفات مى كما استخلصناها من شعره الذى بين أيدينا ، وهى تؤكد ما رواه أبو سوار الغنوى من أنها كانت على قدر غير قليل من الجمال ؛ ولا عبرة بما جاء فى تزيين الأسواق (٣)

(١) تطمع التابع الصبا - تجعله يطمع فى اللهو ويميل نحوها ، المنخل - مثل يضرب لما لا يتحقق ، وذلك أن القارظ العنزى خرج يجمع القرظ فلم يعد أبدا.

(٢) المعنى بالرغم من بخلها الشديد فاننى أرجو منها الوصال واللقاء .

(٣) تزيين الأسواق جـ ١ ص ٩١ .

من أنها جارية تميل الى القصر ، سمراء ، بدينة ، الا أن فى كلامها عذوبة ؛ وفى طرفها تغزلا » فهو يناقض نفسه اذ يقول بعد ذلك مباشرة حين يتحدث عن سبب اعتلاق ذى الرمة بها : ان سببب اعتلاقه بها أنه مر بالحى وقد أدركه الاوام فقصد بيتا ؛ واذا هــو بامرأة تتمشط ، حاسرة الرأس قد أسبلت شعرها كأنه عثاكيل النخل ؛ فناداها هل من اداوة تبرد الغليل فأبرزت اليه ماء قــد شيب بلبن فشرب ثم ناشدته الراحة فنزل ؛ وقدمت له طعاما فأكل ، ولم تزل تنادمه وهو يعجب بها الى أن تحرك لها قلبـــه فأنشد :

وكنت اذا ما جئت ميا أزورهـــا
أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدهــا

من الخفرات البيض ودجليسهـــا
اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدهـــا

ويظهر أن صاحب هذا الكتاب من هواة التســـلية واختلاق الأقاصيص ؛ فغير معقول مطلقـــا أن ميا تمكث مع فتى غـــريب تؤاكله وتحادثه كل هذا الوقت دون سابق ود أو معرفة • والبيتان اللذان ذكرهما ليسا لذى الرمة ولا يوجدان فى ديوانه الذى بين أيدينا ؛ وانما هما لكثير عزة ؛ والذى أوقعه فى هذا الخطأ أن لذى الرمة قصيدة تتفق مع هذه الأبيات فى وزنها وقافيتها وأولها :

ألا ؛ لا أرى كالدار بالزرق موقفا
ولا مثل شوق هيجتـــه عهودهـــا

وسواء كانت صفات مى الحقيقية تتفق مع هـــذه الصـفات جميعا التى رسمها الشاعر ، أو مع بعضها • فالذى يعنينا هـــو «مى» النموذج المثالى الرائع الذى أحبه وتعلق به الشاعر ، والذى رآه مجسدا فى هذه الفتاة التى أحبها ، وأخلص لها رغم أنهـــا تزوجت من غيره • والذى يبدو من شعره أنها قد تزوجت من عاصم المنقرى ابن عمها ؛ بعد حب ذى الرمة لها ؛ فمن النادر أن يعشـــق انسان امرأة ذات زوج وأولاد وانما قد يحبها بكرا ثم يســـتمر الحب ؛ اذا كان مكينا ؛ بعد أن تتزوج من غيره ، وكثيرا ما يلجـأ

أهلها الى تزويجها من أحد أقاربها ليصرفوا عنها ذلك العاشق الذى ردد اسمها فى الآفاق ، هكذا صنع أبو ليلى حين زوجها من «ورد» وربما يكون « منذر » والدمى قد صنع نفس الصنيع ، والذى يرجح ذلك قوله لنفسه :

فيا نفس ذلى بعد مى ، وسامحى
فقد سامحت مى وذل قرينها (١)
ولما أتانى أن ميا تزوجت
خسيسا بكى سهل المعا وحزونها (٢)

ويظهر أن فى زوجها بعض العيوب الجسدية التى استغلها الشاعر للتشهير به واهانته ، وان كان لم يفصح عنها ؛ فهو يراه خسيسا زوجها أبوها منه ابتغاء اهانتها واذا تجرد بجوار مى شان حسنها وجمالها بمنظره المشوه القبيح :

لئن زوجت مى خسيسا لطالما
بغى منذر ميا خليلا يهينها
تزينك ان جردتها من ثيابها
وأنت اذا جردت يوما تشينها

كما أن هذا الضيق الى حد تمنى الموت له :

ألا ليت شعرى هل يموتن عاصم
ولم تشتعبنى للمنايا شعوبها
دعا الله من حتف المنية عاصما
بقاضية يدعى لها فيجيبها

ليس مصدره مجرد زواج عاصم من مى ؛ وان كان ذلك فى حد ذاته مؤلما ، وانما عزوه ، وأعانه فى اشعال نار الحقد عليه ما روى (٣) من أن ذا الرمة ضاف زوج مى فى ليلة ظلماء وهو طامع

(١) قرينها ــ ذلت شدتها وامتناعها عن الاقتران بغيره •
(٢) الحزن ــ المرتفع من الأرض ، المعا ــ اسم موضع •
(٣) الاغانى ج ١٦ •
يرى بروكلمان أن أكثر من اشتهروا بالحب قد تعلقن بنساء متزوجات•

فى ألا يعرفه زوجها فيدخله بيته فيقريه فيراها ويكلمها ففطن له الزوج وعرفه فلم يدخله وأخرج اليه قراه وتركه بالعراء وقد عرفته مية ، فلما كان فى جوف الليل تغنى غناء الركبان ؛ قائلا :

أراجعة يامى أيامنا الأولى

بذى « الأثل » أم لا مالهن رجوع

فغضب زوجها وقال : قومى فصيحى به ، يا ابن الزانية ، وأى أيام كانت لى معك بذى الأثل ؛ فقالت يا سبحان الله ضيف والشاعر يقول .. فانتضى السيف وقال : والله لأضربنك به حتى آتى عليك أو تقولى ؛ فصاحت به ثم أمرها زوجها ؛ فنهض على راحلته فركبها وانصرف مغضبا يريد أن يصرف مودته عنها الى غيرها ؛ فمر بفلج فى ركب وبعض أصحابه يريد أن يرقع خفه فاذا هو بجوار خارجات من بيت يردن آخر ، واذا خرقاء فيهن وهى امرأة من بنى عامر فاذا جارية حلوة شهلاء فوقعت عين ذى الرمة عليها فقالت لها جارة أترقعين لهذا الرجل خفه فقالت تهزأ به : أنا خرقاء لا أحسن أعمل فسماها خرقاء وترك ذكر مى يريد أن يغيظ بذلك ميا فقال فيها قصيدتين أو ثلاثا ثم لم يلبث أن مات »

ولقد ذكرت القصة كلها لأنها تعلل لسبب تشبيبه بخرقاء ، كما تعلل لسبب سخطه الحاد على عاصم زوج مى الذى أهانه بلسانها فأحب الشاعر أن يقتص منه بهذه الأبيات المتفرقة التى نفث فيها ضيقه وحقده ولعل هذا الحادث الذى أوردناه هو الذى أشار اليه فى الأبيات الآتية :

بكى زوج مى أن أنيخت قلائص

الى بيت مى آخر الليل طلح (١)

فمت كمدا يا بعل مى ، فانما

قلوب لمى آمنو الغيب نصح

فلو تركوها والخيار تخيرت

فما مثل مى عند مثلك ، يصلح

(١) طلح ـ متعبات ، نصح ـ نقية لا تضمر لها شرا .

أبيت على مثل الأشـــافى وبعلهـــا
يبيت على مثل النقـــا يتبطح (١)

لقد ثأر لنفسه بالتعبيرات اللاذعـــة « بكى زوج مى فمت كمدا ؛ فما مثل مى عند مثلك يصلح » وان كانت ثورته لم تستطع أن تخفى نقاوة حبه الذى عبر عنه بقوله :

قلوب لمى آمنو الغيب نصح

كما لم تخف شكواه المبرحة مما هو فيه اذ « انه يبيت على مثل الأشافى ؛ وبعلها يبيت على مثل النقا يتبطح » وعلى كل فاذا كان فشل فى هذه الزيارة ، فهو لم يفشل فى الكثير غيرها ، فقد روى لنا تلميذه وصديقه « عصمة بن مالك » أنه قال له : ان مية من منقر ومنقر أخبث حى وأقفاه لأثر وأعلمه بشر ؛ وقد عرفوا آثار ابلى ،فهل عندك من ناقة نزور عليها مية فقلت : نعم فأتيناها والقوم خلوف والنساء فى الرحال فأنخنا عندها واجتمع النساء حولها فقالتظريفة: أنشدنا فقال : أنشدهن يا عصمة ؛ فأنشدتهن من شعره :

نظرت الى أظعـــان مى كأنهـــا
ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه (٢)

الى : وقد حلفت بالله ميـــة ما الذى
أحدثهـــــا الا الذى أنـــا كاذبـــه

اذا فرمانى الدهـــر من حيث لا أرى
ولا زال فى أرضى عـدو أحاربـــه

فقالت : مية ، ويحك يا ذا الرمة خف الله وعواقبه ، فلمـــا قلت : آذا سرحت من حب مى سوارح ، قالت الظريفة قتلته قتلك الله فقالت : مية ما أصحه ؛ وهنيئا له ، فتنفس ذو الرمة تنفيســـة كاد حرها يطير بلحيتى فلما أتيت على قوله :

---

(١) الأشافى ـ المخارز وهى آلات لثقب الجلد ، النقا ـ الرمال اللينة ، يتبطح ـ ينام وينبطح .

(٢) ذرى ـ قمم ، الأثل ـ شجر الأثل المعروف ، ذوائبه ـ قممه .

اذا نازعتك القول مية أو بدا
لك الوجه منها أو نضا الدرع سالبه (١)

قالت الظريفة، فقد بدا لك الوجه ، وتنوزع القول، فمن لنا بأن ينضو الدرع سالبه ، فقالت لها مية قاتلك الله فماذا تأتين به فتضاحكت الظريفة ، وقالت : ان لهذين لشأنا ، فقوموا بنا عنهما فقامت وقمن معها ؛ وقمت فخرجت ؛ وكنت قريبا حتى أراهما وأسمع ما ارتفع من كلامهما فوالله ما رأيته تحرك من مكانه الذى خلفته فيه حتى ثاب أوائل الرجال فأتيته فقلت انهض بنا فقد ثاب القوم فودعها فركب وردفته وانصرفنا .. » أيا كان مدى صدق هذه القصة فقد تكون مصنوعة للتدليل على عفته ، ونقاء حبه ؛فهى تدعم ما قلناه من أنه رآها وحادثها أكثر من مرة الى أن أصبحت داءه ودواءه الذى لا يستطيع الفكاك من أسره ، بل أصبح ما يراه فيها لا يراه فى أحد سواها ، من مفاتن قد تستهوى حتى الحكماء :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت
لعينيه مى سافرا كاد يبرق (٢)

---

(١) نضا الدرع ـ خلع عنها القميص .
(٢) يبرق ـ يتحير دهشة .

الفصل الثالث

عالم الشاعر النفسى

آن لنا بعد ما قدمناه من عرض لصفات مى النفسية والجسدية كما يراها ذو الرمة ؛ وكما حدثنا عنها الرواة ـ أن نقوم بسياحة استكشافية لما تموج به أعماق الشاعر من عواطف وانفعالات هى سر ما فى فنه الشعرى من حرارة وصدق وخلود ؛ ·· وقبل أن نرحل الى عالمه النفسى على أجنحة شعره المحلقة · نجيب عن هذا السؤال التمهيدى وهو ما الذى كان يثير شجونه ولواعج أشواقه ؟ ··· أكثر ما كان يثير أشجانه مرأى تلك المنازل التى التقى فيها بمى أو رأى فيها ميا تتردد وحدها أو مع أترابها :

وقد يرى فيهــا لعــين منظــر
مجـالس وربرب مصــور (١)
أتراب مى والوصـــال أخضر
ولم يغــير وصلهــا المغــير

لقد درست معالم تلك الديار ولم تبق منها الا آثار بالية لاتثير انتباه أى عابر فما الغريب المثير فى رؤية تلك الأشياء ؛ نؤى متهدم كان حاجزا لمنع تسرب مياه المطر الى الخيمة ، وموقد بال ، وبقايا من حطب :

(١) ربرب ـ قطيع من البقر الوحشى والمراد الآنسات·

يبدو لعينيك منهـــا وهى مزمنـة
نؤى ومسـتوقد بال ، ومحتطب (١)

الى لوائح من أطـلال أحـوية
كأنها خـلل موشـية قشـب (٢)

وقطع أعنة ملقاة ، وأوتاد منزوعة الحبال ، وأثاف كانـوا يطبخون عليها :

بهـا قطع الأعنـة ؛ والأثـافى
وأشعث خاذل فقـد الاصارا (٣)

ورماد غيرته النـار :

وضبحا ضبته النار فى ظاهرالحصى
كبـاقية التنـوير أو نقط الحبـر (٤)

ودعائم الخيام المصرعة ؛ ونبات الثمام الذى كان يستظل به ؛ وقد نثرته الريح فى كل مكان ؛ والبقع السوداء فى أماكن اقامتهم :

وحظائر الجمال المحطمة ، والبعر القديم الذى يشبه الودع أو قشر بيض اليمام الذى تركه الفرخ بعد أن خرج منه .

أو ملعب بين المنازل ؛ تتلاقى فيه الفتيات الجميلات أو يلعب فيه الأطفال :

---

(١) مزمنة ــ مر عليها زمن طويل ، النؤى ــ الحاجز حول الخيمة يمنع عنها المطر ، محتطب ــ مكان لوضع الحطب .

(٢) لوائح ــ لوحتها الشمس والرياح والمطر ، أطلال ــ بقايا الديار والآثار، أحوية ــ خيام مجتمعة ،خلل ــ بطائن السيوف المنقوشة ، قشب ــ جديدة أو مختلطة .

(٣) أشعث ــ الوتد المتشعث من الدق عليه ، خاذل ــ متخلف فى الدار الاصار ــ الحبل الذى يربط به .

(٤) ضبحا ــ رمادا ، ضبته ــ غيرته النار ، التنوير ــ الاثمد (الكحل) .

الى ملعب بين الحوائين منصـــف
قريب المزار؛طيب الترب ،مسهل(١)
تلاقى به حور العيــون كأنهــا
مها عقد ، محرنجم ؛ غير مجفل (٢)

لقد خلت تلك الأماكن من الناس فلا ترى بها شبحا أو تسمع نبأة :

وأقوت من الآناس حتى كأنهــا
على كل شبح ألوة لا يصيبهـا (٣)

ولم تعد تعمرها سوى الثيران :

تمشى بهـا الثيران كل عشــية
كما اعتاد بيت المرزبان مرازبه (٤)

والبقر الأبيض كالنجوم :

كأن بلادهــن ســماء ليـل
تكشف عن كواكبهـا الغيــوم

والظباء ذات النزيب :

اذا سـير الهيف الصــهيل وأهله
من الصيف عنه أعقبته نوازبه (٥)

---

(١) الحواء ــ المنزل (الخيمة هنا) ، منصف ــ وسط بينهما ، مسهل ــ سهل .
(٢) مها عقد ــ المهــاة البقرة الوحشية ، عقد ــ مكان رملى ، محرنجم ــ مجتمع .
(٣) أقوت ــ خلت ، شبح ــ خيال ، ألوة ــ حلف يمينا لا يصيبها ــ لايدنو منها أحد .
(٤) المرزبان ــ ملك الفرس أو أميرهم .
(٥) الهيف ــ الريح الحارة ، نوازبه ــ ظباؤه .

والطيور المختلفة من غربان تحجل ، وحمام موشح ، تنقر الأرض بمناقيرها كالأقلام تخط على الورق :

قد احتملت مى فهاتيك دارها
بها السحم تردى والحمام الموشح(١)

كأن أنوف الطير فى عرصاتها
خراطيم أقلام تخط وتعجم

ومن خلال شجر الرمث تحن الريح صباح مساء فى هذه الأرض الخالية ، كما يسمع فيها عزيف الجن وبغام الوحش :

خلاء ؛ تحن الريح أو كل بكرة
بها من خصاص الرمث كل ظلام (٢)

وللوحش والجنان كل عشية
بها خلفة من عازف وبغام (٣)

وأراعيل النعام الأسود :

قفرا كأن أراعيل النعام به
قبائل الزنج والحبشان والنوب (٤)

وللريح حين يشتد هبوبها فتجول بالحصى – صوت زاجل :

أربت عليها كل هوجاء رادة
زجول بجولان الحصى حين تسحق

وهى تجمع الحصى والتراب وتفرقه :

---

(١) السحم – السود .

(٢) معنى البيت : تحن الريح هابة من خصاص شجر الرمث كل مساء أو صباح .

(٣) الجنان – الجن ، خلفة – صوتان مختلفان ، البغام – صوت الظبية والناقة .

(٤) أراعيل – جماعات .

أربت بها هوجاء تستدرج الحصى
مفرقة تذرى التراب جموع (١)

هذه الريح العاصفة ؛ وبقايا الأشياء المطروحة على الأرض بعد أن استغنى عنها الراحلون ، والحيوانات والطيور التى حلت محلهم ذات شذى خاص لدى العاشق فهى ترتبط فى ذهنه ووجدانه بالذكريات الكثيرة المتشابكة ؛ كما أنها تنقله بمجرد رؤياها من عالم حاضره الى عالم ماضيه الحبيب باسطة أجنحتها الخضراء على الغد الذى يتمناه ! وليس غريبا أن نسمع أن عبادة الأصنام نشأت بسبب ما حمله معه عربى قديم من أحجار كذكرى لبلده الذى تغرب عنه . ولذلك نجد شاعرنا كل ما مر بمنزلة من منازل مى وقف متسمرا يكاد ألا يبرح المكان حتى يضيق به صحبه ؛ بل تضيق به راحلته أيضا :

فسيرا ، فقد طال الوقوف ، ومله
قلائص أمثال الحنيات ضمر (٢)

فهى تهيج صبابته ، وتطوى به الزمن الى ماضيه الذى يحتفظ له فى ذاكرته بأغلى الذكريات :

فهجت صبابتى ؛ ولكل الف
تهيج الشوق معرفة العهود
غداة بدت لعينى عند حوضى
بدو الشمس فى جلب نضيد

فيسفك دموعه بغزارة ؛ وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائده من الاشارة الى ذلك ؛ يؤلمه أن هذه الآثار لا تعفو ، وتزول فهى مثار آلامه وأشجانه :

---

(١) أربت ـ اقامت ، تستدرج الحصى ـ تحركه .
(٢) الحنيات ـ القسى (جمع قوس) .

اذا قلت تعفـــو لاح منها مهيـــج
على الهوى من طارف وتـــلاد (١)

ولا مفر له من أن يمر بها فى طريق أسفاره :

يهيج البكـــــا ألا تريم ، وأنهـــــا
ممر لأصـــحابى مرارا ومنظر (٢)

لكن رغم ضيقه بها لأنها تثير بنفســــــه كوامن الوجد ؛ فهى عزيزة على نفسه ، ترابها سحيق المسك :

كأن سحيق المســــــك ريا ترابـــه
اذا هضبته بالطلال هواضـــــبه (٣)

وهى شىء حى يخاطبه خطاب صديق لصديقه ، ويبثه أشواقه وأشجانه :

وأسقيه حتى كاد ممــــــــا أبثـــه
تكلمنى أحجـــــاره وملاعبـــــه

فالجماد حين يرتبط فى وجدان الانسان وبخاصة الشـــاعر بأعز الذكريات يصبح شيئا حيا ؛ لذلك نجد ذا الرمة يحيى منزلتى مى ويسألهما :

أمنزلتى مى ســــلام عليكمـــــا
هل الأزمن اللائى مضين رواجع ؟

ويدعو لهما بالمطر الذى لا يكف عن الهطلان :

---

(١) طارف وتلاد ــ جديد وقديم .

(٢) ألاتريم ــ ألا تمحى وتزول .

(٣) هضبته ــ أمطرته ، الطلال ــ مفردة طل .

ولا زال من نوء الســــماك عليكما
ونـــوء الثـــريا وابل متبطح (١)
وان كنتما قد هجتما راجـــع الهوى
لذى الشوق حتى ظلت العين تســفح

حتى تتردى بثياب من النبات والنور فتبدو كبسط منقوشة :

ترديت من ألوان نـــور كأنهـــا
زرابى ، وانهلت عليـــك الرواعد

وان كان أحيانا يثوب الى رشده ، فيتساءل :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى
بوهبين أن تســقى الرســوم البوائد

هذا هو المصدر الأول والمهم فى اثارة ذكرياته ؛ لكنـــه ليس المصدر الوحيد وانما هناك مصادر أخرى كثيرة ، منها رؤيته لجماعات الراحلين ؛ فهم يذكرونه دائما برحيل حبيبته ، ذلك الرحيـل الذى ترك فى صدره جرحا غائرا تنكؤه تلك الرؤى كما تؤرقه طلائع ريح الصيف الحارة فهى نذير الفراق :

ألما يحن القلب الا تشـــوقه
رسوم المغانى؛وابتكار الحزائق (٢)
وهيف تهيج البين بعـــد تجاور
اذا نفحت من عن يمين المشارق (٣)
كأن فـــؤادى قلب جانى مخوفـــة
على النفس اذ يكسون وشى النمارق (٤)

(١) نوء السماك ونوء الثريا — هو سقوط وطلوع بعض النجوم كالثريا والسماك والأسد الخ يسمى نوءا ، والعرب قديما كانوا يربطون الظواهر الجوية كالامطار بهذه الأنواء .

(٢) رسوم — بقايا آثار الديار ، المغانى — الديار ، الحزائق — الجماعات .

(٣) البين — الفراق ، نفحت — هبت .

(٤) النمارق — جمع نمرقة وهى الوسادة .

ويثير أشواقه وهو بعيد في مجاهل الصحراء وميض البرق من ناحية محبوبته فقد يكون مرتبطا في وجدانه بثغرها وحمرة شفتيها :

اذا أومضت من نحو مى سحابة
نظرت بعيني صادق الشوق وامق (١)

بل يؤرقه فيظل ساهرا الى بزوغ الفجر ؛ والخليون من حوله يغطون في نوم عميق ...

كما يذكره بها تلألؤ سحابة ماطرة تسوقها الريح الجنوبية الى ديار محبوبته ..

ويبعث كوامن ذكرياته نواح الحمام الجاثم في الديار :

ولو لم يشقنى الظاعنون لشاقنى
حمام تغنى في الديار وقوع

تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى
لوائح ما تجرى لهن دموع

كما تذكره بها تلك الظباء التي يلتقى بها وسط الصحراء أثناء رحيله ؛ والتي تحمل الكثير من ملامح محبوبته ، عينها الفاترة بما فيها من حور وكحل ؛ وجيدها الأغيد ، وبريق جسمها وقد انسكبت عليه أشعة الشمس الصفراء في الضحى أو الأصيل والخصر الدقيق .

أقول للركب لما أعرضت أصلا
أدمانة لم تربيها الأجاليد (٢)

ظلت حذارا على مطلنفىء خرق
تبدى لنا شخصها والقلب مزءود (٣)

---

(١) وامق ـ عاشق محب .

(٢) أصلا ـ في الأصيل ، أدمانة ـ ظبية ، لم تربيها الأجاليد ـ الأرض الصلبة .

(٣) مطلنفىء ـ لاصق بالأرض أى ولد الظبية ، خرق ـ لاصق بالأرض مزءود ـ مفزع .

هذى مشابه من خرقــاء نعرفهـــا
والعين واللون والكشحان والجيد (١)

هى الشبه أعطافا وجيــداً ومقــلة
ومية أبهى بعـــد منهـــا وأملح

فهى تفوقها بامتلاء الذراعين والساقين ، ودقة الأذنين :

هى الشبه الا مدرييهـــا ، وأذنهـــا
سواء والا مشــقة فى القوائم (٢)

كما أن جيد مى تزينه العقود والحلى :

أرى فيك من خرقاء يا ظبية اللوى
مشابه جنبت اعتلاق الحبـائل (٣)

فعيناك عيناها ، ولونك لونهـــا
وجيـــدك الا أنه غير عـــاطل

ولهذا التشابه نلمس تعاطفه مع كل ما يحمل ملامح محبوبته، وديوان شعره يخلو من أية صور فيها بعض القســوة على هــذه الحيوانات ؛ وفى البيتين السالفين يدعو للظبية بأن الله يجنبهـــا اعتلاق حبائل الصائدين •

فاذا ما أرهقه السفر ، وارتمى فى الهزيع الأخير من الليـــل بجوار ناقته لاويا زمامها على يده حتى لا تند منه ؛ فى ذلك الوقت الذى تكون فيه « أحلى نومة لو ينامهـــا » يزوره خيال محبوبتـــه فيهيج ما به من أسقام :

---

(١) الكشحان ـ مفردهما كشح وهو الجنب •

(٢) مدرييها ـ قرنيها ، سواء ـ يستويان ويتشابهان ، مشقة ـ رقة •

(٣) الحبائل ـ مفردها حبالة وهى المصيدة ، غير عاطل ـ أى تتزين بالحلى• والمعنى : ان الشبه قوى بين الظبية وخرقاء لاخلاف بينهما فى شىء سوى أن للظبية قرنين ، وفى قوائمها يبوس ورقة لا توجد فى خرقاء •

أزارتك مى بعد ما قلت ذا هـل
فهاج سقاما مستكنا لمامها (١)

منفرة النوم من عينيه :

ألا خيلت مى وقـد نام صحبتى
فما نفر التهويم الا سلامها (٢)

وهى تزوره حاملة معها الريح الطيبة كأنفاس الخزامى المطلولة لتنعش هذا المجهد الولهان :

ألا طرقت مى هيوما بذكرها
وأيدى الثريا جنح فى المغارب (٣)
أخا شقة زولا كأن قميصه
على نصل هندى جراز المضارب (٤)
سرى ثم أغفى وقعة عند ضامر
مطية رحال ، كثير المذاهب (٥)
بريح الخزامى هيجتها وخبطة
من الطل أنفاس الرياح اللواغب (٦)

وكثيرا ما يتمنى أن يكون ما يراه حقيقة واقعة :

---

(١) لمامها ــ زيارتها السريعة ، ذاهل ــ ناس •
(٢) التهويم ــ النوم •
(٣) جنح ــ مائلة •
(٤) أخاشقة ــ ملازم للأسفار البعيدة ، زولا ــ ضامرا ، نصل هندى ــ نصل سيف ، جراز ــ قاطع •
(٥) معنى البيت : أغفى واقعا قريبا من جمله الذى أضمره كثرة رحيله ، لكثرة مقاصده ومطالبه •
(٦) خبطة ــ ضربة ، اللواغب ــ الرياح الهادئة كأنها متعبة من الجرى والهبوب •

أرانى اذا هومت يامى زرتنى
فيا نعمتا لو أن رؤياى تصـــدق
فما حب مى بالذى يكذب الفتى
ولا بالذى يزهى ، ولا يتملق (١)

بل كثيرا ما يخاطب طيفها ، خطابه لحقيقتها الماثلة فهو يتعجب منها كيف اهتدت اليه وهو فى هذه المجاهل المترامية :

فيــــا مى ؛ مــا أدراك أين منخنا
معرقة الألحى ، يمانية ســجرا (٢)

ويكرر هذا التعجب فى مكان آخر فيقول :

تطوف الزور من مى عــــلى عجــــل
بمسلهمين ؛ جوابين للبعــــــد (٣)
حييت من زائر أنى اهتديت لنـــا
وكنت عنا بلا نحو ولا صــــدد (٤)

ولكنه قد يدرك من خــــلال تجربته الصـــادقة ما يدركـــه علماء النفس الذين أفنوا حياتهم فى تعليل مثل هذه الرؤى من أن مصدرها طول التفكير وانشغال العاشق بمن يحب :

نأت دارمى أن تزار ، وزورهـــا
الى صحبتى بالليل هاد مواعس (٥)

---

(١) يزهى – يرفع ويكبر فى نظرك زورا .

(٢) معرقة الألحى – قليلة لحم اللحيين أى ماحول الفكين ، سجرا – حمرا
يمانية – ابل منسوبة الى اليمن .

(٣) الزور – خيال مى ، بمسلهمين – بضامرين ، للبعد – الأرض البعيدة
يجوبونها ويقطعونها .

(٤) بلانحو – بلاقصد ، ولاصدد – غير قريب منا .

(٥) زورها – خيالها ، مواعس – يطأ الرمل (الوعساء) .

اذا نحن عرسنا بأرض سرى بهـــا
هوى لبسته بالفؤاد اللوابس (١)

ويمكننا فى نهاية الحديث عن الطيف أن نخـــالف ما قاله الدكتور الأهوانى (٢) من أن البحترى أول من أطـال الحـديث الطيف ، فشاعرنا ذو الرمة قد سبقه الى ذلك بل ربما يكون البحترى أحد المقتدين به فى هذا الفن •

فاذا ما أثار أشواقه سبب من تلك الأسباب ؛ وبخاصـــة اطلال محبوبته التى لا يملك التحول عنها :

على أننى فى كل ســـير أسيره
وفى نظرى من نحو دارك أصور (٣)

لفته غمامه من الذكرى فتنفرط دموعه التى يجهد نفســه فى سبيل اخفائها فهو ينتصر عليها حينا فيمنعها ؛ وتنتصر عليه حينـا آخر فتسيل على لحيته •

عشـــية أثنى الدمع طورا وتـارة
يصادف جنبى لحيتى فيجودها (٤)

وقد تتوالى دموعه بكثرة فيشبهها بمزادة مرقوعة بها خروق يقطر منها الماء ، وأحيانا يحاول أن يخفيها كما رأينا سابقا فتخنقه الدموع :

لعمرك انى يـــوم جرعـــاء مالك
لذو عبرة كل تفيض وتخنـــق
وانســـــان عينى يحسر الماء تارة
فيبدو وتارات يجم فيغـــرق (٥)

---

(١) عرسنا ـ نمنا آخر الليل ، لبسته ـ خلطته •

(٢) فى كتابه عن ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار •

(٣) أصور ـ مائل العنق لتلفته نحو ديار محبوبته •

(٤) يجودها ـ يمطرها ويبللها •

(٥) يجم ـ يكثر ، والمعنى : انسان عينى ينحسر عنه الدمع حينا فيظهر ويغمره حينا آخر فيختفى •

وبالرغم من أنه يرى أن سفك الدموع على تلك الأطلال ، أو القاء التحية اليها أقل ما يفعله :

وقـــل الى أطلال مى تحيـــة
يحيى بهـــا أو أن ترش المدامع

الا أنه يحاول ألا يسفك هذه الدموع لأسباب منها : أنه قد تجاوز الثلاثين من عمره ووصفه الناس بالحلم والعقل والاتزان ، فحين يلومه أخوه مسعود على البكاء يعتذر له بأنه صابر على كل شيء ما عدا تلك الدموع التى تجول بالرغم منه :

عشية مسعود يقول وقـد جـــرى
على لحيتى من عبرة العين قاطـــر
أفى الدار تبكى أن تفرق أهلهـــا
وأنت امرؤ قد حلمته العشائر (١)
فلا صبر أن تســـتعبر العين اننى
على ذاك الا جولة العـــين صابر

ولأنه لا يريد أن يكشف أسرار نفسه للآخرين ، فالحب شيء مقدس ينأى به العاشق عمن لا يفهم أسراره :

فما زلت أطوى النفس حتى كأنها
بذى الرمث لم تخطر على بال ذاكر (٢)
حياء واشـــفاقا من الركب أن يروا
دليلا على مســـتودعات السرائر

ولأنه لا يريد أن تلوك الألسنة اسم محبوبته وتردد قصـــة حبهما المقدس :

فان تحـــدث الأيام يامى بيننـــا
فلا ناشر ســـرا ولا متغـــير

(١) حلمته ـ عدته حليما عاقلا رزينا .
(٢) بذى الرمث ـ اسم مكان يكثر فيه شجر الرمث .

أو لأنه يرجو أن يحصل على أجر الصابر :

أمستوجب أجر الصبور فكاظم
على الوجد أم مبدى الضمير فجازع

وحتى لا يتعرض لسهام العواذل التى تصوب اليه منهم كلما لحوا بكاءه وتغير حاله :

يلوم على مى خليلى ، وربما
يجور اذا لام الشفيق ويخرق (١)

ولذلك يدور بينه وبين نفسه صراع عارم ؛ فهو يحاول أن يقنع نفسه بأن ما يبدو منها من جزع لا يليق به ولا جدوى منه :

عرفت لها دارا فأبصر صاحبى
صفيحة وجهى قد تغير حالها (٢)

فقلت لنفسى من حياء رددته
اليها وقد بل الجفون بلالها

أمن أجل دار صير البين أهلها
أيادى سبا بعدى وطال اختيالها

فؤادك مبثوث عليه شجونه
وعينك تعصى عاذليك انهلالها (٣)

ومهما حاول ذلك فالدموع تغلبه على أمره :

فأبديت من عينى والصدر كاتم
بمغرورق نمت عليه سوابه

فيحاول اخفاءها عن رفقته وأصحابه :

---

(١) يخرق ـ يعنف .

(٢) صفيحة الوجه ـ ظاهر الوجه .

(٣) شجون ـ آلام ، انهلالها ـ سيلان الدمع منها .

فلمـــا رأيت الدار غشيت عمتى
شآبيب دمع ، لبســة المتلثـم (١)
مخافة عينى أن تنـــم دموعهـــا
على بأسرار الضـــمير ؛ المكتم

بل عن آقرب الناس اليه كأخيه مسعود مثلا :

فأخفيت شوقى عن رفيـــقى وانه
لذو نسب دان الى وذو حجـر (٢)

وهل للحب منطق ؛ فسيان عند الحب الشاب الذى لم يجرب والكهل الذى تمرس بالحياة .

فلما عرفت الدار واعتزنى الهـــوى
تذكرت هل لى ان تصابيت من عذر

فلم أر عذرا بعد عشرين حجـــة
مضت لى وعشر قد مضين الى عشر

ورغم خوفه من لوم العاذلين وقولهم له :

لو كان قلبك من صخر لصـــدعه
هيج الديار لك الأحزان والذكرا
وزفرة تعتريه كلمـــا ذكـــرت
مى له أو نحا من نحوهـــا البصرا

بل واهمالهم له بعد أن عجزوا عن التأثير عليه .

---

(١) معنى البيت : أنه أسبل عمامته على وجهه ليخفى دموعه عن رفاقه حتى لا يكشف عن أسرار قلبه .

(٢) ذو حجر ــ صاحب عقل راجح .

أطاع الهـــوى حتى رمتـــه بحبله
على ظهره بعد العتاب عواذله (١)

الا أنه كثيرا ما يلجأ اليهم مستشيرا ، فالحب النقى جعـــله يأنس الى الناس ويطلب المشورة من الجميع :

خليلى هـــل من حيلة تعلمانهـــا
يدنيكما من وصل مى احتيالها (٢)

فنحيى لهـــا أم لا فان لا فلم نكن
بأول راج حيـــلة لا ينالهـــــا

فهم الذين يلومونه ؛ وهم الذين يشاركونه أيضا آلامه ، فكم مرة وقف على أطلال محبوبته فاستعبر وبكى فشاركه رفقته البكاء :

بكيت على مى بهـــا اذ عرفتهـــا
وهجت الهوى حتى بكى القوم من أجلى

فظلوا ومنهـــم دمعـــه غالب له
وآخر يثنى عبرة العين بالهمـــل

لقد أسرف ذو الرمة فى الحديث عن بكائه . وتكاد لا تخـــلو قصيدة له من ذلك ؛ والرواة يؤكدون تلك الصفة فيه فقد قال رجل للأصمعى : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار وهو ينشد ، ودموعه تجرى على لحيته قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسـكب
كأنه من كلى مفـــرية سرب (٣)

---

(١) رمته بحبله على ظهره ــ كناية عن اهمالهم لشأنه .

(٢) معنى البيتين : يا خليلى هل لديكما حيلة نحتال بها لنجعل ميا تبادلنا الوصل ، فنحيى من أجل هذا الأمل واذا لم يكن لديكما ذلك فلسنا أول من يرجو أملا ويحتال له ثم لا يناله .

(٣) كلى ــ مزادة (قربة) ، سرب ــ سائل .

فالأمر ليس دعوى يدعيها الشاعر أو سيرا على منهج سلكه السابقون ، وانما لهذا علته وسببه فهو شاب فى فترة التوهج النفسى ؛ أرهف مشاعره نظمه الشعر وروايته له ووترت أعصابه الأسفار البعيدة المرهقة : ثم هو عاشق لفتاة اجتمعت فيها أسباب الحب والجمال ، أذكت بدلالها وطبيعتها الأنثوية فيه نار الحب ؛ كما أذكاها طول تفكيره فيها وتكرار رؤيته لها مع الصدود والذل والحرمان فهو القائل :

كفى خزنا فى الصدر ، يا مى أننى
وأياك فى الأحيـــــاء لا نتكلم (١)

ثم تلك الأجراس التى تطن دائما فى أذنيه منذرة بالبين والفراق ؛ وتلك الآثار التى تنكأ جراحه كلما حاول أن ينسى أو يسلو ، فليس غريبا أن يفيض قلبه من عينيه دموعا غزارا رأينا جزءا من قصتها فيما سلف من حديث ، فهى النافذة أو القناة الوحيدة التى تتسرب منها نيران ألمه وحزنه ؛ فالدموع كثيرا ما تكون نعمة من نعم الحياة على الانسان :

أجل عبرة كادت لعرفان منـــزل
لمية لو لم تســـهل المـــاء تذبح

على حين راهقت الثـــلاثين وارعوت
لداتى ؛ وكاد الحلم بالجهل يرجح (٢)

اذا خطرت من ذكر مية خطـرة
على النفس كادت فى فـؤادك تجرح

لقد نال اسرافه فى البكاء ، وترديده ذلك من منزلته الشعرية عند بعض من لا يرى النبوغ سوى النظم فى كل الأغراض المأثورة فمن هؤلاء الأصمعى الذى يقول : انما وضع من ذى الرمة أنه كان

(١) خزنا ــ ما يخزنه من ألم فى صدره .

(٢) راهقت الثلاثين ــ دنوت منها ، ارعوت لداتى ــ اقلع من فى مثل عمرى عن الصبوة والغرام ، الجهل ــ السفه .

لا يحسن أن يهجو ولا يمدح . ووقف الفرزدق على ذى الرمة وهو ينشد قصيدته التى يقول فيها :

اذا أرفض أطراف السياط وهللت
جروم المطايا عذبتهن صيدح (١)

فسأله ذو الرمة : كيف تسمع يا أبا فراس ؛ فقال : أسمع حسنا ، قال : فما بالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ، قال يمنعك من ذلك ذكر الأبعار ؛ وبكاؤك الديار ... » واذا كان هذا مفهوم معاصريه عن الشعر نقادا وشعراء مما تسبب فى اصابته بالتخلف من جراء الاسراف فى استيعاب تلك الأغراض ، وان كانت مخالفة لطبيعة الشاعر ، فان لذى الرمة العاشق مفهومه الخاص ؛ الذى صرح به فى حواره الذى جرى على لسانه مع الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى (٢) الذى سأل الفرزدق فقال له : من أشعر الناس؟ قال : أنا الا أن غلاما من بنى عدى بن مناة يركب اعجاز الابل وينعت الفلوات ، ثم أتاه جرير فسأله : فقال له : مثل ذلك، ثم أتاه ذو الرمة فقال له : ويحك أنت أشعر الناس ؟ قال لا ، ولكن غلاما من بنى عقيل يقال له : مزاحم يسكن الروضات يقول : وحشيا من الشعر لا نقدر على أن نقول مثله ، هذا هو مطمح ذى الرمة فى الشعر ، مطمحه أن يصل الى ما وصل اليه مزاحم مجنون بنى عامر — كما فى بعض الروايات — من الصدق فى التعبير عن الحب ، وكأن ذا الرمة لا يعترف بمقاييس أهل عصره ؛ كما لا يعترف بمن تسنموا ذروة المجد من الشعراء كالفرزدق وجرير ، وان شغلوا الناس زمنا طويلا ، وشغلوا الرواة والنقاد بمدائحهم وأهاجيهم الزائفة .. لقد اعترف له نقاد عصره بمساواته للمشاهير فى فن الغزل فقط ؛ ولو أنصفوا لقدموه عليهم فى هذا الفن ؛ قال أبو عبيدة : كان ذو الرمة اذا أخذ فى النسيب والوصف فهو مثل جرير وليس وراء ذلك

---

(١) معنى البيت وقد سبق شرح مفرداته : اذا ما تشعثت السياط على الابل من الضرب فان صيدح ناقة الشاعر تسبقها جميعا . وتتعبها فى مواصلة السير بالرغم من طول المسافات التى جعلت الابل الضخمة ضامرة كالأهلة .

(٢) الأغانى ج ١٦ .

شيء (١) » ويقول ابن سلام : كان ذو الرمة دون الفرزدق وجرير ويساويهما في بعض «شعره» (٢) ولا شك أن الذي يساويهما فيه انما هو النسيب والوصف على ما ذكره أبو عبيدة والذي يعنينا من كل ذلك هو أن هذا الوقوف على الأطلال وبكاء الديار الذي عده نقاد عصره وشعراؤه مأخذا على ذي الرمة يؤخره عن قافلة المشاهير نراه نحن وسيلة سبق وتفوق ، فهذه الدموع ما هي الا ترجمة صادقة لما يؤج في صدر الشاعر من حرق الحب وآلامه ، واذا كانت الدموع علامة صدق على ذلك فحديث الشاعر عن خلجاته النفسية علامات أخرى تؤازر ما سبق ، ولنستكمل مع الشاعر السياحة النفسية لنكشف عن أسرار نفسه ، الغنية بالأسرار ، فالحب حين أضاء جوانب نفسه كشف له عن كنوزها الدفينة في صدره ، ولعل ذا الرمة من أوائل الشعراء العرب الذين أفاضوا في الحديث عن القلب ؛ وصفوا آلامه ، وخاطبوه مخاطبة الصديق للصديق .

لقد تصدع قلب الشاعر غداة رأى حمولهم تستعد للرحيل ، فنصف بقي في صدره ؛ ونصف ارتحل مع الراحلين :

عشـــية قلبي في المقيـم صديعـــه
وراح جناب الظاعنين صـــديع (٣)

وحين هصره الحنين أحس بأطراف سهام تنفذ الى قلبه :

فيـــا من لقلب لا يـــزال كأنـــه
من الوجد شكته صـــدور النيازك

وقلبه كساق جبرت بعد كسر فكلما رأى ربعا لها أعـــاده الى ما كان عليه :

---

(١) الموشح للمرزباني

(٢) الأغاني جـ ١٦ .

(٣) جناب ـ نحو ، الظاعنين ـ المسافرين .

كأن فؤادى هاض عرفان ربعهـــا
به وعى ساق أسلمته الجبـــائر (١)

ويعجب من هذا القلب المتمرد الذى لا يستجيب لرجائه :

فيا من لقلب قـــد عصـــانى متيـــم
لمى ؛ ونفس قد عصـــانى مريضها

ويعاتبه ، بل يلح فى عتاب هذا القلب الذى برحت به الأسفار وآلام الوجد والحنين قائلا له : اننى أعجب من حالك ، ففى كل طلل لك حنة بعير حال القيد بينه وبين اللحاق برفاقه ، فماذا تصنع .. وقد استحكم الحب ، وحيل بينـــك وبين اللقاء ؟ أتستسلم للجزع والشكوى ؛ أم تكظم ما فى نفسك فتستوجب أجر الصبور الكاظم ولعله يشير بذلك الى قول الرسول عليه السلام : « من أحب فعف فصبر فمات مات شهيدا » :

ألا أيهـــا القلب الذى برحت بـــه
منازل مى والعران الشواســـع (٢)

أفى كل أطلال لها منـــك حنـــة
كما حـــن مقرون الوظيفين نازع (٣)

ولا برء من مى ؛ وقد حيل دونهـــا
فما أنت فيما بين هاتين صـــانع

أمستوجب أجر الصـــبور فكاظم
على الوجد أم مبدى الضـــمير فجازع

---

(١) هاض ـ جعله مهيضا كسيرا ، وعى ســاق ـ انجبار كسر فى ساقه والمعنى : كلما مررت على ربع من ربوع قومها خفق قلبى وأصابه الضعف فكأنه ساق مكسور قد جبر ثم سقطت جبيرته .

(٢،٣) العران ـ الأرض الواســعة البعيدة ومثلها الشــواسع ، مقرون الوظيفين ـ جمل مقيد ، والوظيف من الدابة ـ هو مقدم الساق ، نازع ـ يحن الى وطنه وينزع نحوه .

فاذا سمع صوتها شعر بوخزة سهم حاد :

وأسمع منها نبـأة فكأنمـا
أصاب بها سهم طرير فـؤاديا (١)

وقلبه خائف مروع دائما :

تجيش الى النفس فى كل منزل
لمى ويرتاع الفـؤاد المشـوق

وحين يراهم يستعدون للرحيل يرتعد قلبه كقلب جان يخشى أن يعاقب :

كأن فؤادى قلب جـانى مخوفـة
على النفس اذ يكسون وشى النمارق

فاذا استقلت فى الحمول رجع الى نفسه التى كادت أن تخرج من صدره

رجعت الى نفسى ، وقـد كاد يرتقى
بحوبائها من بين أحشائها الصدر (٢)

كما أن ذكر الفراق الذى لا مفر منه يترك صدعا فى فـؤاده وفتورا فى مفاصله

وذكر البين يصـدع فى فؤادى
ويعقب فى مفاصـلى امذلالا (٣)

وهو يحس أن الحب الذى تغلغل فى قلبه ونفسه سيصرعـه ان لم يحمه الله من ذلك :

فودعن مشـتاقا أصـبن فؤاده
هواهن ان لم يصره الله قاتله (٤)

فلم يعد لقلبه من شغل سوى هذا الحب القاتل :

---

(١) سهم طرير ـ سهم مشحوذ حاد .

(٢) الحوباء ـ النفس .

(٣) امذلالا ـ فتورا واسترخاء .

(٤) لم يصره الله ـ يحفظه الله ويبقيه .

اذ القلب لا مستحدث غير وصلها
ولا شغله عن ذكر مية شاغله

لقد تمكن حبها بقلبه فاذا حاول أن يتخلص منه استعصى عليه ذلك :

لقــد علقت مى بقلبى علاقــة
بطيء على مر الشـهور انحلالهــا

فاذا خطرت بباله كانت خطرتها بلاء على قلبه ، وداء فى مفاصله

تراجع منى أسود القلب خطــرة
بلاء ، ويجرى فى العظام امذلالهــا

بل كادت أن تترك جرحا داميا فى قلبه :

اذا خطرت من ذكر ميــة خطــرة
على النفس كادت فى فؤادك تجـرح

واذا كانت القلوب تتقلب فى الحب فتمنحه لشخص ثم تمنحه لآخر بعد ذلك ، فقلب شاعرنا لا يمنح لسوى محبوبته :

تصرف أهــواء القلوب ولا أرى
نصيبك من قلبى لغيرك يمنح

لذلك فهو يعجب من صدره كيف لا ينقض ويتمزق ممـا يستعر فيه من وجد :

فلما تلاحقنـا ؛ ولا مثل ما بنـا
من الوجد لا تنقض منه الأضـالع

لقد كان قلبه قبل أن يتوزعه البين ملتئما كما كان مزارهـا قريبا مواتيا :

ليـــالى ، لا مى بعيد مزارها
ولا قلبه شتى الهوى متشـــيع (١)

والآن لقد بلغ منه اليأس مبلغه؛فيصرخ بهذه الأبيات اليائسة:

يا نفس لامى فموتى أو دعى
ما فى التلاقى أبدا من مطمع !!

واذا كانت هذه هى صورة قلبه الطعين الممزق الذى عصف به الحب ، فان آثار ذلك تظهر على وجهه الذى هو لوحة العرض أو بمثابة الشاشة التليفزيونية لنفسه :

عرفت لها داراً فأبصر صاحبى
صفيحـــة وجهى قد تغير حالهـــا

وتصيب جسمه بالأدواء ؛ فلقد كان صادقا ، ورائعا حين نقل الينا بعض ما يعانيه العاشق من أمراض الحب ·· التى تصيب قلبه كما تصيب سائر أعضائه ؛ فقد يغشى عليه حين يراها ، كما يصاب بمثل وخزات السهام :

وكنت أرى من وجـــه مية لمحـــة
فأبرق مغشـــيا على مكانيـــا (٢)
وأسمع منها نبـــأة ·· فكأنمـــا
أصـــاب بها سهم طرير فؤاديـــا

ويصاب بالأرق بينما ينام كل من حوله :

أرقت وقـد نام العيـــون لمـــزنة
تلألأ وهنا بعد هـدء وميضهـــا

---

(١) شتى الهوى ــ كثير الميول والرغبات ، متشيع ــ متفرق موزع ·

(٢) أبرق ــ اتحير ·

أرقت لها وحـــدى وقد نام صحبتى
بطيئا من الغور التهـــامى نهوضهـــا

وهى التى تميته وتحييه :

ليـــالى مى موتـــة ثم نشـــرة
لمـــا ألمحت من نظرة وكـــلام

ويكثر من الزفير :

فيا مى هل يجـــزى بكائى بمثله
مرارا وأنفاسى اليـــك الزوافـــر

كما يحس بالحرقة تنتشر فى جوانحه فكأنه أصيب بداء قاتل أو سل مميت :

عشـــية طالعت لتـــكون داء
جوى بين الجـــوانح أو سلالا

كما تكثر همومه :

هى الهم والأوســـان والنأى دونهـــا
واحراض مغيـار سئيم الخلائق (١)

ويشيع الأسى فى أقطار نفسه :

ففيم ؛ ولولا أنت لم أكثر الأسى
على من ورائى من فصيح وأعجمـــا

ويحس بعطش الحب فهو كالناقة المصابة بداء العطش لايبرئها الماء من صداها ولا يريحها الداء من شقائها :

فأصبحت كالهيماء ؛ لا الماء مبـــرىء
صداها ولا يقضى عليها هيامها

(١) الوسن ــ النوم والوسن الحاجة وهى هنا بمعنى الحاجة ، مغيار ــ غيور وهو زوجها ، سئيم ــ كريه الأخلاق .

وهل يدرك الخرس الذى يصيب المحب حين يشتد به الوجد فيشعر بمثل اليد التى تقبض على حلقومه فتخرسه وتخنق أنفاسه سوى من ابتلى بالحب ، وعانى مرارته وعذابه :

وأخذ الهوى فوق الحلاقيم مخرس
لنا أن نحيى أو نسلم مانع

ولوعة البين تصيب كبده بطعنة سنان فارسى . لا بل هى أشد وأوجع :

كأن سنانا فارسيا أصابنى
على كبدى بل لوعة البين أوجع

فالحب نار فى الليل تشب فى قلب العاشق ؛ فاذا خبت لا تلبث أن تشتعل مرة ثانية فتصيبه بما يشبه الرعدة :

وحبها لى سواد الليل مرتعدا
كأنها النار تخبو ثم تلتهب

وهو كثير الشكوى مما فى صدره من آلام الوجد ، وحرقة الحنين :

أصابتك مى يوم جرعاء مالك
بوالجة من غلة ، وكباد (١)

طويل تشكى الصدر اياهما به
على ما يرى من فرقة وبعاد

فالحب يصيبه بما يشبه الحمى :

نعم فأنت اليوم كالمعمود (٢)
من الهوى أو شبه المورود

---

(١) والجة ـ متغلغلة فى صدره ، كباد ـ مرض بالكبد ، غلة ـ حرارة كالعطش
(٢) المعمود ـ المريض ، المورود ـ المحموم .

وكثيرا ما يعجز عن وصف ما أهاجته فى نفسه من أشواق ؛ وما أثارته من جراح ، فيقول :

فلم يدر الا الله مـــا هيجت لنـــا
أهلة آناء الديار ، وشامهـــا (١)

ويظهر أن الشاعر الذى اصطلحت عليه أدواء الحب المختلفة كادت أن تلحقه بركب أصحابه من الشعراء المجانين والموسوسين الذين أحبهم فيما يبدو ؛ ورأى فيما وصلوا اليه من تعبير وجدانى صادق الغاية الفنية التى لا تتجاوزها غاية كما اتضح ذلك من حواره مع الوليد بن عبد الملك ، ففى قصائده الغزلية تتردد بكثرة كلمة الجنون وما في معناها :

فما كلمتنا دارها غـــير أنهـــا
ثنت هاجسات من خبال مراجع (٢)

ويقول :

تداويت من مى بهجران أهلهـــا
فلم يشف من ذكرى طويل خبالهـــا

والفؤاد يرتاع ، وتجيش النفس :

تجيش الى النفس فى كل منـــزل
لمى ، ويرتاع الفـــؤاد المشـــوق

وترتجف الأرض به كلما لمح دارا من ديارها :

أمن أجل دار « بالرمادة » قـــد مضى
لها زمن ظلت بك الأرض ترجف (٣)

---

(١) اناء ـ جمع نؤى ، شام ـ سواد من الدخان ٠

(٢) ثنت ـ أعادت ، خبال ـ جنون ٠

(٣) الرمادة ـ اسم موضع ٠

وهذا الهلع الذى يصيبه :

فما زال فى نفسى هلاع مراجع
من الشوق حتى كاد يبدو ضميرهـــا

وقد رأينا فيما سبق تمثل طيف محبوبته له كلما خلا بنفسه تمثلا يكاد أن يخرج به من عالم الأشباح والخيال الى عالم الحقيقـة حتى انه كثيرا ما يخاطبه ؛ ويسأله مستنكرا كيف اهتدى اليــه فى غربته ، بل طلب منه مرة أن يصحبه فى زيارة ممدوحه ابراهيم ابن هشام ..

وأنى اهتدت مى لصـــهب بقفــرة
وشعث بأجواز الفــلاة نيـــام (١)

ولم تستطع مى مهاواتنا السرى
ولا ليل عيس فى البرين سوام (٢)

فان كنت ابراهيـــم تنوين فالحقى
نـــزره والا فارجعى بســـلام

ثم ماذا يكون الاسراف فى حديث النفس ؛ واجراء حوار بينه وبينها ، فكأنها شخص آخر سواه يحاوره ويناقشه ؛ ويحاول أن يقنعه بالحجة والدليل :

اذا ذكرتك النفس ميـــا فقــل لها
أفيقى ، فهيهات الهوى من مزارك (٣)

وما ذكرك الشىء الذى ليس راجعـــا
به الوجد الا ضـــلة من ضـــلالك

---

(١) صهب ــ نوق لونها أسود ضارب الى الحمرة ، أجواز الفلاة ــ وسط الصحراء .

(٢) مهاواتنا السرى ــ مشاركتنا فى الاسراع فى السير ليلا ، عيس ــ ابل بيضاء ، البرين ــ حلق فى أنف الابل ، سوام ــ رافعات الرءوس .

(٣) فهيهات الهوى من مزارك ــ ما أبعد من تهوينه عن مزارك الآن .

ثم هذا الخوف والتوقع الدائم للفراق الذى ينغص عليه حتى ساعات استقراره :

وقد كنت أبكى ، والنوى مطمئنـــة
بنا وبكم من علم ما الله صـــانع (١)

وهذه الرغبة فى الهروب الى الأماكن المقفرة ليمكنـــه التغنى باسمها دون أن يخشى أحدا :

أحب المكان القفر من أجـــل أننى
به أتغنى باسمها غـير معجـــم

ثم هذا التمثل الغريب لشـــخصها ، كلما خلا بنفســه ، واجراؤه معها حوارا لا يمكن حدوثه الا بين شخصين ماثلين :

أقول لها فى السر بينى وبينهـــا
اذا كنت ممن عينه العين خاليا (٢)

تطيلين ليانى وأنت مليـــة
وأحسن يا ذات الوشاح التقاضيا (٣)

وانت غـريم لا أظـــن قضـــاءه
ولا العنزى القارظ الدهر جائيا (٤)

فكأنه مسحور بحبها ، بل مصاب بما هو أقوى من السحر :

رأيت لها ما لم تر العين مثـــله
لشىء فانى قد رأيت المرائيـــا (٥)

---

(١) النوى ـ نية السفر والرحيل .
(٢) العين ـ المراد بها هنا من يتجسس على ويستطلع أخبارى .
(٣) ليانى ـ مماطلتى ، ملية ـ غنية ، والمراد : تماطليننى وتخلفين وعودى رغم غناك ورغم حسن مطالبتى لك بدين اللقاء والوصال .
(٤) العنزى القارظ ـ رجل ذهب لجمع القرظ فلم يعد الى اليوم فيضرب به المثل فى عدم تحقيق الأمر .
المرائيا ـ مفردها مرأى أو مرآة وهو المنظر الحسن .

هی السـحر الا أن للسحر رقية
وانی لا ألقی لمـا بی راقيـا

ويصرح فی أكثر من موضع بأنه يحدث نفسه عنها حتى لكأنه يناجيها عن قرب ؛ فيشعر بشیء من الراحة والهدوء :

أحدث عنك النفس حتى كأننی
أناجيك عن قرب فينصاح بالها (١)

ولعل ذلك هو ما يطلق عليه علماء النفس « أحلام اليقظة » التی تكون بمثابة تعويض لفقدان شیء عزيز ولقد تردد على ألسـنة بعض معاصريه ما يفيد شعورهم بالحال التی وصل اليها ذو الرمة ، فقد قال جرير خرجت مع المهاجر بن عبد الله الى حجة فلقينا ذا الرمة فاستنشده المهاجر فأنشده :

ومن حاجتی لولا التنـائی وربمـا
منحت الهوى من ليس بالمتقارب

عطابيل بيـض من ربيعـة عامر
عذاب الثنايا ، مثقلات الحقائب (٢)

يقظن الحمى والرمل منهـن مربع
ويشربن ألبان الهجان النجائب (٣)

فالتفت الى المهاجر، وقال : أتراه مجنونا ؟ » هذا التساؤل من المهاجر .. أتراه مجنونا » ؟ ما مصدره ؟ .

مصدره لا شك تلك الغرابة فی التعبير ، وتركيب الجمـل

---

(١) ينصاح ـ يصفو ويستريح من همومه .

(٢) عطابيل ـ مفردها عطبول وهی الطويلة الجميلة ، رقاق الثنايا ـ فی ثغرها رقة وحسن ، مشرفات ـ مرتفعات ، الحقائب ، مفردها ـ حقيبة والمراد بها عجيزة المرأة .

(٣) يقظن الحمى ـ ينزلن الحمى فی القيظ ، الهجان النجائب ـ الابل الكريمة الأصيلة ، مربع ـ مقام

تركيبا لم يتعوده الشعراء من قبل ، وهذا الشعر الملتهب ؛ لذلك قال عنه الأصمعي : « ذو الرمة حجة لأنه بدوى ، وليس يشبه شعره شعر العرب ٠٠ ثم قال الا واحدة تشبه شعر العرب وهي التي يقول فيها : « والباب دون أبي غسان مسدود » ٠٠ ولا يعطى الشاعر امكانية تكوين الجملة تكوينا خاصا به ، واستعمال الكلمات في غير المألوف المعتاد استعمالها فيه الا عمق احساسه وانصهاره في تجربته التي يحاول أن يعبر عنها، واذا كنت قد أشرت الى أن ذا الرمة قد عاش تجربة حبه وتسلطت على كل حواسه ووجدانه تسلطا جنونيا مستبدا — فليس معنى ذلك أنه صار بالفعل مجنونا يهذى شأن سواه من مجانين الحب من الشعراء ؛ وانما الذى أراه هو أن ذاالرمة أشرف على أن يكون حاله حال هؤلاء المجانين ٠٠ وتلك الصور التى عرضنا بعضها فيما سبق شبيهة الى حد كبير بما كان يموج فى وجداناتهم ؛ الدموع التى تنفرط بغزارة ، وآلام الحب وأمراضه المختلفة ، وتلك الشكوى والحنين المتجدد ؛ وخيالها الذى يطارده ، ثم هذا الحب الذى يتجدد دائما مع الزمن ، ومحاولته الدائبة الاستشفاء من هذا الحب العارم تارة بهجرانها الذى يزيد حبه اشتعالا وتوقدا :

وبعض الهوى بالهجر يمحى فيمتحى
وحبك عندى يستجد ويربح

وتارة بالأسفار البعيدة وقطع المسافات المترامية :

اذا اللامعات البيض أعرضن دونها
تقارب لى من حب مى بعيدها (١)

تذكرت ميا بعد ما حال دونها
سهوب ترامى بالمراسيل بيدها (٢)

أو بالاستماع الى ما يقوله الوشاة وما ينقلونه له عنها من أخبار :

---

(١) اللامعات — الصحراوات التى تلمع فى ضوء الشمس ٠

(٢) سهوب — أرض مستوية ، المراسيل — الابل ٠

ألا ؛ لا أرى الهجران يشفى من الهوى
ولا واشـــيا عندى بمى يعيبهـــا

أو بهجران أهلها الذين يحرمون عليه أن يكلمها أو يدنـــو منها :

تداويت من مى بهجـران أهلهـــا
فلم يشف من ذكرى ، طويل خبالها

لقد قالوا ان الزمن كفيل بشفاء الصدور من الجوى ·
فما باله لم يشف ذا الرمة من آلام حبه المبرحة :

ولم ينسنى مياتراخي مزارهـــا
وصرف الليالى مرها وانفتالهـــا (١)

وحين يعتصره الحنين بأصابعه القاسية لا يجد دواء ســـوى أن يراها أو يكلمها :

تداويت من مى بتكليمـــة لهـــا
فمـــا زاد الا ضعف ما بى كلامهـــا

وقد يلجأ الى التداوى بالحب من الحب ؛ كما يتداوى السكران من الخمر بالخمر :

ومن حاجتى ــ لولا التنائى وربمـــا
منحت الهـوى من ليس بالمتقارب

ويقول :

ولم تنسـنى ميا نوى ذات غــربة
شطون ولا المستطرفات الأوانس (٢)

---

(١) انفتالها ــ ذهابها ومضيها ·

(٢) غربة ــ بفتح الغين البعيدة ومثلها الشطون أى البعيدة ، المستطرفات ــ اللواتى فى حبهن طرافة وجده ·

فاذا ما رحلت استفزه الشوق فحاول أن يتبعها براحلته أو ببصره الى أن يطويها الطريق :

ما زلت أتبع فى آثارهم بصرى
والشوق يقتاد من ذى الحاجة البصرا

يبـــدون للعين تارات ويســـترهم
ريع السراب اذا ماخالطوا الخمرا (١)

وقد يتداوى بزيارته لأطلالها الدارسة :

ولامى الا أن تـــزور بمشرف
أو الزرق من أطلالها دمنا قفرا (٢)

فاذا فشلت كل هذه الأدوية فى علاجه .. لجأ الى الدموع فهى الدواء الوحيد المسكن .

وهو يحار فى أمر حبه الذى لا ينفع فيه قرب أو بعد :

فـــلا القرب يدنى من هـــواهاملالة
ولا حبها ان تنزح الدار ينزح (٣)

وحين يضيق بأمره نسمع منه هذه الصرخات اليائسة :

واسوآتاه ، ويا ويلى ؛ ويا حـــربى
انى أخو الجسمفيه السقموالكرب (٤)

وفى النهاية وقد تعذرت عليه كل أسباب الشفاء لا يجد سوى الموت يتمناه ، ويلجأ اليه صديقا مخلصا :

---

(١) ريع السراب ـ اضطرابه وتحركه ، الخمرا ـ ماواراك من الشجر .
(٢) دمنا مفردها دمنة وهى المكان الذى اسود وبعرت وبالت فيه مواشيهم .
(٣) تنزح ـ تبعد .
(٤) واسوأتاه وياويلى وياحربى ـ الفاظ للندبة والتفجع ومعناها بالتوالى ياالحظى السيىء ، ويالهلاكى ، ويا لما سلب منى من مال أو سعادة ..

متى أبل ؟ أو ترفع بى النعش رفعة
على الراح احدى الخارمات الشواعب (١)

فلقد تأكد من أن هذا المرض لا شفاء منه ، وأين له الشفاء ودواؤه فى يد محبوبته الضنينة بالدواء :

هى السقم الذى لا برء منه
وبرء السقم لو رضخت نوالا (٢)

واذ كنا أطلنا السماع لشكواه ؛ وصرخاته فلننصت معه قليلا الى بعض ما تعلمه من تجربته فى الحب ، لقد عرف الكثير مما لا يتلقنه الناس من الكتب اذا لم يلقنه لهم كتاب الحياة .

لقد علمته تجربته كيف يرضى العاشق بالقليل فاذا كان جميل يقول :

وانا لنرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ؛ وبألا أستطيع ؛ وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله

فشاعرنا ذو الرمة يرضى من محبوبته بمجرد انصاتها لشكواه دون أن يكون منها بذل أو مشاركة :

وانا لنرضى حين نشكو بخلوة
اليهن حاجات النفوس بلا بذل

وتعلم الاستهانة بكل شىء حتى الموت اذا تيسر له اللقاء بمن يحب :

ألا ، لا أبالى الموت ان كان قبله
لقاء بمى ؛ وارتجاع من الوصل

---

(١) متى أبل البيت ومعناه : متى أهلك وتحملنى الأيدى على النعش بعد أن يخترمنى الموت لأستريح من هذا العذاب .

(٢) رضخت ـ منحت وأعطت .

وكيف تشرق الأرض ، ويقصر اليوم ؛ ويصبح مبـــاركا حين تقبل عليه محبوبته اقبال سحابة ضاحكة متهللة :

اذا غاب عنهن الغيـور ؛ وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك

تهللن ، واستأنســـن حتى كأنمـــا
تهلل أبكار الغمام الضـــواحك (١)

ويهوى الأرض لا تمتاز بشيء عن سواها غير أنها كانت يومـا منزلا لمحبوبته :

لقد كنت أهوى الأرض ما يستفزنى
لها الشـــوق الا أنهـــا من ديارك

بل قد ترتفع مكانتها فى عين العاشق الى أن تصبح شبيهـــة بالأماكن المقدسة :

أدور حواليـــك البيـــوت كأننى
اذا جئت عن اتيان بيتك محرم

وقد عمق الحب انسانيته ، فجعله صديقا لكل عاشق يلتقى به دون سابق معرفة :

أخـــو كـــل مشـــتاق يهيم فؤاده
اذا جعلت أعـــلام أرض تقابله (٢)

كما جعله يلخص لنا فى بعض أبياته ما وصل اليه من تجارب يمكن أن نطلق عليها « فلسفة الحب » من ذلك ادراكه أن الحب قد يبقى رغم تقادم العهد ؛ وزوال آثاره المحسوسة :

عفت ، وعهودهـــا متقادمـات
وقد يبقى لك العهـد القـــديم (٣)

---

(١) أبكار الغمام ـ الغمام المبكر الذى يقبل أوائل فصل الربيع .

(٢) أعلام أرض ـ جمع علم وهو الجبل .

(٣) عفت وعهودها متقادمات البيت ـ المعنى زالت تلك الديار لبعد العهد بها ، ولكن ذكراها باقية رغم قدمها .

وكيف يموت الانسان وينشر فى لحظات :

ليـــالى مى موتـــة ثم نشـــرة
لما ألمحت من نظـــرة وكـــلام

وكيف يهجر الانسان من يحبه مكرها رغم بقاء هذا الحب :

وقد عدتنى عـــاديات شـــجر
عنها وهجر « والحبيب يهجر » (١)

وكيف لا يسمع لما يقوله الوشاة الذين يلذ لهم التفريق بين قلوب المحبين :

تغيرت بعـــدى أم وشى الناس بيننـــا
بما لم أقله من مســـدى وملحم (٢)
ومن يك ذا وصل فيسمع بوصـــله
أحاديث هذا الناس يصرم ويصرم (٣)

كما عرف أن الجزع والشـــوق لا يعيدان الزمن الذى مضى وولى :

وما يرجع الوجد الزمان الذى مضى
ولا للفتى من دمنة الدار مجزع (٤)

وأرهف حسه فأدرك حنين الحيوان الأعجم حين ينفصـــل عن رفاقه :

فقد أورثتنى مى مثـــل الذى بـــه
هوى غربة دانى له القيد قاصر (٥)

---

(١) عدتنى عاديات أو عوادى - أى صرفتنى صوارف وشواغل .

(٢،٣) من مسدى وملحم ، السدى واللحمة خيوط داخلة فى نسيج الثوب بعضها فوق بعض والمراد : لم أقل شيئا مما قيل عنى ، يصرم - تقطع صلته بالناس .

(٤) ولا للفتى من دمنة الدار مجزع - أى لا ينفع الجزع حين الوقوف على الدمن وآثار الديار .

(٥) دانى له القيد قاصر - بعير قصر قيده .

وكيف أن الطيور يحن بعضها الى بعض مثل حنينه لمحبوبته :

هوى لك ما ينفك يدعوك مادعا
حماما بأجزاع العقيق حمـــام (١)

والأوقات قد تتفاضل ؛ وتتفاوت :

لميــة أذ لا نشترى بزماننـــا
زمانا ؛ واذ لا نصطفى من يغولها (٢)

واذ نحن أســباب المودة بيننـــا
دماج قواها ؛ لم يخنها وصولها (٣)

والهوى قد يصيب المتدين العاقل كما يصيب غيره فيستهدف لسهام اللائمين :

ألا ، لا أرى مثل الهوى داء مسلم
كريم ولا مثل الهوى ليـم صــاحبه

ويستوى عصيان الحب والانقياد له :

متى يعصه تبرح معاصـــاته بـــه
وان يتبع أسبابه ، فهو غالبـــه (٤)

وكيف أن الحب قد يأخـذ فى الازدياد الى أن يصل الى أقصى مداه :

فما زال يغلو حب مية عنـدنا
ويزداد حتى لم نجد من يزيدهـــا

---

(١) أجزاع العقيق ـ منعطف الوادى وكل واد عقيق ٠

(٢ ، ٣) من يغولها ـ من يتنكر لها أو يضمر لها الشر ، دماج ـ مندمجة ـ متماسكة لم ينقطع ما بينها من اتصال ٠

(٤) متى يعصه ـ الخ ـ معنى البيت : متى يعص الانسان الهوى فانه يشتد به ، وان اتبع أسبابه وأطاعه غلبه الحب وأنتصر عليه أيضا ٠

ويدرك من تجاربه أن الزمن لا يطمأن اليه ؛ فهو فى خوف دائم:

وأشـــفق من هجرانكم وتشـــفنى
مخافة وشك البين ، والشـــمل جامع

ومن تجاربه فى الحب عرف أن الشوق يقتاد البصر :

ما زلت أتبع فى آثارهم بصرى
والشوق يقتاد من ذى الحاجة البصرا

والنفس تحن الى حيث يكون من تحب :

هوى تذرف العينان منه وانمـــا
هوى كل نفس حيث كان حبيبهـــا

وعلمه الحب كيف يعيش فى دنيا من الأحلام والأمنيات :

غداة أمنى النفس أن تسـعف النوى
بمى ، وقد كادت من الوجد تزهـق

كما يهدهد أشواقه؛ويكفكف من آلامه بهذا الشعر الذى يصور فيه لواعج نفسه ، وأنات قلبه ألم يقل « ثيوكريتوس » لصـــديقه بيكياس : أى صديقى بيكياس ؛ ليس للحب دواء ، انه داء الأدواء لا يجدى فيه علاج لكن ربات الشعر وحدهن قادرات على ابراءالعاشق وشفائه ؛ فالشعر هو الدواء ، انه حلو ولكن أنى المنال ؟ ألم يكن الشعر بلسما شافيا لجراح بولوفيموس لما فتن فى ريعان شبابه بعروس البحر جالاتيا (١) » . نعم هو الحب الذى أذل من كبرياء هذا الأعرابى فجعله يتوسل لمحبوبته قائلا :

سلى الناس هل أرضى عدوك أو بغى
حبيبك عندى حاجة لا ينالهـــا

والحب هو الذى رقق مشاعره ، وهذب وجدانه ؛ فرقت كلماته

---

(١) شعر الرعاة ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجه .

وعذبت أنغامه واكتست تلك الحلاوة التى أغرت بانشادها المغنين. هذه بعض ملامح « الحب العذرى » وملامح الحب عند ذى الرمة كما استخلصناها من أشعار المحبين التى هى أصدق فى الدلالة على حبهم من كل وصف .. وقد رأينا ذا الرمة « يشارك سائر هؤلاء الشعراء فى هذه الملامح بل لا نبالغ اذا قلنا ان عددا ضئيلا من شعراء الحب هو الذى يسمو الى ما يمتاز به ذو الرمة من حرارة الوجدان والصدق فى التعبير ؛ حقا ان تجاربه التى تصور هذا الحب قليلة مكرورة فهى لا تتجاوز الارتحال . والحنين والشوق ، ولوم العزال والشكوى من الصد ؛ والغيرة من الزوج . ولعل مصدر ذلك هو أن « مية » ربما لم تكن تبادله نفس الحب ؛ ولم تعطه من قلبها ما أعطته « ليلى » للمجنون أو بثينة « لجميل » ؛ ولم يعش معها كما عاش قيس مع لبنى .. لكن الذى لا شك فيه أن ذا الرمة قد اكتوى بلهيب هذا الحب ؛ وتعذب به ، والذى زاد فى عذابه أنه استمر معه رغم مجاوزته الثلاثين ؛ وهى السن التى يتجاوز فيها الانسان طيش الشباب ، ونزقه .

كما أنه كان متدينا ؛ متمسكا بالأخلاق ؛ كما كان صاحب زوجة وأولاد .. وان كان الحب الجسور قد يحطم كل حاجز مهما كان منيعا ؛ وقصص العلماء ورجال الدين كالقس وسلامة ، والذين صرفهم الحب عن العلم أو الدين الى الوله ؛ والوجد والشعر والأنين ـ تزخر بالكثير منها كتب الأدب .

فاذن ذو الرمة شاعر عذرى ، وان لم يكن من بنى عذرة لصدق هذا المقياس عليه فالحب ليس وقفا على قبيلة دون قبيلة ، وان كانت ظروف الحياة قد تتيح لبعض القبائل من الفراغ أو التحضر مايسمح بذيوع هذا الحب وانتشاره بين عدد كبير من شبابها .. ولا يغض مما قلناه أن شاعرنا ذا الرمة لم يصنع قصائد مستقلة فى الغزل وانما جاء غزله فى مقدمات القصائد كما كان متبعا فى العصرالجاهلى .. فذو الرمة قد آثر هذا النهج ؛ ربما لينال تقدير واعجاب النقاد ، والرواة ؛ واللغويين خاصة أنه كان على اتصال مستمر بالبصرة ؛ والكوفة مقر هؤلاء العلماء ؛ كما كان ذا طموح لأن ينال الحظوة لدى الخلفاء والحكام وبخاصة أنه كان فقيرا وفى حاجة

الى العطايا ولم يكن كجميل أو عمر بن أبى ربيعة فكلاهما ينتمى الى قوم سادة أغنياء حموهما من السعى ، وطلب المال ، ولذى الرمة بيت مؤداه أن الفقر لم يكن مزريا له عند محبوبته .

وما الفقر أزرى عندهن بوصلنا
ولكن جرت أخلاقهن على البخل (١)

ولقد آخذه عليه النقاد المتحجرون لأنه خالف ما دأب الشعراء على ترديده من أن النساء لا يحببن الا كل صبوح الوجه ؛ كثير المال؛ عظيم الجاه . يضاف الى ذلك أن ذا الرمة كان ينافس كبار الشعراء كالفرزدق ؛ وجرير ؛ والراعى النميرى فى مكانتهم ويرى نفسه ليس أقل من هؤلاء ؛ لذلك كان كثيرا ما يتساءل : لماذا هو دون هؤلاء ؟ كما سأل الفرزدق فأجابه بأن الذى غض من شأنه هو وصفه للدمن ؛ وأبعار الظباء وكثرة البكاء ، وهؤلاء الشعراء الكبار لا ينظمون شعرهم الا على النهج الموروث التقليدى فكان لابد له من مجاراتهم فى ذلك ليتم له التقدم ، والمجاراة ؛ ونكاد لا نجد ناقدا أو لغويا قديما حاول أن يجعل شاعرا كجميل أو المجنون فى طبقة الفرزدق والأخطل وجرير ؛ لا لسبب الا لأن شعراء الحب قد نهجوا نهجا جديدا لم يعتد عليه النقاد كما لم ينوعوا فى الأغراض تنويع الشعراء الآخرين .

بقي لنا تساؤل أخير نحب أن نجيب عليه هو : هل كان ذو الرمة يحب أكثر من واحدة فبالرغم من أنه أكثر من ذكر محبوبته «مية بنت منذر بن قيس بن عاصم المنقرى» نجده كذلك يتحدث عن « صيداء » وعن « خرقاء » فمن هما ؟ وهل هما محبوبتان آخريان ؟ أم مجرد صفتين لمية ؟ أراد بهما أن يثير غيرتها ؟ أو يدفع الظنون عنها » .

فلندع « صيداء » الآن اذ أن أحدا من رواة الأدب لم يشر الى حبه لواحدة اسمها صيداء ، ولنتناول بالحديث حبه لخرقاء ؛ التى

---

(١) معنى البيت : ان فقرنا لم يزر بنا عندهن ، ولكن بخلهن بالوصال خلق وعادة فيهن .

اضطرب الرواة فى حبه لها وقد لخص لنا صاحب الأغانى طرفا من هذا الاختلاف اذ قال : «واختلفت الرواة فى حبه لخرقاء ، فقيل انه كان يهواها ، وقيل بل كاد بها مية ، وقيل بل كانت كحالة فداوت عينه فشبب بها ؛ وقال فيها نحو قصيدتين أو ثلاث ثم مات ؛ والذى قال انها كحالة هارون بن عتبة ، قال شبب ذو الرمة بخرقاء بغير هوى وانما كانت كحالة فداوت عينه من رمد كان بها فزال : فقال لها ما تحبين ، فقالت عشرة أبيات تشبب بى فيها ليرغب الناس فى اذا سمعوا أن فى بقية للتشبيب ففعل ، وقال ابن سلام : شبب ذو الرمة بخرقاء احدى نساء بنى عامر بن ربيعة ؛ وكانت تحل فلجا ، ويمر بها الحاج ؛ فتقعد لهم وتحادثهم ؛ وتهاديهم ؛ وكانت تجلس معها فاطمة بنت لها ولم تكن فاطمة مثلها وكانت تقول : أنا منسك من مناسك الحج لقول ذى الرمة :

تمـــام الحج أن تقف المطـــايا
على خـــرقاء ، واضعـــة اللثـــام

وأرسلت الى العجيف العقيلى ليشبب بها فقال :

لقد أرسلت خرقاء نحوى جريها (١)
لتجعلنى خرقاء فيمن أضـــلت

وخرقـــاء لا تزداد الا ملاحـــة
ولو عمرت تعمـــير نوح ؛ وجلت

لكن فى رواية حبيب بن نصر قال : نزل ركب بأبى خرقاء العامرية فأمر لهم بلبن فسقوه وقصر عن شاب منهم فأعطتـــه خرقاء صبوحها ؛ وهى لا تعرفه فشربه ومضوا فركبوا فقال لهـــا أبوها : أتعرفين الرجل الذى سقيته صبوحك قالت : لا ، والله قال ؛ هو ذو الرمة القائل فيك الأقاويل ، فوضعت يدها على رأسها وقالت : واسوآتاه ، وابؤساه ، ودخلت بيتها ، فما رآها أبوها ثلاثا ؛ والضبى يؤكد الرواية السابقة التى قالت فيها : انهـــا

(١) جريها ــ رسولها .

منسك من مناسك الحج ، وعن مصعب بن الزبير : أنه شبب بها ولها ثمانون سنة ، وعن محمد بن يعقوب عن أبيه قال رأيت خرقاء بالبصرة ، وقد ذهبت أسنانها ، وان فى ديباجة وجهها لبقية فقلت: اخبريني عن السبب بينك وبين ذى الرمة فقالت : اجتاز بنا فى ركب ونحن عدة جوار على بعض المياه فقال : أسفرن فسفرن غيرى ؛ فقال ان لم تسفرى لأفضحنك ؛ فسفرت ، فلم يزل يقول حتى أزبد ثم لم أره بعد ذلك ، وقال أبو الشبل المعدى : كانت خرقاء البكائية أصبح من القبس ، وبقيت بقاء طويلا حتى نسب بها العجيف العقيلى ؛ وعن صباح بن الهذيل أنه مر فى طريقه الى الحج بالمنزل الذى تنزله خرقاء ، فاذا امرأة جزلة عندها سماطان من الأعراب تحدثهم ؛ وتناشدهم فسلمت فردت ، ونسبتنى فانتسبت لها ؛ ثم قالت لى ما اسمك ، قلت صباح ، قالت وأبو من ؟ قلت المغلس ، قالت أخذت أول الليل وآخره ، قال فما كان لى همة الا الذهاب عنها .

ويصفها محمد بن الحجاج التميمى : بأنها عالمة بالأنساب كانت وهى قاعدة كأنها قائمة من طولها بيضاء شهلاء فخمة الوجه ثم يذكر حديثا طويلا معها ؛ وفى رواية جحظة عن رجل من بنى النجار أنه التقى بها أيضا هى وابنتها . » ويؤكد ابن قتيبة تشبيبه بخرقاء فيقول : وكان يشبب أيضا بخرقاء ؛ وهى من بنى البكاء بن عامر ابن صعصعة وسبب تشبيبه بها ، أنه مر فى سفره ببعض البوادى ، فاذا خرقاء خارجة من خباء لها فنظر اليها ، فوقعت فى قلبه فخرق اداوته ، ودنا منها يستطعم كلامها ، فقال : انى رجل على ظهر سفر ، وقد تخرقت اداوتى فأصلحيها لى فقالت ، والله انى ما أحسن العمل ؛ وانى لخرقاء ، والخرقاء التى لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على أهلها . فشبب بها ، وسماها خرقاء ؛ وقال المفضل الضبى كنت أنزل على بعض الاعراب اذا حججت فقال لى يوما : هل لى أن أريك خرقاء صاحبة ذى الرمة ، فقلت ان فعلت فقد بررتنى ؛ فتوجهنا جميعا نريدها فعدل بى عن الطريق بقدر ميل ثم أتينا أبيات شعر فاستفتح بيتا ففتح له : وخرجت علينا امرأة طويلة حسانة ، بها فوه ؛ فسلمت وجلست فتحادثنا ساعة ثم قالت لى : هل حججت قط قلت غير مرة ؛ قالت فما منعك من

زيارتى ، أما علمت أنى منسك من مناسك الحج ، قلت وكيف ذاك قالت أما سمعت قول عمك ذى الرمة :

تمـــام الحج أن تقف المطـــايا
على خرقاء واضـــعة اللثـــام

ولكن البغدادى لا يكتفى بأن يتشكك فى حب ذى الرمة لخرقاء وانما يرى أن خرقاء هى مية ففى (١) الجزء الثالث من خزانة الادب يقول : اشتهر ذو الرمة بحب خرقاء وهى مية ؛ ومما يؤثر عنـــه أنه يخاطب نفسه فى قصيدة طويلة كلها غزل ونسيب فيقول :

اذا قلت ودع وصل خرقاء ؛ واجتنب
زيارتها تخلق حبـــال الوســـائل

فمن أين لصاحب الخزانة هذا الرأى ؟ يبدو أنه استخلصه مما جاء فى كتاب الأغانى (٢) من أن ذا الرمة لقب لقبته به مية ، وكان اجتاز بخبائها وهى جالسةالى جنبأمها فاستسقاها ماء ، فقالت: قومى فاسقه ، وقيل بل خرقاداوته لما رآها ، وقال لها اخرزى لى هذه فقالت : والله ما أحسن ذلك فانى لخرقـــاء ؛ قال والخرقاء التى لا تعمل بيدها لكرامتها على قومها فقال لأمها : مريهــــا أن تسقينى ماء ، فقالت لها قومى يا خرقاء فاسقه ماء ، فقامت فأتته بماء وكانت على كتفه رمة ، وهى قطعة من حبـــل فقالت اشرب ياذا الرمة .. فلقب بذلك ، وهذه القصة نفسها قد سبق أن ساقها ابن قتيبة عن خرقاء لا عن مية ، والذى فعله أبو الفرج الأصفهانى لم يكن سوى بعض الاضطراب والخطأ نتيجة لجمعه كل الآراء التى قيلت حول هذا الحب .. واذا لجأنا الى شعر ذى الرمة ـ كمـــا هى عادتنا ـ نجده يعضد ، الرأى الأول القائل أن مية غير خرقاء ؛ « فمية » من بنى منقر ؛ وخرقاء من بنى البكاء بن عامر بن صعصعة .. يقول فى احدى قصائده ربما شبه معتذر لمى :

---

(١) الاغانى ج ١٦ ص ١٠٦ .

(٢) خزانة الادب ج ٣ .

ومن حاجتى ؛ لولا التنائى ، وربما
منحت الهوى من ليس بالمتقارب

عطابيل بيض من ذؤابة عامر
رقاق الثنايا ؛ مشرفات الحقائب

واذا كان العطف يقتضى المغايرة كما يقول النحاة ؛ فهما اثنتان لا واحدة اذ نجده يعطف خرقاء على مية فى صدد حديثه عن رفيق سفره :

جعلت له من ذكر مى تعلة
وخرقاء ،فوق الواسجات الهواطل

ويقول فى قصيدة أخرى يمدح بها عبيد الله بن معمر التميمى :

أخرقاء للبين استقلت حمولها
نعم غربة فالعين يجرى مسيلها

كأن لم يرعك الدهر بالبين قبلها
لمى ؛ ولم تشهد فراقا يزيلها

واذا لم نستطع أن نتبين ملامح كل منهما من خلال صوره المتشابهة ، فان بيتا كهذا ربما يؤكد لنا ما قلناه من أن خرقاء غير مية ؛ فخرقاء السيدة ذات المال والجاه والتى تعترض طريق الحاج وتستنشد الشعراء بل تحاول أن تغريهم بالتشبيب ، كما صرح بذلك الشاعر العجيف العقيلى فى قوله :

لقد أرسلت خرقاء نحوى جريها
لتجعلنى خرقاء فيمن أضنت

خرقاء المرأة العارفة بأسباب الاثارة والفتنة فهى التى تدهن مارن آنفها بالمسك ، والتى تضع النقاب على وجهها لتزيد فى الاغراء لا « مية » الفتاة الحدثة السن التى ليست لها خبرة بمثل ذلك ؛

والشاعر يرسم لنا هذه الصورة فيقول بعد أن يصف ظبية تشبهها :

تلك التى أشبهت خرقاء جلوتها
يوم النقا بهجة منها وتطهيم (١)

تثنى النقاب على عرنين أرنبة
شماء ، مارنها بالمسك مرثوم (٢)

فالجلوة ؛ ووضع النقاب على الأنف المدهون بالمسك .. لايصدر الا عن «خرقاء» التى وصفها لنا الرواة ، ومن الواضح لنا من أقوال الرواة ، ومن شعر الشاعر أن حبه « لمية » هو الحب الاول الذى نفذ الى قلبه ؛ وهز بنيان نفسه ، بل ولد مع ميلاد شاعريته حين كان لا ينظم من القصائد الا الأراجيز ، ولقد اتفق الرواة على أن أول قصيدة له فى مية هى أرجوزته التى يستهلها بقوله :

هل تعرف المنزل بالوحيد
قفرا محاه أبد الأبيد

وقد ظل مسيطرا عليه مدى عشرين عاما .. كما صرح هو بذلك حين حضرته الوفاة بأنه أحب مية عشرين سنة فى غير ريبة ولا فساد . . » ومن شعره نستطيع أن نجزم بأن أخرى، ولو كانت خرقاء ، التى حدثنا عن حبه لها الرواة ـ لم تقاسمها هذا القلب الذى امتلأ بها ، ولم يعد يقبل الزيادة فى الحب :

فما زال يغلو حب مية عندنا
ويزداد حتى لم نجد ما يزيدها

بل نكاد نجزم بانه لم يكن فى استطاعته التغزل فى سواها دون استحضار طيفها المحبوب أمامه ؛ وأن قصائده فى غيرها لم تكن سوى قصائد يترجم بها عن حبه لمى مع تبديل فى الاسم ؛ بل كثيرا

---

(١) النقا ـ مكان ، تطهيم ـ حسن وتمام خلق .

(٢) عرنين ـ مقدم الأنف ، شماء ـ مرتفعة فى شموخ وسمو ، المارن ـ مالان من الأنف ، مرثوم ـ مدهون .

ما ينسى « خرقاء » أو «صيداء» ليأخذ فى الحديث عن «مى» وسنسوق بعض الأمثلة التى تعضد هذه الظاهرة ففى هذه القصـــــيدة التى يستهلها بقوله :

أ ان ترسمت من خرقـــــاء منـــزلة
كالوحى فى مصحف قد مح منشور (١)

ينسى أنه يتحدث عن خرقاء فينتقل عنها الى مى مبـــــــاشرة فيقول :

منازل الحى اذ حبل الصـــفا علق
من آل مى جديد غـــير مبتـــور

وفى القصيدة التى أشرنا اليها سابقاً ، والتى أولها « أخرقاء للبين استقلت حمولها» يخلط أيضا بين مى ، وخرقاء ــ اذ أنه بعد أن يقول : « يزيد التنائى وصل خرقاء جدة ٠٠ » يخـــــاطب رفيقيه بقوله :

ألما بمى قبل أن تطـــرح النـــوى
بنا مطرحا أو قبل بين يزيلهـــا (٢)

ثم يقول فى قصيدة أخرى :

هيهـــات خرقـــاء الا أن يقربهـــا
ذو العرش والشعشعانات الهراجيب (٣)

ثم يقول بعد أبيات منها :

كم دون مية من خـــرق ومن علم
كأنه لامع عـــريان مســـلوب (٤)

---

(١) ترسمت ـ تتبعت ، الوحى ـ الكتاب ، مح ـ محى وزال .

(٢) بين ـ فراق .

(٣) الشعشعانات ـ الابل الطوال ، والهراجيب ـ الطوال .

(٤) خرق ـ فلاة ، علم ـ جبل ، لامع ـ يشير بثوبه أو يشير بيده ، مسلوب ـ سلب ماله .

ولم يفرد لخرقاء سوى قصيدة واحدة تمكن فيها أن ينتصر على نفسه فينسى ـ مؤقتا ـ أن يذكر اسم مى ، وهذا يؤكد لنا أنه لم يكن جادا فى حبه لغير مى ، وانما فعل ذلك ربما ليثير غيرتها، وليوهمها ـ شأن العشاق من الشعراء أنه مرغوب فيه من النساء ألم يفتعل جميل قصة طويلة حول فتاة عرضت عليه وصلها ؛ وألحت فى ذلك ، ولكنه رفض وفاء لبثينة التى لم تدع فى قلبه ولو قدر قلامة ظفر فارغا لم تشغله ، وقد سبقهما الى ذلك امرؤ القيس الذى صرف بحبه ، كما يقول مرضعا عن طفلها ذى التمائم الذى لم يتجاوز الحول من عمره ، ولقد أسرف الى حد النرجسية فى هذا رفيقهما فى الشعر وفى العصر عمر بن أبى ربيعة ـ فما الذى يمنع أن يفعل ذو الرمة ذلك .. والشاعر العربى كثيرا ما يكنى عن محبوبته . أو يخترع لها لقبا ليصرف الناس عنها .. ألم يقل ذو الرمة هذا :

وانى لأنحى الطرف عن نحو غيرها
حياء ولو طاوعته لم يعادل (١)

والمجنون يكنى عن ليلاه تارة بأم مالك فيقول :

الا انما غادرت يا أم مالك
صدى أينما تذهب به الريح أذهب

وتارة أخرى بأم بكر :

لقد شغفتنى أم بكر وبغضت
الى نساء ، مالهن ذنوب

وحينا بأم حسان :

أمستقبلى نفح الصبا ثم شائقى
ببرد ثنايا أم حسان شائق (٢)

ويصرح جميل بما يفعله الشعراء تصريحا يزيل كل شك فيقول :

---

(١) أنحى ـ أميل الطرف .

(٢) نفح ـ هبوب ، الصبا بفتح الصاد ـ ريح شرقية رقيقة باردة .

سأمنح طرفى حين ألقاك غيركم
لكيما يروا أن الهوى حيث أنظر

وأكنى بأسماء سواك وأتقى
زيارتكم والحب لا يتغير

وليس معنى ذلك أن خرقاء اسم خيالى أو لقب لمية ، وانما هو اسم حقيقى استطاع الشاعر أن يختبىء خلفه ؛ وربما صاحبة هذا الاسم كانت تعرف أن اسمها لا يعدو أن يكون واجهة « لمية » يخفيها عن أعين الرقباء .. وكذلك فعل بالأسماء والصفات الأخرى كأم سالم ، وصيداء ؛ والذى يعزز هذا أيضا أن أسماء الأماكن هى بعينها الأماكن التى تذكره كلما مر بها بمحبوبته مى .. وأعتقد أنه لا داعى للاطالة بذكر هذه الأماكن لتأكيد أنها هى بعينها لم تتغير .

ونحن لا ننكر على الشاعر الذى يحمل قلبا كالفراشة المولعة بالزهر — أن يحب أكثر من واحدة فى أوقات متباعدة ؛ وان كنا ننكر أن يجمع فى قلبه بين حبين أو ثلاثة كما كان يفعل عمر ابن أبى ربيعة .. فمثل هذا لا يمكن أن نسميه حبا بالمعنى العذرى .. وعلى كل فالذى يلوح لنا من معايشة ديوان الشاعر أن الحب الذى صحب رحلة حياته القصيرة ، والذى دام معه طيلة عشرين عاما ، هو حبه لمية ابنة المنقرى .. وهو الحب الذى جعل منه عاشقا وشاعرا رقيقا تصنع فى شعره الألحان الماخورية التى يتغنى بها المغنون .

الباب الثالث

الطبيعة فى شعر ذى الرمة

الطبيعة فى شعر ذى الرمة :

ننتقل بعد هذا الحديث الى شعر الطبيعة عند ذى الرمة بعد أن نعرض عرضا سريعا مركزا لشعر الطبيعة عند أستاذه عبيد بن حصن الراعى النميرى ؛ فلقد كان ذو الرمة تلميذا للراعى وراوية أشعاره كما يقول ابن سلام الجمحى متخطين الحديث عن شعر الطبيعة فى صدر الاسلام ، لأن الحروب ، والغزوات قد شغلت الناس الى حد ما - عن الشعر المتوارث ؛ وسارت بهم فى دروب أخرى جديدة كوصف المعارك الحربية ، وان كان لبعضهم شعر فى الطبيعة لا يقل روعة عن الشعر الجاهلى ، من ذلك هذه القصيدة التى يصف فيها أعرابى البحر الرهيب الذى لم يكن رأى أهواله من قبل ؛ وذلك حين أغزاه بلال بن أبى بردة من ناحية صور (١) ويندم على تلبيته الدعوة للجهاد ، عازفا عن العطاء الذى ينتظر المجاهدين بعد أن رأى من البحر وأهواله ما لم يره من قبل .. يقول فى هذه القصيدة :

---

(١) تجارب شعرية للمؤلف .

أقول ، وقد ولى السفين ملججا
وقد بعدت بعد التقرب صور (١)

وقد عصفت ريح ، وللموج هدة
وللبحر من تحت السفين هدير (٢)

فلله رأى قادنى .. لسفينة
وأخضر موار السراب ؛ يمور (٣)

ترى متنه سهلا اذا الريح أقلعت
وان عصفت ؛ فالسهل منه وعور

لئن وقعت رجلاى فى الأرض مرة
وكان لأصحاب السفين كرور (٤)

ليعترضن اسمى لدى العرض حلقه
وذلك ان كان الاياب يسير

لقد مزج فيها الشاعر بين احساسه بالخوف والفزع ، وندمه على المشاركة فى هذا الجهاد، وبين صور البحر المفزعة ، مختارا منها كل ما يعبر عن احساسه ، والصدق فى تصويره ، وهذا هو شعر الطبيعة الذى تتوفر له عناصر النجاح ، والذى يخلع فيه الشاعر على الطبيعة من احساساته ، كما ينتقى منها الجزئيات التى تلون الصور التى هى صدى لوجدانه .

فاذا تركنا ذلك الى شعر الطبيعة عند الراعى النميرى الذى اخترناه من بين معاصريه لاشتهاره بوصف الابل حتى لقب بالراعى النميرى ولأستاذيته لشاعرنا الذى ندرس حياته وفنونه الشعرية فاننا نجده قد اتبع فى الغالب سبيل من سبقه فوصف الكثير من مظاهر الطبيعة ، وان لم يكن قد احتشد لها احتشاد ذو الرمة لاهتمامه بشعر الهجاء ، والمشاركة السياسية ؛ وذلك لزعامته لقومه التى دعته الى الدفاع عنهم بلسانه ؛ وسيفه بالرغم من ذلك ،

(١) ملججا ـ ماخرا فى لجج الماء .
(٢) هدة ـ دوى .
(٣) يمور ـ يضطرب .
(٤) كرور ـ رجوع .

وبالرغم من قلة ما وصلنا من شعره نرى أنه قد وصف الناقة وصفا يتناول كل جزئياتها يصفها فى سرعتها ويشبهها بما سوف يشبهها به ذو الرمة فيما بعد بـ (قراقير فى آذى « دجلة » تسبح) ويصف رجلها بالخفة والسرعة كرجل الحمار الوحشى ، كما يصف خفهـا بالسعة والمراوحة فيقول :

ورجــل كرجل الأجدرى يشيلها
وظيف على خف النعــامة أروح

ويصف خديها بأنهما « كالمصحفين خطهما واضح أزهر » وأذنيها بأنهما دقيقتان منتصـبتان حين تنظر ، وأعضاءهـا المتماسكة المحكمة بالقناطر ، مقلدا طرفة الذى شـبهها « بقنطرة الرومى » .. كما يصف حتى زمامها ، فهو :

أصــفر مجدول من القــد ، مارن
يلاث بعينيها فيلوى ويطلق (١)

ويصفها بالطاعة وصفا جعل بعض الأعراب حين سمع ذا الرمة ينشد قصيدته التى يقول فيها :

تصغى اذا شدهــا بالكور جانحة
حتى اذا ما استوى فى غرزها تثب(٢)

يصيح قائلا : هلا قلت ما قاله عمك الراعى .. وحين يسأله ذو الرمة ماذا قال ؟ ينشده هذا البيت :

ولا تعجـل المــرء قبل البروك
وهى بركبتــه أبصر (٣)

كما يصفها بالهدوء وقت حلابها وبالسرعة عند رحيلها فيقول:

نعوس اذا درت ، جـروز اذا غدت
بويزل عــام أو ســديس كبازل

---

(١) اعتمدنا فى الحديث عن الراعى على ما أورده الدكتور محمد نبيه من شعر للراعى فى بحثه الجامعى عنه .

(٢) القد ـ الجلد ، يلاث ـ يلف .

(٣) استوى ـ استقر ، الغرز ـ حبل توضع فيه الرجل عند الركوب .

ويصف رائحة عرقها وصف محب عاشق ؛ فهى تأكل العشب والأزهار الطيبة وينضح ذلك عرقا ذا رائحة طيبة على جسدها ٠

وكما وصف الناقة ، وصف الثور الوحشى ، ولقد أخطأ الدكتور نبيه حجاب فى قوله : شبه عينيه المتوقدتين بعينى الظبى البراقتين فى قوله :

يقلب عينى جؤذر بخميلة
كساها قصى الخلفة المتروح

فالجؤذر هو ولد البقرة الوحشية وليس الظبى كما توهم ، ووصف الفرس ؛ والذئب والحيات ؛ كما وصف الصائد وقد أعد كلابه ، وسهامه المريشة ، ووصف من الطبيعة الصامتة الصحراء وما فيها من همهمات كهمهمات الجن والبوم ووصف الليل وظلمته والسحاب ، والريح التى تسوقه ؛ والبرق الذى يلمع فيه ووصف الأثافى وهى تحيط بالرماد احاطة الحواضن ؛ وكأن بقايا هذا الرماد « بقايا هناء فى قلائص مجرب » ٠

كما وصف ما فى الصحراء من أزهار عاطرة كالخزامى التى شبهها بالمسك فى قوله :

أتتنا خزامى ذات نشر ، وحنوة
وراح وخطار من المسك ينفح (١)

هذا هو الراعى النميرى الذى سلك طريق الاقدمين فى الاهتمام بوصف الطبيعة الحية ، والصامتة ، والذى اهتم بصفة خاصة بوصف الابل التى اشتهر بها ، والذى لا شك أنه أوحى بعمله هذا الى ذى الرمة أن يسلك الدرب نفسه وينوع فيه ، بل يقف عليه، وعلى الحب موهبته الشعرية ؛ ولقد قال لمن اتهمه بسلوك الدرب الذى سلكه الراعى قبله « أما والله لئن قيل ذلك ؛ فما مثلى ومثله الا شاب صحب شيخا فسلك به طرقا ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعابا وأودية لم يسلكها الشيخ قط (٢) ٠٠ » ٠

---

(١) خزامى ــ أزهار طيبة الرائحة ومثلها حنوة ، راح ــ نسمات باردة منعشة٠

(٢) الأغانى جـ ١٦ ٠

فماذا صنع ذو الرمة أو ما هي الشعاب والأودية التي سلكها بعد ذلك ! لقد كان ذو الرمة من الشعراء المحافظين ، وهم جرير والفرزدق والاخطل ثم ذو الرمة ، ففي الوقت الذي برز فيه شعراء غزليون لا يتغنون بسوى الحب كجميل بن معمر والمجنون ؛ وقيس ابن ذريح وعمر بن أبي ربيعة والعرجي أو شعراء مدحوا وتغزلوا كالأحوص ، ونصيب ، وشعراء استأثرت بهم السياسة كالكميت وشعراء الخوارج نجد ذا الرمة لا تشغله السياسة ، كما لا يشغله المدح والهجاء فهو مقل في هذين الغرضين ، كما لم يجعل قصائده غزلا كلها ، وان كان في مطالعه الغزلية أقرب الى شعراء الغزل العذرى ، من شعراء الغزل التقليدى الذى تفتتح به القصائد ـ بل نجده يحافظ على نمط القصيدة الجاهلية ، وبحق ماقاله أبو عمرو « من أنه ختم الشعر بذى الرمة ، والرجز برؤبة .. »

« فلقد كان ذو الرمة آخر من ذهب مذهب البدو في القصيدة .. » كما يقول بروكلمان .

١ ـ الوقوف على الأطلال :

فهو يبدأ قصائده جميعا بالوقوف على الأطلال باكيا عليها «كما بكى ابن خذام» مستفيدا من كل التراث الشعرى الذى سبقه منذ امرىء القيس الى الراعى النميرى أستاذه ومعاصره ، لذلك نجده بالرغم من سلوكه هذا الدرب المألوف من الوقوف على الاطلال ينوع في وصفها محاولا في كل قصيدة أن يقول شيئا جديدا ، ولو مجرد التغيير اللفظى ، فهو مثلا : يشبه رسوم الديار ، بالكتابة البالية التى أوشكت أن تمحى ، وقد وصفها لبيد بذلك في قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنهـــا
زبر تجـــد متونها أقلامهـــا (١)

فينوع ذو الرمة في التعبير عن هذه الصورة الموروثة ، فيقول

(١) زبر ـ كتب ، تجد ـ تجدد ، متونها ـ جمع متن وهو الظهر من الشيء .
والمعنى : أن السيول قد ازالت ما على الطلول من غبار فانكشفت فكأنها أقلام أعادت تجديد مازال وانمحى من سطور بعض الكتب .

حينا ان الأطلال تلوح ككتب منشورة «كما تنشر بعد الطية الكتب» وحينا آخر هى ككتابة ممحوة فى كتاب منشــور « كالوحى ، فى مصحف قد مح ، منشور » أو كأن هذه الآثار كتاب زبور فىمهاريق معجم (١) » أو « كان قرا جرعائها (٢) رجعت به ، يهودية الأقلام وحي الرسائل» ، أو أخال نواحيها كتابا معجما « وأنوف الطير أقلام تخط وتعجم (٣) » •

كأن أنوف الطـــير فى عرصـــاتها
خراطيم أقـــلام تخط وتعجـم

ويفعل مثل ذلك حين يحاول أن يرسم صورة لتلك الحشائش التى نمت فى ديار محبوبته فيشـــبه ذلك بثوب منقوش ، وهذا التشبيه من الصور المألوفة المتوارثة ، فيأخذ فىعرض هذه الصورة فى أثواب جديدة من التعبير تبهر القـــارىء أو السامع ، بل ربما توهمه الجدة والتغيير ؛ فيعرضها مرة فى هذه الصورة :

كأن رســـومه بسطت عليهـــــــا
ثياب الوشى أو لبس النمـــارا (٤)

وحينـــا

كأنهـــــا بعد أحوال مضين لهـــا
بالأشيمين يمــــان فيه تسهيم (٥)

« أو كنقوش فى ثوب مخملى من الثياب الغالية » على ظهر جرعاء الكثيب « كأنها سنية رقم فى سراة قرام (٦) أو مثل الثوب الحميرى المخطط •

---

(١) مهاريق ــ المفرد مهرق وهو الصحيفة •

(٢) قراجرعائها ــ ظهر رمالها •

(٣) الاعجام ــ وضع النقط على حروف الكلمات •

(٤) النمار ــ نوع من الثياب •

(٥) بالأشيمين ــ جبلين اسمهما كذلك ، يمان ــ ثياب يمانية ، تسهيم ــ صور سهام وألوان •

(٦) القرام ــ الثوب ذو الخمل يستتر به •

ماذا يهيج الشوق من رسم دمنة
عفت غير مثل الحميرى المسهم

لقد وفق فى أن يعرض علينا الصورة الواحدة فى أزياء من اللفظ أو العبارة مختلفة وان لم يكن الا مجرد خطوط أو لمسات صغيرة يضيفها فى كل مرة لهذه الصورة فتعطيها نكهة جديدة ، وحين يعجزه اضافة شيء جديد يأتى بأنواع مختلفة للشيء الواحد كالثوب فمرة يجعله يمانيا وأخرى يجعله حميريا .. وللشاعر عذره فى ذلك ، فثقافة عصره الضيقة المحدودة وخبراته بالحياة التى لا تتعدى هذه الارض من بلاده التى تتشابه بقاعها ، كل ذلك جعله يحجل فى معانى القدماء التى تناولوها جميعا بهذه الصورة ؛ وان اختلفت صور التعبير عنها .

ولا شك أن اهتمامه بفنه هو الذى جعله يسهر باحثا عن ثوب جديد يبرز فيه معانيه التى عرضها من قبل فى ثياب أخرى مغايرة .. ولقد منحها الشاعر من قدرته التصويرية وموهبته فى اختيار الالفاظ ذات الجرس الخاص – حلاوة وروعة جعلتنا ننسى معها أن هذا المعنى قد تردد على آذاننا أكثر من مرة ، وفى تناوله لوصف الاطلال يعتمد على التعبير بالجزئيات الصغيرة ، التى باجتماعها تتكون لوحة تلتقى فيها كل ملامح الموصوف ، فحين يعبر عن زوال الديار ، لا يعبر عن ذلك تعبيرا مجردا ، وانما ليخاطب حواسنا يعرض علينا صور ما تبقى من آثار هذه الديار :

يبدو لعينيك منها وهى مزمنة
نؤى ؛ ومستوقد بال ؛ ومحتطب (١)
الى لوائح من أطلال أحوية
كأنها خلل موشية قشب

ثم هو بما أوتى من قدرة على الملاحظة الدقيقة ، يعرض عليك ألوانا من هذه الأشياء الباقية أو التى خلفت أحبابه ؛ وكثيرا ما يقف ليحيى هذه الآثار :

---

(١) سبق شرحهما .

قفـــا نحيي العرصـــات الهمدا
والنؤى ، والرميم ، والمستواقدا (٢)
والسفع فى آياتهن الخلدا ...

وهو فى كل قصيدة يعرض علينا صورا لبعض الآثار تغـــاير ما ذكره فى قصائده الأخرى أو يضيف اليها شيئا جديدا ليمنحها نكهة الجدة ، والمغايرة .. فاذا كان فى البيتين السابقين أضاف شيئا جديدا هو الحبل الرميم والأثافى ، فهو فى هذين البيتين يضيف الحبل الذى تشد به الخيمة ويعرض الأثافى فى صورة جديدة هى أن الأمطار قد هطلت عليها حتى أصبحت كنوق منعطفات على بو .

ولم يبق منها غير أرى خيمة
ومستوقد بين الخصاصات هامد (١)
ضريب بأرواق الســـوارى كأنه
قرا البو تغشـــاه ثلاث صـــعائد (٢)

وفى قصيدة أخـــرى يذكر هـــذه الأشياء : ؛ قطـــع الأعنـــة ؛ والأثافى ؛ ووتد فقد الحبل الذى يربط به .

بـــه قطـــع الأعنــــة ، والأثافى
وأشـــعث خاذل فقـــد الاصـــارا (٣)

كما يذكر فى موطن آخر ملاعب الأطفال ، هذا هو كل ما تبقى للشاعر من الآثار التى تعيده الى ذكريات الماضى بأفراحه ، وأتراحه،

---

(٢) الهمدا ـ التى لاحياة فيها ولاحركة لذهاب أهلها ، النؤى ـ حفرة حول الخيمة تحميها من الأمطار ، الرميم ـ كل شىء قديم بال من حبال وغيرها ، السفع ـ الأثافى وهى الحجارة التى يطبخون عليها ويوقدون النار التى غيرتها ، آيات ـ علامات .

(١) آرى خيمة ـ الحبال التى تشد بها الخيمة ، الخصاصات ـ الشقوق والفراغات ، هامد ـ ساكن .

(٢) ضريب ـ مضروب ، أرواح السوارى ـ أوائل المطر السارى ليلا ، قرا البو ـ ظهر البو ، والبو جلد يحشى تبنا ويوقف لتتوهم الناقة أن ولدها حى والمعنى : أن الأثافى كالبو تحيط به ثلاث نوق صعائد .

(٣) سبق شرحه .

وكثيرا ما يمزج بين هذه الأوصاف لآثار الديار ؛ وبين أشواقه ؛ بل كثيرا ما تكتسى هذه الصور مسحة من الحزن ، لأنها تذكره بأن كل شيء الى فناء :

أودى بها الدهر قدما ، واستحال بها
بكل داج مسف الودق مبحور (١)

أضحت ، وكل جديد صائر عجلا
يوما الى قلة منه ، وتغيير

والدهر لا يبقى شيئا على حاله :

فاستبدلت والدهر ذو استبدال
من ساكنيها فرق الآجال فرائدا تحنو على أطفال (٢)

والبين قطاع ذوى الأوصال
وغير الأيام والليالى

وهو لا يكتفى بذكر آثار الديار ؛ وانما يتناول بالوصف تلك الحيوانات التى ترتع فيها وهو لا يذكر الا الحيوانات التى تمتاز بجمالها كالبقر الوحشى المشهور بجمال عينيه ، وكذلك الظباء ، والنعام كأنه يضن بديار من يحب أن تقيم بها الذئاب ؛ أو الثعالب أو غيرها من الوحوش المخيفة المفترسة ، بل يكاد لا يذكر تلك الحيوانات الجميلة دون أن يذكر معها أولادها ؛ والمحبون دائما يمتازون بانسانيتهم وقوة عاطفتهم ، وروحهم الودود التى تسكن الى كل جميل أو برىء ٠

لقد رحل الحى وهاهى الثيران تطوف فى الربع كملوك من الفرس يطوفون بمعابدهم :

تمشى به الثيران كل عشية
كما اعتاد بيت المرزبان مرازبه

كما تخور فيها أولاد الظباء ، وتنتشر الجآذر :

(١) أودى بها ـ أهلكها ، استحال بها ـ غيرها وأزالها ، داج ـ سحاب مظلم، مسف ـ قريب من الأرض ، الودق ـ المطر ، مبحور ـ شارب من ماء البحر ٠

(٢) الآجال ـ قطعان البقر الوحشى ، فرائد ـ منفردات ، البين ـ الفراق ٠

بهـــا كل خوار الى كل صلعة
ضهول، ورفض المذرعات القراهب(١)

وتراب هذا الربع مسك مسحوق ، لما ينبعث فيه من روائح الأزهار بعد أن يرشها الندى :

كـأن سـحيق المسـك ريا ترابه
اذا هضـبته بالطـلال هواضبـه

وهو يدعو دائما للربع بأن يتردى بألوان من النوار ؛ وتمطره السماء •

ترديت مـن ألوان نـور كـأنه
زرابى ، وانهلت عليـك الرواعد

وبالرغم من أن هذا الربع قد هاج أشواقه ، وأشجانه ؛ فانه لا يرغب فى أن يقتصر هذا الرى والخصب عليه ؛ وانمـا يمتـد فيشمل كل مكان تحل به مى ••

٢ ـ الصيف :

كان من الممكن أن أتحدث عن وصفه للطبيعة الصـامتة معددا مظاهرها ؛ متحدثا عن كل مظهر على حدة ثم أتناول بالحديث وصفه للطبيعة الحية سالكا فيها نفس المسلك ، ولكننى آثرت أن أنهج فى البحث النهج الذى سلكه الشاعر نفسه فى أغلب قصائده ؛ فهو يقف على الأطلال أولا ، وأثناء حديثه عنها يتعرض لسبب ارتحالهم ، وهو ما أصاب الربع من جـدب وجفاف ؛ وهو فى هـذا يعرض علينا صورة صادقة ـ فيما أعتقد ـ لقسوة الحياة فى البادية ، وبخاصة فى أشهر الصيف ؛ حقا ان حديثه عن قسوة الصيف نجده موزعا بين حديثه عن قسوة السفر فى البادية ، وبين الحديث عن أسباب الارتحال ، ومن هذين المصدرين يمكن أن تجمع خيوط اللوحة التى رسمها الشاعر للصيف •

---

(١) خوار ـ ولد الظبية ، الصلعة ـ الظبية ، ضهول ـ قليلة اللبن ـ المذرعات ـ البقرة الوحشى ، والذرع ـ الجؤذر ، رفض ـ فرق ، القراهب ـ المسنات أو الأجسام •

ومن قصيدته التى مطلعها :

الا أيهـــا الربع الذى غير البـــلى
كأنك لم يعهـــد بك الحى عاهـد

نقف على أن أهل محبوبته (خرقاء) أقاموا فى موطنهم بوهبين الى أن تعذر الحصول على الماء ، والمرعى ، وأخذ السفا يجول جول الحباب ومع ارتفاع نجم الثريا قصر اليوم من غداته ، وعشيه ، ويبس نبات القلقلان ، وأخرج ما فيه من ثمر حين هبت عليه الرياح الحواصد « وقد فقس كل بيض طائر المكاكى وقد اكتست الأرض الصلبة بملاء من السراب ، والظباء فى هذا الحر تبحث الثرى تحت جنوبها لتبترد ، كما تلجأ الى الاحتماء من وهج الصيف بالغصون المائلة أو بجوانب الشـــجر كما يبـــدو عليهـــا الذهول ؛ والبدوى الذى يحب البـــادية ويكره الريف بل يحتقره كأثر من آثار عادات المجتمعات العبودية ، حيث يحتقر فيها الناس العمل اليدوى لأنه من شأن العبيد ، كمـــا أن البـــدوى يعتقد أن الوباء ينتشر فى القرى فهو دائما يتجنبها كما يتجنب المدن أيضا فى هذا الحر يتشهى لو يغادر البادية الى الحضر حتى الابل أسقط الحر عن أكتافها الوبر ، كما جعلها تنزف عرقا أســـود فى أوله ، أصفر اذا مرت عليه ليـــال ، والحصـــا يكاد أن يتصـــدع من الحر :

وهاجـــرة شـــهباء ذات وديقـــة
يكاد الحصا من حميها يتصدع (١)

ومن وهج الصيف يلجأ الطائر الى عش سواه ، بل تستظل الفريسة مع مفترسها فى ملجأ واحد « تجاوزن ، والعصـــفور فى الجحر لاجىء مع الضبب ، والشقذان (الحبارى) تسمو صدورها » والحرباء قد جعل يبيض لونه ، ويخضر من لفح الهجير غباغبه » كما تركض الجنادب الحصـــا برجليها أو بأجنحتهـــا من شـــدة الحـــر .

هذه هى بعض ملامح الصيف التى تلجىء القوم الى الارتحال

---

(١) وديقة ـ شدة الحر ، شهباء ـ قاسية شديدة والشهبة لون أبيض ضارب الى السواد ، الهاجرة ـ وقت الظهر عند اشتداد الحر .

الى حيث توجد بعض أعداد المياه يتلمسون فيها الرى ، كما يلتمسون المرعى ..

تيمم ناوى آل خرقاء منهلا
له كوكب فى صرة القيظ بارد (١)
لقى بين أجماد ؛ وجرعاء نازعت
حبالا بهن الجازئات الأوابد

٣ - التغزل فى المحبوبة :

حين يتغزل ذو الرمة أو سواه من شعراء العربية فى عصورها الأولى، فانه يلجأ الى رسم العديد من الصور الحسية غالبا لمحبوبته، وهذه الصور مستمدة من الطبيعة بنوعيها وقد عرضنا الكثير من هذه الصور حين تحدثنا عن محاسن مى ؛ وحاولنا أن نتعرف على ملامحها أو قسمات الجمال كما يراها العربى ، فرأيناه يشبه جسمها فى ليونته بالغصن من شجر البان :

وذو غدر فوق الذنوبين مسبل
على البان يطوى بالمدارى ويسرح

كما ان ذراعيها لينان ممتلئان ناعمان كشجر العشر المرتوى بالماء ، وكفلها ككثيب من الرمل لبدته الأمطار ، كما تشبه الظبية فى جيدها ؛ ومقلتها وعطفيها :

هى الشبه أعطافا ، وجيدا، ومقلة
ومية أبهى بعد منها وأملح

وهى :

تجلو بفرع من أراك كأنه
من العنبر الوردى بالمسك يصبح

أسنانها البيضاء النقية التى تشبه :

ذرى أقحوان راحه الليل وارتقى
اليه الندى من رامة — المتروح (٢)

---

(١) سبق شرحهما .

(٢) أقحوان — زهر أبيض طيب الرائحة ، الندى المتروح — الهابة عليه الرياحة الباردة .

تحف بترب الـروض من كل جانب
نسيم كفأر المســك حين تفتح (١)

وصف الابل :

وكما ورث ذو الرمة عن الأقدمين وصف الأطـلال ؛ فأفاض عليه من شخصيته كذلك ورث عنهم وصف الابل وقد رأينا طرفة يصف الناقة وامرؤ القيس رغم اشتهاره بوصف الخيل له قصائد رائعة يصف فيها ناقته ، كما تأثر ذو الرمة فى ذلك « بالراعى النميرى » الذى عرف عنه ذلك ، ولقب « بالراعى » من أجله ؛ ولقد كان ذو الرمة يحفظ شعره ؛ بل يحتج به مدافعا عن نفسه حين تحتوشه ألسنة النقاد ، فحين عابوا عليه قوله :

والقـرط فى حـرة الذفرى معلقـة
تباعد الحبل منها ، فهو مضطرب (٢)

وقالوا له : جعلت لها ذفرى كذفرى البعير ــ احتج بشـعر الراعى فى قوله « وذفرى أسيلة » قال أبو عبيدة فغضب العدويون، وقالوا : كيف يحتج بشعر راعى الابل ، وهو أشعر منه ، قال منتجع ابن نبهان « انه كان يروى أشعاره ؛ ويجعله اماما » لقـد سـلك ذو الرمة نفس الطريق الجاهلى فى الوصف ، فكان يتبع أجزاء ناقته بعد أن يحسن التخلص من الغزل ، فيقول مثلا :

زار الخيـال لمى هاجعـا لعبت
به التنـائف ، والمهـرية النجب (٣)

---

(١) فأر المسك ــ وعاء المسك .

(٢) الذفرى ــ صفحة عنق الدابة .

(٣) هاجعا ــ نائما ، التنائف ــ جمع تنوفة وهى الصحراء ، المهرية ــ ابل منسوبة الى مهرة ، النجب ــ النجيبة الكريمة ، معرسا ــ نائما فى أخريات الليل، منجذب ــ أى منجذب الى المسير ، والمعنى : زار خيال مى نائما لعبت به الصحراوات الواسعة والابل النجيبة ينام فى أخريات الليل قرب الصباح ، أما سائر الليل فهو يقظ مرتحل . ــ

معرسا فى بياض الصبح وقعته
وسائر الليل الا ذاك منجذب

ثم يواصل الحديث عن نفسه ؛ وعن ناقته ؛ فهى تشكو الخشاش الذى فى أنفها كما تشكو من السيور المضفورة حول حقويها؛ وهى تئن أنين المريض لعواده ، لكنها قوية ، تحث الابل من حولها وتزجر ؛ أما هى فتنسلب من جوارها وتنسل مسرعة ولا يخشى راكبها السقوط رغم احديداب ظهرها من قطع الفيافى ، فكأن راكبها على ريح جنوبية شديدة الهبوب ، وهى ذكية مطيعة :

تصغى اذا شدها فى الكور جانحة
حتى اذا استوى فى غرزها تثب (١)

وثب الحمار الوحشى المعضض من حلائله ، ولسرعتها تكاد تنسل من الحزام لمجرد أن ترى راكبها يرفع يده الى عمامته . وهى طويلة الجسم ، ضامرة البطن من الترجاف كهلال بدا من خلال السحاب ، ألواح ظهرها كحجارة متلاصقة ، أذنها تدل على عتقها من انتصاب وتنبه وقلة فى الشعر ، ملتصقة السنام من الاجهاد ، ذات خد ناعم كمرآة الغريبة أسجح « تدفع بأرجلها الحصا فيتطاير من خلفها ؛ وأرجلها كظل الذئب خفة وانطلاقا ، وعيناها عينا ثور أسود القرنين ؛ يسيل منها اللغام ، فكأنما ضربت قدام أعينها ، قطن لمستحصد الأوتار محلوج ، تلقى بأجنتها أثناء السفر من الاجهاد التى يشبه كل منها « دعموص الفراشة مغرق » وما أروع تشبيهه رأسها الضخم بقبر المرء من آل تبع :

ورأس كقبر المرء من آل تبع
غلاظ أعاليه ، سهول أسافله (٢)

وكما يصف الناقة المفردة ، قد يصف الابل مجتمعة لأنهم

(١) الكور ـ الرحل ، جانحة ـ مائلة ، الغرز ـ حبل توضع فيه القدم عند الركوب .

(٢) آل تبع ـ ملوك التبابعة وكانوا باليمن قبل الاسلام ، سهول أسافله ـ خده طويل ناعم .

عادة يسافرون جماعات خوفا من مخاطر الطريق وهو لا يكتفى بوصف أعضاء الناقة أو الجمل عضوا عضوا بل يصف حتى الزمام وقد ترك أثره على الأرض فكأنه ملاعب حيات ذكور « وصريف أنيابها كصياح البكرات التى يسقى بها ، ويكثر من ذكر كلمات الزجر للابل كهيد ؛ هيد أو « أيا » .

اذ قال حادينا آيا . عسجت بنا

صهابية الأعراف ، عوج السوالف(١)

ويبدو أنه كان يطيل التفرس ، والملاحظة ، لمثل هذه الأمور الدقيقة ، التى قد يعبر بها الانسان العادى دون أن يوليها أى اهتمام ، فهو يلاحظ السفاحين يشوك أيديها ؛ فيعبر عنه بهذه الصورة الدقيقة :

وشاكت به أيدى الجمال ، كأنما

يعض به أعلى فراسنها النمل

بل يلاحظ ظل أخفاف الناقة وهو يجرى بازائها فيقول :

لألقاك ؛ قد أدأبت ، والقوم كلما

جرت حذو أخفاف المطايا ظلالها

والرحل عليها كعش طائر على نخلة سامقة . ومن دراستنا لشعره نعرف أن له ناقة اسمها صيدح « فقلت لصيدح انتجعى بلالا » كما أن له ناقة أخرى اسمها « أطلال » وثالثة اسمها « عجلى » .

أقول لعجلى بين يم وداحس

أجدى فقد أقوت عليك الأمالس (٢)

---

(١) أيا ـ صوت لزجر الناقة ، عسجت ـ مدت عنقها فى السير ، الأعراف ـ شعر الأعناق ، السوالف ـ الأعناق أى مائلات الأعناق فى السير .

(٢) يم وداحس ـ مكانان أو اسمان لناقتين ، الامالس ـ الأرض الملساء الصلبة ، أقوت ـ أقفرت .

وهو يضمر الكثير من الحب لناقته ؛ بل كما سنتبين فيما بعد يكن الحب لسائر حيوانات الصحراء الجميلة كالحمار الوحشى والثور والظبى والنعامة ؛ وطيورها كالمكاكى والقطا · فلا غرابة أن يخاطبها دائما مخاطبة الصديق ؛ الرفيق ، بل نكاد نتصوره وهو يقطع الصحراء وقد نام رفاقه يحدث ناقته بكل ما فى نفسه من حب وشوق ، وما يشكو منه من آلام ؛ ولو أن بلال بن أبى بردة شعر بما يضمره الشاعر لناقته من ود وحب ، لما عابه حين أنشده قصيدته التى يمدحه بها والتى يقول فيها :

« فقلت لصيدح انتجعى بلالا » فصاح بلال يا غلام ، اعطه حبل قت لصيدح فأخجله ، ويظهر أن الشاعر المرهف الحس لم يستطع الدفاع عن نفسه ، فقال له أبو عمرو بن العلاء هلا قلت له « ان هذا مثل قوله تعالى « واسأل القرية » أى أهل القرية ؛ ولكن هل يدرى بلال أو سواه ممن استبد بهم غرور السلطان بهذه الاحساسات الشاعرة التى يتجاوب فيها الانسان الشاعر مع الحيوان ، ألم يقل المتنبى بعد ذلك ·

خلقت ألوفا ؛ لو رجعت الى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

حقا لقد كان ذو الرمة محبا بل عاشقا متيما بالصحراء ، وما فيها من حيوانات ألفها وأحبها من طول ما مر بها كما أحب وألف ناقته التى تشاركه همومه ومسراته ، ذلك هو احساس العربى نحو وسيلة حله وترحاله ألم يقل لنا ذو الرمة : ان الاماء يكسون الجمل ثياب الوشى ؛ ويعتنين به عند العزم على السفر :

أطافت به أنف النهار ، ونشرت
عليه التهاويل القيان التلائد (١)

ومن المعتاد عند العرب أن تركب الفتاة الجمل لقوته ؛ ولتوفير الراحة لها ، فى حين يرتحل الرجل على أى نوع من الابل جمالا أو

---

(١) أنف النهار ــ أوله ، التهاويل ــ الألوان ، القيان التلائد ــ الاماء المولدات

اينقا ، وحين يستقر بهم المطاف تقبل الاماء على هذه الابل بالمسح لازالة ما علق بها من شوك أو غبار «كما يمسح الركن الاكف العوابد» وهذا أكبر دليل على حب العرب للابل واعزازهم لها لذلك جعلوا لها انسابا تنتسب اليها ؛ وذو الرمة ينسب ابله التى تشاركه الرحلة تارة الى « الجديل » وهو فحل مشهور أو الى « العصافير » التى قيل انهـا كانت ابلا وحشـية واستؤنست وأول من ملـكها النعمـان ابن المنذر :

نجائب من آل الجديل ، وشـارکت
عليهن فى انسابهن العصـافر (١)

أو حميرية النسب : « تمر برحلى بكرة حميرية » أو تنتسب الى الفحل « داعر » أو الفحل « الجديل » السابق :

« أبوهن الجديل وداعر » ــ والمسافرون لايأنفون من أن يتخذوا من سواعد الابل وسائد لهم ، كما يشبه حنينه الى مى بحنين الناقة الى رفاقها من الابل :

تحـن الى مى كمـاحن نـازع
دعاه الهـوى ، فارتاد من قيده قصرا

وهو يصفها بالذكاء ، والفطنة ؛ كما يخلع عليها صفات العذارى من الخوف والحياء والطاعة حين يدعوها الفحل :

دعاهن فاسـتسـمعن من أين رزه
بدر كمـا ارتج الغمام الرواجس (٢)

فيقبلن اربابا ويعـرضن رهبـة
صدود العذارى ، واجهتهـا المجالس

---

(١) العصافر ــ ابل كانت متوحشة ثم استؤنست للنعمان بن المنذر فيما يقال.

(٢) رزه ــ صوته ، الرواجس ــ ارتجس الرعد تردد صوته .

وفى البيت الأخير عبر عن احساس مركب لدى النـوق هو الاقبال مرغمات ؛ والاعراض خائفات ، كل ذلك فى لحظة واحدة ؛ ولحبه للناقة ، وخطواتهـا فى الطريق يشبهها بترشـاف الظمآن للمـاء :

لأخفافهـا باللـيـل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع(١)

ويشبه الفتاة الجميلة بالبكرة البيضاء :

كأنهـا بـكرة أدمـاء ، زينهـا
عتق النجـار وعيش غير تزليج (٢)

وتميل الى من تحب بعنقها ـ كناقة شـد عنانها ـ ليرتشـف الصديان من ريقها المثلوج ارتشاف الابل من أحواض المياه ٠

تسقى ٠٠ اذا عجن من أجيادهن لنـا
عوج الأعنـة أعنـاق العناجيج (٣)

صوادى الهام والأحشـاء خافقة
تناول الهيم ارشاف الصاريج (٤)

والصورة الشعرية هنا من النوع المتداخل الذى هو من خصائص ذى الرمة التى انفرد بها فى صياغته ٠٠ وقد يشبه شـعره بهدر الابل ؛ فيقول مخاطبا هشاما المرئى وقومه امرأ القيس :

أحين ملأت الأرض هـدرا وأطرقت
مخافة ضـغنى جنهـا وأسودهـا

---

(١) السوابع ـ مرت عليها سبعة أيام دون أن تشرب ٠

(٢) أدماء ـ بيضاء ، عتق النجار ـ كرم الأصل ، تزليج ـ قليل ٠

(٣،٤) أعناق العناجيج ـ العناجيج هى جياد الخيل والابل ، صوادى ـ عطشى، الهيم ـ العطاش أى يميل عنقها الى من يقبلها كما يميل العنـان عنق الناقة وترتشف ارتشاف الابل الظمأى لمياه الصهاريج ٠

كما يجعل للأرض سناما فيقول : « منعنا سنام الأرض بالخيل والقنـــا » .

ويحزنه أن يسمع أنين ناقته من الجهد والأعياء :

أنين الفتى المســـلول أبصر حـوله
على جهـــد حال من ثناياه عودا (١)

ولعلنا في نهاية هذا العرض لحديثه عن الناقة ، لا نعفيه من اللوم على افراطه الزائد وحرصه الشديد على ألا يدع شيئا له مساس بالناقة دون أن يصفه ، ولقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يدافع عنه فى صنيعه هذا معلقا على وصفه لأبوال الابل « بأن هذا وصف مصور ، والشيء الحقير قد يكون جليلا فى عين المصور . وقد انتقد جرير والفرزدق ذا الرمة على وصفه أبوال الابل وأبعارها ، وهذا يذكرنا بما حدث للمصور الهولندى الحيوانى « بول بوتير » فقد رسم صورة بديعة تمثل أبقارا فى الخلاء وفيهـــا بقرة تبول فكل من رأى الصورة شاهد البقرة وهى تبول فعرفت الصورة بالبقرة التى تبول وحين عرضت على الأميرة التى عملت خصيصا لهـــا رفضتها لذلك فاشتراها أحد الهواة وهى اليوم فى أكبر متحف فى العاصمة الروسية (٢) » والفن ـ فى رأينا ـ ذوق وانتقاء وليس في ما يرى يمكن أن يكون فنا ، وكون هذه اللوحة فى أكبر متحف فى العاصمة الروســية لا يمنحها صــفة الروائع الفنيــة الخــالدة ، ولذى الرمة صورة عن الناقة وهى تبول فتقطع رغبتها فى السير أبوالها ، فهنا أعطى هــذا الجزء للصــورة ملمحا خاصــا عاون فى ابرازها ؛ أما تصويره البول لذاته أو كالصورة الشنيعة التى يصور فيها لغام الناقة ، وقد اختلط بالدم يسيل على أنفها ومشفريها ؛ فمما لا يرضى عنه الذوق ، بل تثير الاشمئزاز .

الحمار الوحشى :

بعد أن يفرغ من وصف الناقة كما رأينا يرغب فى وصف الحمار الوحشى ؛ فيحسن التخلص اليه بقوله :

(١) ثناياه ـ من استثناه من خاصته .

(٢) الشوامخ ذو الرمة ص ٣١ للدكتور محمد صبرى .

.... حتى اذا استوى فى غرزها تثب

وثب المسـحج من عـانات معقـلة

كأنه مستبان الشـك أو جنب (١)

ويستمر فى وصف ملامحه ؛ فهو يعدو معترضا مائلا لنشاطه كأن به ظلعا خفيفا أو يشكو مرضا بجنبه ؛ يحدو أتنا أشباها قوية، رمادية اللون مع خضرة تضرب الى السواد يتنقل بهـا من مرعى الى مرعى ثائرا ، صاخبا ، فاذا داهمه الصيف بحره اللافح فجف الماء والرطب ، وصوحت البقل ريح نكباء تهب من ناحية اليمن ، وذهب ما فى بطون الحمر من ماء وغذاء ؛ وشم شـجر القصباء انتصبت حوله الحمر الطويلة الضامرة تراقبه وكأنها تنتظر أوامره للشروع فى الارتحال ، ومع الغروب وعند اصفرار قرص الشمس اشتدت به الرغبة فى الانطلاق بحثا عن المراعى ومنابع المياه .. فانطلق يحدو حلائله . وكلما تنكبت الطريق منها واحـدة بدا عليه الهم والحزن ، وصاح عليها بصوت حزين ، وهو يعلو بالأتن النجاد كأنه يريد الاضرار بها ، وكلما أرفضت جماعتها أسرع ليجمعها ، ويضم بعضها الى بعض عاضا أكفالها ، ولسرعتها تشبه ابلا مسرعة يريد أن ينجو بها صاحبها من قوم أغاروا عليه . وكل ما يقصده هذا الحمار هو عين « اثال » لا يرغب فى عين سواها من عيون الماء .

لقد وصلت الأتن فى الغلس عند انصداع عمود الصبح الى تلك العين المطحلبة الطامية التى تصطخب فيها الضفادع والحيتان ، ويستل منها جدول كالسيف المنصلت يجرى بين صغار النخل الذى ارتفع جريده (عسيبه) وقرب هذه العين كمن صـائد من قبيلة « جلان » المشهورة بالاكتساب بالصيد ، ثيابه ممزقة ؛ رثة ، أختبأ فلا يتبين شخصه ، أعد سهامه المريشة حتى اذا هبطت الحمر الى

---

(١) مستبان ـ ظاهر واضح ، الشك ـ الظلع (عرج خفيف) ، جنب ـ مريض الجنب ـ المسحج ـ المعضض ، عانات ـ جمع عانة وهى القطيع من الحمر الوحشية .

منهل الماء ، وتغيبت رابهـا الأمر فأمالت أعناقها ورفعت آذانهـا متسمعة ، ولكن خرير الماء العذب استمالها وجذبها اليه (يلاحظ أن الاحساس مركب) فأقبلت على الماء ؛ وقد اضطربت أكبادهـا الناشرة من العطش ، حتى اذا وصلت جرع الماء القليلة الى غليلها الملتهب لم ترو ه ارواء كاملا .

رمى ، فأخطـا ، والأقـدار غالبة
فانصعن ، والويل هجيراه والحـرب

فهربت الأتن بعد أن تركته يندب حظه العاثر ؛ يطأن الصخر بحوافرهن « وطأ تكادله المعزاء تلتهب » وهن فى سرعتهن يشبهن خوافى صقر جائع أخذ فى مطاردة خرب ضعيف .

وهو فى موضع آخر يصف التفاف الأتن حول الثور وتفاليها ؛ وهو واقف فى مكان عال كربيئة لقوم عليهم ذحول كثيرة .

فظلت تفـالى حـول جـأب كـأنه
ربيئـة أثآر عظـام ذحولها (١)

والحمار الوحشى فى ليونة جسمه « كأنه عصا قس قوس ـ لينها واعتدالها » ويصف صوت الثور أثنـاء جريه السريع « كأنه نحيب الثكالى تارة ، واعتوالها» كما يذكر فى موضع آخر ذنبها بأنه قليل الشعر ؛ تطرد به الذباب ، كما ان الأتن المخططة تحوم حول الماء وتبصبص بأذنابها .

البقر الوحشى :

اعتاد هو ؛ كما اعتاد الشعـراء الجاهليون أن يشبهوا عيون النساء الجميلة بعيون « العين » أى البقر الوحشى وبعيون الظباء ؛

---

(١) تفالى ـ تتفالى ، جاب ـ حمار وحشى صلب شديد ، الربيئة ـ من يراقب الأعداء من مكان عال ، أثار ـ جمع ثار ، الذحول ـ الثارات .

والجآذر وهى أولاد البقر الوحشى ، لكن فى بيان السرعة يشبهون بالثور الوحشى ، وفى القصيدة الأولى من الديوان ، وهى القصيدة البائية التى قيل ان ذا الرمة ظل يضيف اليها الأبيات الى أن فارق الحياة ، والتى تمنى جرير أن تكون له من دون شعر ذى الرمة « فان شيطانه كان له فيها ناصحا » والتى يقول عنها : « جرير » لو لم يكن له سواها أو لو مات دون أن ينظم غيرها لعد من كبار الشعراء ٠٠ ولقد اعتمدنا عليها أكثر ما اعتمدنا فى تحليل ونثر أبياته فى وصف الناقة ، والحمار الوحشى وكذلك فى وصف الثور ، وقد تخلص اليه كما تخلص من قبل بقوله : أذاك أم نمش بالوشى أكرعه (١) ؟ « أى أيهما أشبه فى سرعته بالناقة ؛ ألحمار الوحشى أم الثور المنقط الأكرع ؛ الأسود الخدين مع ميل الى الحمرة ٠ الشاب النشيط الذى أقام خلال أشهر الصيف الى أن هزت رياح الخريف نبات الخلفة فجف ، والأرطى تساقطت ذوائبه ، ولما اشتد الحر هاجر مجتازا وهبين « وذا الفوارس » تدعوه رائحة الربب من بعيد ، حتى اذا ضمته الرمال ؛ ولفه الظلام بشملته ؛ واحتوته السحب الممطرة أوى الى شجرة أرطاة استضافته فوجد فيها الدفء والاحتجاب ، وهى شجرة بمنأى عن القطعان الوحشية تتجمع الأبعار على الكثبان القريبة منها ، وتجول حول جذورها أوراق حائلة شهباء اللون كأن شجرة التوت قد ألقت بأحمالها حولها فاذا استهل عليها المطر تأرجت مرابض البقر « حتى يارج الخشب » فكأنها بيت عطار وضع فيه أوعية المسك (يحويها وتنتهب) فاذا لمع البرق كشف عن ذلك الثور المنكمش الأبيض ؛ كأنه عزب يلتف فى « قباء » تسيل قطرات المطر من على ظهره وتتدحرج تدحرج الخرز الفضى هوى من نظامه ؛ فاذا دخل الكناس فى الشجرة اقتحمه بروقيه والرمل من حوله « ما بين منقاض ومنكثب » حاشرا نفسه بين عروق الشجرة التى تشبه أطناب الخيمة ، وهو فطن ذكى يتوجس خيفة ، لديه المعية وخبرة بنبأة الصوت لا يكذبه سمعه ، لقد بات يقلقه الندى ؛

---

(١) أكرعه ـ قوائمه ٠

ويسهره تذؤب الريح والوسواس والمطر ؛ حتى اذا بدا الصباح ، وجلا عن وجهه أغباش الظلمة هاله تجمع الغيم وتراكمه ، فأصاب الثـور ما يشبه الجنون فهـو يخشى ويرتقب ؛ ثم تلهى بالنبات (يلاحظ التتبع لوصف حالته النفسية) الذى حوله ، ومدت الشمس أشعتها ـ بعد أن لاح الصبح المشهور « بنقبته » أى بلونه كاللهب على جبل « عاقر » هاجمته كلاب جوع زرق ضوامر ، لوحها الجوع والعطش فالتصقت رئتاها بظهرها ، وهى كلاب غضف الآذان ، واسعة الأشداق ؛ كالذئاب الضارية التى شدت فى أعناقها سيور جلدية ، ويتمادى فى وصف الصائد الذى ورث الاكتساب بالصيد عن والده ، وليس له مصدر سواه ، فهو هبال للفرص ؛ تساقط شعر رأسـه فلم يبق منه سوى قنازع كالغيم المتناثر ، وحين رأى الثور الكلاب نفر بجانبه الوحشى ؛ وهو جانبه الأيمن ، فانقضت الـكلاب عليه فأسرع هاربا لا يقصر فى الجرى كل منهما ؛ حتى اذا الكلاب دارت فى الأرض حول نفسها ، وتمكن هو من الفرار راجعه الكبر وعزة النفس فرجع اليها ، لقـد أدركه خزى ممزوج بغضـب فخفف من اسراعه رغم أنه سمع نحيب الكلاب الغضف خلف ذنبه ، فاذا تمكنت منه أو كادت تمسك بعرقوبه وذنبه ؛ ومن سوء حظها أنهـا التقت بثور غير طياش ولا وجل ـ كر عليها يمشق روقيه فى صدورها كمجاهد يطلب من الله الأجر والاحتساب ، يطعنها فى أعناقهـا طعنات تنتظم الرئات والقلوب بروق حاد (١) كالسيف القاطع ، ولما أصبحت الكلاب صرعى ، فهى بين مطعون بطعنة نافذة الى حجاز قلبه ، وبين ميت أو موشك على الموت ولى مسرعاً نشيطا فرحا وقد خضبت الدماء روقيه ؛ وزايلت نفسـه الـكروب وهو فى سرعته كالكوكب المنقض على عفريت من الجن ؛ لقد ترك الكلاب خلفه بين واطىء أمعائه برجليه وآخر يعانى سكرات الموت وعروق جوفـه تشخب دما . ويضـطرب حين يحراق ذنبـه ليطرد الذباب كذيل السرادق هزته الريح ، أما البقر الوحشى فهو يشبهه بالنساء آنا فيقول :

---

(١) الروق ـ القرن .

اذا ما نعـــاج الرمل ظلت كأنها
كواعب مقصور عليهـــا حجالها (١)

أو يشبه النساء به آنا آخر :

كأنا رمتنا بالعيـــون التى بدت
جآذر حوضى من جيوب البراقع (٢)

ولقد لاحظنا ـ كما ســـبق أن أشرنا الى ذلك ـ كيف أن حيوانات الصحراء قد اكتسبت لديه الألفة ، والمودة ؛ فأصبح يحس نحوها ما يحسه الانسان نحو الانسان ، لذلك تلاشت فى وجدانه الفروق ما بين الانسان والحيــوان ، فسيان أن يشـــبه الانسان بمحاسن الحيوان أو يعكس فيشبه الحيوان ببعض صفات الانسان ، ظهر ذلك فى وصفه للناقة ، كما ظهر فى وصفه للثور ·

كما رأينا الشاعر لا يقف فقط عند الصفات الحسية عنـــد الحيوان بل يتغلغل فى وجدانه فيصف لنـــا احساساته وانفعالاته النفسية ، كما يصف ذكاءه وفطنته ·· وما أروع تشبيهه الثــور « وهو راجع من ضحائه » « يختال ويمشى » مثـــل مشى الهبرزى « أى الملك » المسرول ·

الظبـــاء :

لم يفرط فى وصف الظبـــاء افراطه فى وصـــف النـــاقة أو الحمار والثور الوحشيين ولكن لمساته القليلة التى يتناول بها وصف الظبية أدخل فى باب الشاعرية اللماحة من كل أوصافه فى الناقة أو الحمار الوحشى ·· ذلك أن الذى يثيره فى الظبية ليس القوة أو السرعة أو الاهتمام بالقطيع أو الصبر على متابعة السير وانما

---

(١) مقصور عليها حجالها ـ مقيمة فى الحجال ومفرد الحجال حجلة وهى مكان مزين بالستائر تقيم فيه العروس ، والكواعب ـ الشابات الملتفات الثدى ·

(٢) جيوب ـ فتحات وخروق ·

الذى يثيره ربما هو نقيض ذلك يثيره فيها ضعفها ، ورقتها ، فحين تلتهب الصحراء فى الصيف يصيبها الذهول والدوار فتبدو كأنها صرعى فى الطريق ، أو تهرب من وهجـــه الى أقصى مكان فى كناسها :

ويوم يزير الظبى أقصى كناســه
وتنزو كنزو المعلقات جنــادبه (١)

ويروقه دائما أن يرسم صورة لبياضها وقد انعكســت على ظهرها أشعة الضحى أو أشعة ما قبل الغروب التى تلونها بلون ذهبى جميل ، ويذكره ذلك ببياض « مية » وقد رشت المســك السحيق على صدرها ولبتها بل سائر جسدها ٠ كما يجذبه دائما منظر عينيها وهى مذعورة تراقب من بعيد ولدها الضعيف الذاهل وما أجمل تعبيره عن ذلك فى الأبيات الآتية :

ذكرتك اذ مرت بنـــا أم شادن
أمام المطايا تشرئب ؛ وتســنح (٢)
من الآلفـــات الرمل أدماء حرة
شعاع الضحى فى متنها يتوضح
تغادر بالوعساء ، وعساء مشرف
طلا ، طرف عينيها ــ حواليه يلمح
رأتنـــا كأنا قاصدون لعهـــدها
بــه ، فهى تدنو تارة ، وتزحزح
هى الشبه أعطافا ، وجيدا ومقلة
وميـــة أبهى بعد منهـــا وأملح

وهو دائما يكرر هذا المعنى ، كما لا يحب أن يصف الظبية الا وقد جعل كل ما حولها ينبض بالروعة والجمال ذلك لأن جمال

---

(١) كناسه ــ بيته ومكانه الذى يقيم فيه ، تنزو ــ تضطرب ، المعلقات ــ الوحوش التى علق بها الشرك ٠

(٢) سبق شرح الأبيات متفرقة ٠

ما حولها يزيد فى ابراز جمالها ٠٠ أنظر اليه وهو يصف عينيهـا الخائفتين حين بصرت بانسان يدنو نحوها ، وقد وقفت على تلعـة ممطورة ، كساها المطر ورقا ناضرا ، وأحاطت بها الرمال الضارب لونها الى الحمرة الذهبية :

فمـــا ظبيـة ترعى مسـاقط رمـلة
كسا الواكف الغادى لها ورقا نضرا (١)

تلاعا ، هراقت عنـد حوضى ، وقابلت
من الحبـــل ذى الأدعاص أميلة غفرا

رأت أنسا عنـــد الخلاء ، فأعرضـــت
ولم تبد الا فى تصرفها ٠٠ ذعرا (٢)

كما أن عنقها حين تمده مشرئبة يبدو جميـــلا فاتنا ، لذلك يشبه به عنق مية ورفيقاتها حين رأينـــه وهن مرتحلات قد جاء ليودعهن أو ليودع محبوبته من بينهن :

فألمحن لمحـا من خـــدود أســـيلة
رواء خلا ما ان تشـــــف المعاطس

كما أتلعت من تحت أرطى صريمـة
الى نبأة الصوت الظباء الكوانس (٣)

ومن المؤكد أن عاطفة الحنان الأبوى عند ذى الرمة عاطفـــة متقدة ، فالأسفار التى تطرح به كل مطرح وتعرضه للهـــلاك فى وسط الصحراء ، فالماشى فيها كالماشى على حد السيف ، كما يقول

---

(١) الواكف ـ السحاب الممطر ، تلاعا ـ جمع تلعة وهى مسيل الماء الى الوادى ، الادعاص ـ جمع دعص وهى الكثبان الرملية ، أميلة ـ جمع ميلة وهى جبل من الرمل عرض ميل ، غفرا ـ ضارب لونها الى الحمرة ٠

(٢) أنسا ـ انسانا ٠

(٣) أتلعت ـ مدت عنقها ، صريمة ـ رملة ٠

هو في بعض قصائده دائم الشــوق والحنين لفلذات كبــده ذلك ما جعل بصره يتتبع بالحب ، والرحمة كل فرخ صغير أو حيوان صغير لقد رأيناه وهو يصف طير المكاكى ، وقد خلا له الجو فأخذ يعلم صغاره الطيران ، كما يصف ضعف هذه الصغار وقســوة الطبيعــة حولها ، والنعامة والظليم قد تركا فراخهمــا فى مكان لا مؤيس « نأيا ولا كثب » أى ليس بالقريب أو البعيد ، وحين تغير الجـو ، وتجمع الغيم وبدا يتساقط المطر ، ومد الليــل رواقه حولهما ، انتهبا الصحراء الى فراخهما نهبا :

لا يذخران من الايغــال باقيــة
حتى تكاد تفرى عنهمــا الأهب (١)

لا يأمنــان سباع الطـــير أو بردا
ان أظلما ، دون أطفـــال لها لجب

كما أن القطا تحتفظ بالماء فى حواصلها لصغارها ، وتعــود اليها من بعيد :

ومســتبقيات من بلاد تنوفــة
لمصفرة الأشداق ، حمر الحواصل (٢)

وفى الأبيات الآتية يكشف عن هذه العاطفة التى تشده الى كل ما هو صغير ، ضعيف ، لقد كانت الظبية ترعى بأعطاف الرمال اللينة ، وقد أودعت ولدها صفصفا من الأرض أو وضــعته فوق رملة منعزلة لتعرف مكانه ثم لا تلبث أن تنتحى مرتفعا من الأرض ، وتمد جيدها ناظرة اليه :

حذرا على وســـنان يصرعه الكرى
بكل مقيل عن ضـــعاف فواتـــر

---

(١) لا يذخران ـ لا يدخران ، الايغال ـ التوغل فى الجرى ، الأهب ـ الجلود جمع اهاب ، أظلما ـ دخلا فى الظلام ، لجب ـ صخب .
(٢) مصفرة الأشداق حمر الحواصل ـ فراخها الصغيرة .

وتهجره الا اختلاسا نهارها
وكم من محب ، رهبة العين هاجر

حذار المنايا رهبة أن يفتنها
به ، وهى الا ذاك أضعف ناصر

وحين تسمع صوته الصغير ، أو ترى راكبا يمر قريبا منه أو منها تراع ، وتفزع ، فيستبين جمال عينيها ، وما أدق تصويره وأروعه حين لجأ الى تصغير الصوت ، كما صغر هذا الطلا الأبيض اللون الذى قام من نومه باحثا عن أمه ، ومناديا بصوته الصغير عليها :

تثور فى قرن الضحى من « شقيقة »
فأقبل أو من حضن كبداء ، عاقر (١)

رأت راكبا ، أوراعها لفواقها
صويت دعاها من أعيس ، فاتر (٢)

كما يبدى الاعجاب الممزوج بالحنان والحب الأبوى لهذا الطلا الصغير ؛ فيشبهه بدملج منسى أو غمامة منفردة يظهرها البرق ؛ والظلماء شديدة السواد ، كما يردد صوت الأم وهى توقظه من نومه « بماء » :

لا ينعش الطرف الا ما تخونه
داع يناديه باسم « الماء » مبغوم (٣)

ولألفته للظباء يخاطبها كما خاطب ناقته من قبل ، مخاطبة الانسان لصديقه الانسان ·

(١ ، ٢) تثور ـ ثار من نومه ، شقيقة ـ أرض صلبة ، حضن ـ ناحية ، كبداء ـ رملة عظيمة الوسط ، عاقر ـ لانبات ولا ماء فيها ، لفواقها ـ الفواق ـ ما بين الحلبتين ، أعيس ـ ولدها الأبيض ، فاتر ـ ضعيف ·

(٣) لاينعش الطرف ـ لايرفع طرفه ، الا ماتخونه ـ الا تعهده ، الماء ـ بكسر الميم صوت نداء الظبية ، مبغوم ـ من البغام وهو أجمل صوت للظبية ·

أرى فيك من خرقاء ، يا ظبية اللوى
مشابه ؛ جنبت اعتلاق الحبائل
فعيناك عيناها ، ولونك لونها
وجيدك الا أنه غير عاطل

النعام :

فى قصيدته البائية التى احتشد لها طول حياته · وكاد أن يجعلها ملحمة ، لو توفرت لها شروط الملحمة والتى عدد أبياتها مائة وواحد وثلاثون بيتا ، صور الأطلال ، كما تغزل فى محبوبته مى لا أقول غزلا فقط ، وانما هو ترجمة صادقة لعاطفته الملتهبة نحوها ، ثم وصف الحمار الوحشى فالثور الوحشى ، وفى مجال الموازنة بين سرعة ناقته وسرعة غيرها ، تناول بالوصف الظليم الذى هو ذكر النعام فقال :

أذاك أم خاضب بالسى مرتعه
أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب (١)

وكعادته فى رسم ملامح الحيوان حتى يتعرف عليه رسم ملامح هذا الظليم وهو دائما يستغنى بذكر الملامح الجسمية والنفسية عن الذكر المباشر للحيوان ، وهذه احدى الظاهرات التى يتميز بها فنه ، ولقد سبقه القرآن الى ذلك فى قوله : « ذات ألواح ودسر » أى السفينة ، كما نجد لطريقته هذه نظائر فى شعر لبيد وأبى ذؤيب الهذلى وغيرهما ، ولكيلا نطيل سنتجنب ذكر الأبيات التى عرض فيها ملامح هذا الحيوان الذى يقال عنه انه طائر أكثر منه حيوانا ، مكتفين باستخلاصها من شعره · لقد وصفه بأن مرتعه مخضب من أكله الحشائش ، كما أنه يبيض بيضا كثيرا قد يصل الى عشرين أو ثلاثين بيضة ؛ قوائمه دقيقة « أى غير ممتلئة » ، مرتفع (مثل البيت سائره) ضخم ، طويل خشن ، كأن رجليه عمودان من كبار شجر العشر الضخم طويلان لم يزل عنهما

---

(١) السى ــ ما استوى من الأرض ، أبو ثلاثين ــ فرخا أو بيضة ·

القشر ، يرعى النباتات التى تنمو خلال الحجارة فى الصحراء ، أسود اللون كأنه حبشى «يبتغى أثرا أو من معاشر من السود يثقبون آذانهم كأنه يلتف فى مخملة سوداء ذات أهداب ، له جناحان يشبه بهما جملا ارتخى الحبل الذى يشد الى ظهره حمليه فتأخرا الى الوراء ؛ وحين رأى أن الجو اكفهر من حوله أسرع يبارى نعامة صلعاء ، ذات لونين أبيض وأسود ، خاضعة الرأس ليلحقا فراخهما التى « جاءت من البيض زعرا ؛ لا لباس لها » الا الزمل اللين « وأم برة وأب » كأنما فلقت عنها ببلقعة جماجم يبس أو حنظل خرب « ذات أعناق مائلة سوداء كأن الجرب يشمل كل أجسامها » أشداقها كصدوع شجر النبع فى قلل الجبال أو مثل الدحاريج وهو نوع من الثمر « كالجوز لم ينبت لها زغب » وأعناقها كنبات الكرات الذى طارت أكمامه أو شجر الهيشر الذى سقط ورقه . ولعلنا نلاحظ أن تصويره لفراخ النعام قد خلا هذه المرة من العاطفة التى نلمسها فى كل وصف وصفه لحيوان ، أو طائر صغير ، ويبدو أن هدفه كان ايجاد المشابهة العقلية فقط والا فأين العاطفة الانسانية فى قوله « شامل أجسامها جرب » أو « فلقت عنها جماجم يبس أو حنظل خرب» فالحنظل المر والجماجم اليابسة والجرب صور لا تحمل شيئا من معانى الحب التى ظهرت واضحة فى أوصافه لفراخ المكاكى أو القطا أو أطلاء الظباء .

وربما كان أكثر صدقا حين قال : « اذا هبت الريح الصبا درجت به غرابيب» فقست من بيض شديد البياض، والظليم وهو يرعى يخيل لها بشخصه ، كما ينقنق بصوته لتسكن وتطمئن .

الموضوعات السابقة هى التى كان يعمد عمدا الى وصفها وهى التى استغرقت الجزء الأكبر من اهتمامه .

وقد رأينا فيما سبق أنه يبدؤها بعد المقدمة الطللية ، ثم القصيد الغزلى بوصف الناقة ثم يشبهها بالحمار الوحشى أو الثور فيأخذ فى وصفه ، كما يصف الصحراء الواسعة التى يقطعها متحدثا عن قوة احتماله ؛ دون رفقته غالبا ، كما يتحدث عن نشاط ناقته وسرعتها التى تفوق نشاط سائر الابل التى تسير معها .

لكنه في خلال ذلك قد يصف أشياء أخرى وصفا جزئيا لا يمنحه الكثير من عنايته السابقة خاصة حين يتناول الصحراء وحرها اللاهب بالحديث ، وما أكثر الحيوانات والحشرات ، والطيور التي تموج بها الصحراء من ذلك وصفه للحرباء ، والقطا ، والنسر ، والغراب ؛ وكلاب الصيد ، والسراب ، والليل والنجوم والفجر والصباح وغير ذلك ، وسنستعرض موضوعاته هذه في شيء من الايجاز الذي يتلاءم مع مقدار اهتمامه بها .

الحرباء :

الذي يسترعي انتباه ذي الرمة في الحرباء هو تأثره بحر الهاجرة ، وهو دائما يصوره وهو يعاني من هذا الحر كما يسترعي انتباهه أيضا ما استرعى الشعراء قبله استقباله للشمس ، واستدارته معها .

فمن الأول هذا البيت الذي جاء بعقب حديثه عن لظى الصيف الذي جعل الجندب يرمح كما جعل الحرباء يلوي رأسه ويترنح :

اذا جعل الحرباء مما أصابه
من الحر يلوى رأسه ويرنح

وقد فطن ذو الرمة لدقة ملاحظته ، وتردده الكثير بين جوانب الصحراء الى تأثير الشمس في لون الحرباء .. فيبيض لونه ، وتخضر جلدة حلقه ، وأيا قال العلم في سبب هذه الظاهرة ، فالذي نصل اليه من هذا هو دقة الملاحظة التي تميز بها ذو الرمة على سائر شعراء عصره وبخاصة المشهورين منهم كالفرزدق وجرير والأخطل الذين شغلهم الهجاء والسباب عن تصوير جمال الطبيعة بل حاولوا كما سنرى فيما بعد النيل من ذي الرمة شاعر الحب والطبيعة .. وفي هذا التأثر بحرارة الشمس يقول :

وقد جعل الحرباء يبيض لونه
ويخضر من لفح الهجير غباغبه (١)

كما أنه ينتصب بقامته على الاعواد باسطا ذراعيه كالمصلوب

(١) غباغبه ــ جلدة حلقه .

ويشـــــبح بالــــكفين شـبحا كأنه
أخو فجرة ، عالى به الجذع صالبه(١)

ربما هو يفعل ذلك من شدة وهج الشمس ، أو لأنه لايعرف أين الشمس ، لأنه يفعل ذلك حين تكون فى كبد السماء لا يهتدى الى مكانها ليستقبلها بوجهه كعادته ، وقد كرر هذه الصـــورة فى مكان آخر ؛ ويضيف الى صوره بعض الخطوط التى تخرج بهـا عن أن تكون مكررة فيقول :

لظى تلفـح الحـرباء حتى كأنه
أخو جرمات ، بز ثوبيـــــه شابح (٢)

فقد أضاف الى الصورة « بز ثوبيه » أى صـــلب عاريا .. وفى موضع آخر يوحى اليه هذا المنظر بصورة مغايرة فهو ليس مصلوبا وانما عاص رفع يديه ضارعا الى الله أن يعفو عن خطيئته وذلك حين يكون الحرباء متجها بوجهه الى الشمس :

كأن يدى حربائهـــا متشمســـا
يدا مذنب يستغفر الله ـ تائب

ويخرج الصورة فى اطار آخر هو أن الحرباء كمصل ينقصه التكبير وهو مسلم فى العشى حـين تتجه الشـــمس الى الغـروب ونصرانى فى الضحى حين تكون الشمس فى جهة المشرق .

يظـــل بهـــا الحرباء للشمس ماثــلا
على الجـــذل الا أنه لا يكبر (٣)
اذا حـــول الظل العشى رأيتـه
حنيفا ، وفى قرن الضـحى يتنصر (٤)

---

(١) فجرة ـ ارتكب جريمة فصلبه صالبه .

(٢) بز ثوبيه ـ خلع عنه ثوبيه .

(٣ ، ٤) الجذل ـ جذع الشجرة وأصلها ، حنيفا ـ مسلما يتجه الى القبلة شرقا .

ولقد سبقه الى رسم هذه اللوحة الدينية للحرباء شاعر آخر هو الظالم بن البراء الفقيمى (١) الذى يقول :

ويوم من الجوزاء أما سكونه
فضح ، وأماريحه فسموم (٢)

اذا جعل الحرباء والشمس تلتظى
على الجذل من حر النهار يقوم

يكون حنيفا بالعشى وبالضحى
يصلى لنصرانية ويصوم

وبيتا ذى الرمة أدق ، وأوجز تعبيرا من أبيات الفقيمى ، فالبيت الأول عند الفقيمى تعبير مباشر ، فى حين يشتمل عند ذى الرمة على صورة للحرباء وهو منتصب كالمصلى الذى لا يكبر ، وفى البيت الثانى عند الفقيمى اضافة لا مبرر لها وهى « ويصوم » ولاندرى لم خص الصيام فى الضحى علما بأن الحرباء يصوم اليوم كله ويبحث عن طعامه فى الليل بعد غروب الشمس ، لا وقت أن تكون فى جهة الغرب ونحن ننكر باب السرقات بأكمله فى البلاغة القديمة ونرى أن الشاعر الحق لا يسرق أو يسلخ وانما قد يختلط عليه الأمر فيذكر أبياتا برمتها فى شعره معتقدا أنها له وهى فى الواقع من محفوظه ، كما حدث لذى الرمة قديما ، وللبارودى حديثا ، وهو كشاعر مثقف قد يستمد صوره من ثقافته كما يستمدها من واقعه وليس فى كلا الأمرين ما يعيب ، رغم أن القدامى قد لاحقوه بتتبع واحصاء الصور والمعانى التى رأوها صدى لشعراء آخرين ، كما تبعهم فى ذلك بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى فيقول (٣) : وليس ذو الرمة من الشعراء المطبوعين ، فانه يفتخر بسهره لنظم الشعر الغريب يجنبه السناد والمحال .. ثم يقول : ومن الظواهر الدالة على قصده الى التقليد

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٣ .

(٢) ضح ــ مشمس ، سموم ــ ريح حارة متربة .

(٣) تاريخ الأدب العربى ج ١ .

أنه كان يضمن شعره أبياتا للقدماء فى بعض الأحيان · فأخذ أبياتا لم يكد يغير فيها لكعب بن سعد الغنوى ، ولبيد والنابغة ـ كما أخذ عن الأعشى تشبيه قوم ينظرون الى رجل أريحى بقيامهم للهلال ، فيقول الأعشى :

أريحى صلت يظل له القو
م قياما قيامهم للهلال (١)

ويقول الفرزدق :

قياما ينظرون الى سعيد
كأنهم يرون به هلالا

ويقول ذو الرمة :

قياما ينظرون الى بلال
رفاق الحى أبصرت الهلالا

ولقد حمل النقاد البلاغيون القدامى عبء الدفاع عن الشاعر اذ قالوا ان اللاحق اذا أخرج المعنى فى ثوب من التعبير والتصوير أجمل وأروع من السابق كان هو أحق بهذا المعنى الذى أخذه ، وأبو هلال العسكرى يثنى على الأبيات التى صور فيها ذو الرمة الحرباء قائلا : وهذه تشبيهات مصيبة عجيبة الاصابة ، دالة على شدة الحذق ، وثقوب الذهن ، وقد أجمعت العرب على أن ذا الرمة أحسنهم تشبيها (٢) ·

القطا :

ومن الطيور التى ينظر اليها بعين الاعجاب طيور القطا ، ولقد شبه مرة بها النجوم وهى تبدو ضعيفة باهتة كالعيون الخوص

(١) أريحى ـ كريم ، صلت ـ ماض فى الأمور أو براق الجبين ·

(٢) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ·

أى التى تضيق وتقترب جفونها من النظر الى ضوء قوى كضوء الشمس .. فيقول :

مصابيحه خوص العيون كأنهـا
قطـا خامس أسرابه متميم (١)

ومن أغرب الصور تشبيهه جرعات الماء المتتالية كأوساط القطا المتتابع ، حقا ان هذه الصورة البعيدة النادرة دليل ساطع على نفاذ بصيرته ، وعمق ملاحظته فالابل حينما تسحب الماء بمشافرها أى تمتص فانه ينسحب اليهـا متكورا فى لون رمادى كلون ظهور القطا ، مثل هذه الصور الرائعة النادرة هى التى جعلت الصيقل الذى قيل عنه انه أنشد شعر ذى الرمة فاستحسنه يقول : ماله قاتله الله ما كان الا ربيقة ، هلا عاش قليلا .. نعم لوعاش قليلا لكان أثرى الشعر العربى بمثل هذه اللوحات الرائعة ولكن كيف يعمر أو يطول أجل من يستنزف حياته كل يوم قطرات فى شعره . ويذكرنا ذلك بأبى تمام حين رآه أحدهم وهو ينشد شعره فتنبأ له : بأنه سيموت شابا « وقد مات أبو تمام أيضا شابا » ولقد شبه مامس الأرض من صدر الناقة وركبتى رجليها ويديها ـ كما شبه غيره بقطا خمس متجاورات فقال :

مناخ قـرون الركبتين كأنه
معرس خمس من قطا متجاور(٢)

وحين يتصدى للحديث عن مناهل الماء كثيرا مايشير الى القطا والحمام الذى يحوم حولها أو يسعى فيها اذا جف ماؤها ، كما يصف هديلها بتراطن قوم من الروم :

اذا ماوردنا لم نصادف بجوفه
سوى واردات من قطا وحمام

---

(١) خوص العيون ـ ضيقة العيون ضعيفتها والمراد أن ضوءها قد ضعف ، قطا ، نوع من الحمام ، خامس ـ فارق السرب منذ خمسة أيام ، متيمم ـ قاصد للسرب .

(٢) قرون الركبتين ـ ناقة تقترن ركبتاها ، معرس ـ مبيت ، والمراد أن مسها الأرض بصدرها وركبتى يديها ورجليها كخمس من القطا جائمة على الأرض .

كأن صياح الكدر ينظرن عقبنا
تراطن أنبــاط عليه قيـــام (١)

كما يصفها وقد شربت ثم ملأت حواصلها بالمـاء عائدة الى فراخها الضعيفة :

ومستخلفـات من بـلاد تنوفـة
لمصفرة الأشداق ، حمر الحواصل (٢)

الى مقعدات تطرح الريح بالضـحى
عليهن رفضا من حصـاد القلاقل (٣)

ينؤن ، ولم يكســين الا قنـازعا
من الريش تنواء الفصال الهزائل (٤)

ودائما يصف طيور الصحراء وحيواناتها بالضعف والهزال، كما أن عاطفة الأبوة التى تقلقه تجعله يرى فى فراخ القطا الضعف، والحاجة لرعاية أمهاتها • وما أروع تصويره لهذه اللقطة ، وهى أن كل قطاة تملأ حوصلتها بالمـــاء ثم تسرع عائدة دون انتظـار الأخريات أو الاستعانة بهن فى حمل سقائها •

اذا مــلأت منها قطـاة ســقاءها
فـلا تنظر الأخرى ، ولا تســتعينها

النسر :

لقد وصف النسر ، وذلك فى مجال تشبيه نفسه به ، وقد ربض فوق ناقته بعينيه النافذتين كعينى الصقر :

---

(١) الكدر ـ القطا ذو اللون المغبر ، عقبنا ـ ماتعقب منا من ماء ، أنباط ـ النبط قوم كانوا بالعراق •

(٢،٣،٤) مستخلفات ـ مستبقيات الماء لفراخها ، رفضا ـ متفرقا ، القلاقل ، نبات ، ينؤن ـ لايستطعن النهوض الا بجهد ، قنازعا ـ نتفا من الريش ، تنواء ـ نهوض ، الفصال ـ جمع فصـــيل وهو ولد النـاقة ، الهزائل ـ جمع هزيل أى ضعيف •

نظرت كما جلى على رأس رهـــوة
من الطير أقنى ينفض الطل أزرق (١)

ويقول أيضا :

كما نفض الأشباح بالطرف غدوة
من الطير أقنى أشهل العين واقع (٢)

كما يشبه به ذلك الأمير الذى يطرق الناس حوله اطراق الخربان أمام الصقر :

ورب أمير يطرق القـوم عنـــده
كما أطرق الخربان من ذى المخالب (٣)

تخطيت باسمى عنده ودسيعتى
مصاريع أبواب غلاظ المنـــاكب (٤)

الغــراب :

أما الغراب ، فلا يذكره الا فى موقف الفراق ، فالغراب عند العرب ــ نذير الفراق أو الهجران وحين يختار الكلمة التى تعبر عن صوته يختار له كلمة طويلة متنافرة الحـروف تدل على غلظ صوته هىمستشـحجات قال الجاحظ فىكتابه الحيوان: «اذا مرت على الغراب السنون ، وغلظ صوته قيل شحج » ثم يذكر بيت ذى الرمة الآتى : ــ

---

(١) جلى ــ ظهر ، رهوة ــ مكان مرتفع ، أقنى أزرق ــ النسر ٠

(٢) أشهل العين ــ فى سواد عينه زرقة ٠

(٣ ، ٤) الخربان ــ ذكر الحبارى وهو نوع من الطيور ، دسيعتى ــ أعمالى العظيمة وشهرتى ٠

ومستشحجات بالفـراق كأنهـــا
مثاكيل من صيابة النوب نوح (١)

يحققن ما حاذرت من صرف نيـــة
لمية أمست فى عصا البين تقدح(٢)

فقد وصف الغربان بالمثاكيل كما اختار لها ذلك اللفـــظ المتنافر الثقيل . ولما كانت الغربان نذير شؤم ناسب أن يختارها من بين سائر الطيور لتعبر عن همومه وأشجانه فى هـــذا البيت الرائـــع :

أخط ، وأمحـــو الخط ثم أعيـــده
بكفى ، والغـــربان حـــولى وقـــع

وقد نسب هذا البيت الى جران العود ، ولكن الدلائل تؤكد أنه لذى الرمة ، فهو يحمل طابعه من التعبير بالصورة التى تتكون من جزئيات صغيرة تتكون منها الصورة الكلية ، كما أن التذييل الذى جاء به فى قوله : « والغربان وقع » ، له نظير عنده ، من ذلك قوله فى وصف رضاب الثغر :

كأن السـلاف المحض منهن طعمـــه
(اذا جعلت أيدى الـكواكب تضجع)

وقوله يصف ناقته :

بمخطفـة الأرجاء أزرى بنيهـا
جذاب السرى بالقوم(والطير هجع)(٣)

---

(١) مستشحجات ـ شحيج الغراب صوته الغليظ ، مثاكيل ـ جمع مثكال، وهى من فقدت عزيزا عليها ، من صيابة النوب ـ من خيار أهل النوبة .

(٢) عصا البين ـ أى عصا الفراق ـ كناية عن التفرق .

(٣) مخطفة الأرجاء ـ ضامرة الجوانب والأنحاء ، أذرى ـ ذهب ، بنيها ـ بشحمها .

الطبيعة الصامتة :

لقد تناولت أهم أجزائها وهو وصف الأطلال ، كما تحدثت عن الصيف وقسوته لكن الصحراء غنية بمناظرها ، ومظاهر الطبيعة فيها ، حقا أنها قاسية ، ومدمرة « على مثل حد السيف يمشي دليلها » وسالكها دائما يتوقع الهلاك ، لهذا أطلق عليها مفازة تفاؤلا ، وعلى الناقة « نجاة » كذلك وللريح فيها نواح الثكالى كما أن « لصوت الجن في منكراتها هزيز ، وللأبوام فيها نوائح » ولطولها واتساعها « يقتات الأحاديث ركبها » ويهلك فيها النسيم، ولصمتها الرهيب يخيل للسائر فيها أنه يسمع « غناء أناسي بها وتنادى » يلفها الظلام بعباءته ، وتعوى ثعالبها والجندب الجون يرمح ؛ وتخشى القطاة الردى من التهاب قيظها .. ومن أهم مظاهرها سوى ماسبق أن ذكرنا ، السراب : الذى يشبهه بملاءة منسوجة من الحر تلتف بها ثنايا الطرق الجبلية لى الملاء بمصاريع الأبواب ، والريح تتلاعب به :

يجرى ، ويرتد أحيانا ، وتطرده
نكباء ، ظمأى من القيظية الهوج (١)

فى قاع صحراء مضرج بلعاب الشمس ، وكل شيء يتحرك فى السراب ، أعناق الرمال حينما يعبر بها السائر ثم ينظر اليها من بعيد يخالها « أحصنة شقرا » يركضها السراب ، كما يخيل للرائى أن كل مرتفع من الأرض يدور ويلف كفلكة المغزل « يدوم رقراق السراب برأسه كما دومت فى الخيط فلكة مغزل » .

فلا عجب اذا اختلطت الرؤية ، فى وجدان الشاعر فتخيل الماء صحراء ، والابل زوارق ؛ وعبر عن ذلك فى هذا البيت الذى قيل عنه انه من الصور الرمزية فى الأدب العربى « تلك الصور التى يتبادل فيها معطيات الحواس فيشم الشيء المسموع ويرى لونا للصوت

---

(١) نكباء ـ ريح بين الصبا (الشرقية) والشمال ، القيظ ـ الحر الشديد ، الهوج ـ جمع هوجاء .

كما يقول الجارم » والنبرة السوداء فى آهاته (١) يقول ذو الرمة معبرا عن هذا الاحساس :

كأن مطـايانا بـــكل مفـــازة
قراقير فى صـــحراء دجلة تســـبح (٢)

ومن صور الطبيعة الصامتة الليل الذى يقول عنه الشاعر انه قد « صبغ الحصى بسواد » كما أنه كجل على ظهر البيداء أو خنـدق مضروب حولها ، ويبدو أن الظلمة فى الصحراء شىء كريه وجامد وحين يشقه بناقته يقول :

شججت الدجى .. أو مزقتها .. وكلا الفعلين يوحى بالضيق كما تبدو روح التحدى من الشاعر لهذا الليل الجاثم على صـــدر الحياة ، ويتصوره أحيانا غابة من الظلمة تكاثف سـوادها ، وحينما يقترب الفجر ، يغبش الليل مصابيحه ... تلك النجوم التى تشبه « المها واليعافر » لقد كانت النجوم تسبح فى السماء ، كسرب من قطا يرد مناهل الماء ، وتبدو الثريا من بينها كطائر ابن الماء المحلق ، والدبران الذى تزعم الأساطير أنه خطب الثريا وزف لها قطيعا من الابل فرفضت الزواج منه يتبعها بابله «فلا هو مسبوق ولا هو يلحق»

بعشرين من صـــــغرى النجـــوم
كأنهـــا قلاص كادت عليه تفـــرق

ولكن الفجر بدأ يهتك ستار الظلام» فالليل «أدهم أبلق» «كما ساق الثريا فى ملاءته الفجر » فبدأ الشاعر وصحبه يشربون ويسـقون ابلهم ، وأخذت تتهلل أساريرهم وانعكس ذلك على الصور التى عبر بها عن الفجر ، فهى صور كلها زاهية ، فهو كالحصان الأشقر :

وقد لاح للسارى الذى كمل السرى
على أخـــريات الليـــل فتق مشـــهر (٣)

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى للدكتور مندور .

(٢) قراقير ـ زوارق .

(٣) فتق مشهر ـ مشهور واضح والمراد به الصبح الذى يشبه الفتق فى ثوب الليل .

كلون الحصـان الأنبط البطن قائما
تمايل عنه الجل واللون أشـقر (١)

أو : كأن عمود الصبح جيد،ولبة
وراء الدجى من حرة اللون حاسر (٢)

أما الأشجار والنباتات فقد ذكر منها الكثير اذ أنها مورد خصب من الموارد التى يستمد منها صوره شأنها شأن المظاهر الأخـرى للطبيعة ، ومن أمثلة ذلك شجر العشر الذى يشبه به رجلى الظليم فيقول :

« كأن رجليه مسماكان من عشر » ، كما يقول أيضا : ألهاه آء ، وتنوم » وهما نوعان من النبات ، وفراخ النعام مثل الدحاريج ويقال ان ثمره كالجوز ، وأشداقها كصدوع « النبع » ، وأعناقها « كالكرات » أو « هيشر » طارت كمائمه • وأعناق امـرىء القيس الحمراء كأنها فوق اللحى « الصرب » أى الصمغ الأحمر ، والجمـل كالنخلة من نخل يبرين أو هجر ويصف الروضـة حين يريد أن يتحدث عن نكهة فم محبوبته فيفضلها على روضة مطرتها السـماء وهبت عليها نسمات ريح الصبا الرخية، بهذه الروضة زهر الحنوة، والذرق الغض ، تعاودها الامطار مرة بعد مرة ، كما يكثر من تشبيه بياض أسنانها بالأقحوان المطور ، وقد يصف السحابة فى موطن الدعاء لديارها بأن يجودها المطر ، فيقول : سقى دارها سـحاب متراكم له صوت أجش ؛ يقبل من ناحية العراق ، له هزيم كالرعد أبيض كالخيول المائلة بجنوبها تستدرها ريح الصبا ، وتتذاوب حولها ريح تجرى المطر وتمنحه للحياة ، فاذا افترقت المزن دعت سحبا ثقالا « مرجحنات » واللفظة تفيد الامتلاء كما يشبه الندى فى ضوء الشمس بنثار الفضة •

---

(١) الانبط ـ الأبيض ، الجل ـ الجلال ـ وهو كساء يوضع على ظهره ، أشقر ـ بياض مع حمرة •

(٢) حرة اللون ـ حسنة اللون ، حاسر ـ مكشوفة الوجه •

هذه هى مظاهر الطبيعة التى فتن بها الشاعر ، فصرف اليها كل جهده وحياته ولم يغره طلب المال بالجرى وراء المدح الزائف أو الهجاء المقذع حتى زعم البطين الناقد أنه ربع شاعر ، لأنه لايجارى الشعراء فى الأغراض الأخرى كالمدح والهجاء (١) ولقد كان خيرا للفن عامة ، وللشعر خاصة أن يقصر ذو الرمة فى الأغراض التى أولوها اهتمامهم صارفا عبقريته الى رسم هذه اللوحات الرائعة •

الخصائص البارزة لشعر الطبيعة عند ذى الرمة :

أولا : نعتبر ذا الرمة امتدادا ؛ بل استمرارا طبيعيا لشعر الطبيعة فى العصر الجاهلى ، واذا اعتبرنا عصره عصر احياء للشعر(٢) كما يرى الدكتور سيد نوفل فذو الرمة يعتبر عودة وانعطافا الى الشعر فى أزهى عصر من عصوره بالنظر الى العصر الذى كان يعيش فيه ذو الرمة بعد أن انقطع أو توقف قليلا الاهتمام بالشعر ، وانصرف الى غرض جديد هو المشاركة فى الكفاح الدينى والسياسى بعد ذلك ، وكل ما قلناه عن شعر الطبيعة فى العصر الجاهلى يتفق وشعر ذى الرمة الى حد كبير، كالوصف الحرفى الذى تستقصى فيه كل جزئيات الموصوف ، وكأن يكون الوصف غرضا لذاته وهو ما يمكن أن نطلق عليه الوصف الفوتوغرافى أو التسجيلى الذى يلتقط المنظر كما هو دون أن يضيف اليه من ذات الفنان شيئا سوى اختيار زاوية الالتقاط كما أنه يتعمد الوصف تعمدا خاصا فى الموضوعات التى اعتاد الجاهليون وصفها كالأطلال والحمار الوحشى والبقر الوحشى ، والناقة ، والصحراء ، ودمج الحديث عن الطبيعة بالفخر بالنفس ، وابراز القدرة على المخاطرة ، وشيوع الكلمات الغريبة فى وصفهم للابل والخيل

---

(١) الموشح للمرزبانى •

(٢) الطبيعة فى الشعر العربى •

والثيران ، والحمر الوحشية التى يؤتى بها كما قلنا لابراز قوة الناقة أو الفرس ، وبيان مدى صلابتها .

ثانيا : لكن ذا الرمة ينفرد عن شعراء الجاهلية بما يأتى :

١ ـ كان الوصف عند الشعراء السابقين جزءا من أجزاء القصيدة الجاهلية ، كما أنهم لم يجعلوه همهم ، وغايتهم ، فكانوا يمدحون كثيرا ، ويتبذلون أحيانا فى المدح طلبا للمال كما كان يفعل النابغة والأعشى ، كما يفخرون بقبائلهم أو بأنفسهم ، ويصفون حروبهم وأسلحتهم ، مما قد تجنبه ذو الرمة ، لما أصاب المجتمع العربى من تغير فى بنائه الاجتماعى ، اذ لم يعد مجتمعا قبليا كما كان فى الجاهلية ، وان ظلت آثار هذا المجتمع باقية .

ولقد غلب على ذى الرمة هذا اللون من الوصف للطبيعة ، ويبدو أنه قد راق لمعاصريه فجعله بعض النقاد أوصف الناس فى الاسلام ، كما كان امرؤ القيس أوصف الشعراء فى الجاهلية ، ونحن نرى وسنؤيد هذا الرأى بالدليل فيما بعد ـ أن ذا الرمة كان يحتقر المدح ، كما اضطر اضطرارا الى الهجاء ولم يمنعه من أن يتفوق على معاصريه أو أن يكون ندا لهم فى هذين الغرضين سوى ايمانه بأن غرض الوصف الذى أخلص له ـ ألصق بالفن من الأغراض التكسبية الأخرى ، فنجده يمدح الأمير أو الخليفة فلا يمدحه الا ببيت أو بثلاثة أبيات غالبا ، يضعها فى نهاية القصيدة كأنها شىء منبوذ حقير مستهجن .

٢ ـ كما انفرد أيضا بدقة ملاحظته التى نشهد معالمها واضحة فى الصور الجزئية المتناثرة خلال قصائده ولقد ذكرنا بعضها ، ونذكر هنا منها ملاحظته للابل وهى تسير ووجوهها من لفح الرمضاء تتجه الى غير وجهة أرجلها :

ترى الناعجات، الأدم ينحى خدودها
.. سوى قصد أيديها سعار مكافح

أو رفاقه الذين ينـــامون على الحصى من الاعيـــــاء فكأنهم ينامون على الأرائك آلوثيرة بعد أن كان نومهم كحسو الطير وهـم « على شعب الأكوار فوق الحرائك » كما يصـــور ظل الناقة وهو يجـــرى بجوارها وكيف يلجىء القيظ الطائر الى أن يحتمى بعش سواه ، ويجتمع الضدان معا فيسكن الضب مع العصفور والنجوم تعوم فى السماء ، وخد الناقة كمرآة الغريبة أسـجح لأن الغريبة لا رفيق لها ســـوى المرآة فتكثر النظر فيها وازالة كل وضر عن صفحتها ، وجرعات الماء كظهور سرب من قطا يتبع بعضه بعضا ، والسراب يرتفع بالجبل ويهبط به فكأنه فرس أظلع ، ويرسم صورة لعين الناقة منعكسة على صفحة الماء فيقول :

كأنما عينها منها ، وقد ضــــمرت

واحتثها السير فى بعض «الاضا»(١) ميم

والنجوم عند الفجر كعيون تتخاوض وتضيق .

٣ ـ الجمع بين الوصف الحسى والنفسى لحيوانات الصحراء ، وهو كثيرا ما يخلع عليها صفات تتســـامى بها الى مرتبة عالية من الانسانية ، فلقد رأينا فيما سبق الثور الوحشى تتملكه روح الكبر ممتزجة بالغضب ، والخجل من انسحابه من المعركة فيكر الى الكلاب راجعا ، ويشتبك معها فى معركة دامية ، والنعامة كالمرأة تتصف بالطاعة والخضوع بينما الذكر يتصف بالحدب والرعاية والقـوة ، وهو الذى يتولى قيادة القطيع فى البحث عن المراعى الجديدة ، وهو الذى يأمرها بالارتحال ويعيد النافر الناد منهـــا الى القطيع ، بل يشكو الثور من الهموم التى تمنع عينه من النوم كالشاعر تماما .

باتت لعينيه الهموم عودا   حوائمـــا تمنعـــه أن يرقدا

الا غشاشا خافيا مسهدا ...

---

(١) الاضا ـ الغدران .

وناقته تحن مثله الى ابل الدهناء :

حنت الى ابل الدهنـــا فقلت لهـــا
أمي هـــلالا على التوفيق والرشـــد

والقطا يحمل الماء لفراخه فهو (أم برة ، وأب) والمكاكى يعلم صغاره الطيران فى الجو ، والظبية لايغادر طرفها ولدها فاذا سمعت صوته الصغير أسرعت فزعة اليه .. لقد قلنـــا من قبل ان الشاعر يتميز بعمق العاطفة الأبوية ، كما يشـــعر بالحب لسكان الصحراء من الوحوش والطيور لذلك لم نصادف له بيتا واحدا يعرض فيه صورة حيوان من الحيوانات الوحشية المحبـــوبة صريعا ، بل ينهى دائما وصـــــفه لأى معركة تدور بين أحد هذه الحيوانات ، وكلاب الصيد أو الصياد بانتصار الحيوان وهربه .

فالنعامة تحاصرها كل مظاهر الطبيعة الغاضـــــــبة كالليل والسحب والمطر، ومع ذلك تنجو وتعود لفراخها، والثوريـنتصر على الكلاب بل يصرع بعضا منها ، والحمر الوحشية لا تصيبها سهام الرماة المصوبة ، ويعود الصائد حزينا متحسرا . أما الظبيـــــة التى تحمل ملامح مى فلا يرغب حتى فى مجرد تنفيرها أثناء سيره .

٤ ــ يصور دائما مناظر الطبيعة وهى فى تحرك أى لايصفها ساكنة جامدة مستقرة انما فىحال تحركها وهذه كما يقول ليسنج احدى الفروق التى بين فن النحت أو الرسم وبين الشعر ، فالشعر فى امكانه رسم الحركة بخـــلاف فن النحت الذى يتقيد بلحظة زمنية واحدة لا يتعداها ، وشاعرنا ذو الرمة يتتبع بجهاز تصويره المنظر أثناء حركته لأن الحركة هى التى تهب لمنظر الحياة ، وقد كان أرسطو يعرف المأساة اليونانية « بأنها محاكاة فعل نبيل تام ، لها طول معلوم بلغة مزودة بألوان من التزيين ، تختلف وفقا لاختلاف الأجزاء (١) .. » ولا أبالغ فأزعم ان قصائده تشبه شعر المأساة عن قرب ، وانما يمكن أن نقول : تقرب أن تكون فصلا من مأساة تتوافرلها أناقة العرض والحدث بما فيه من بداية وخاتمة، وكثيرا

---

(١) الشعر لارسطو ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى .

ما تنتهى نهاية سعيدة فهو يرسم صورة للصحراء وهو يتحرك فوقها وهى تتحرك بحركته ، كما يتحرك كل ما فيها بفعل السراب الذى يجعل آكامها تبدو وتختفى ؛ ويخيـل للرائى أن تلال الرمل ابل تسير ، أو زوارق تسبح ، كما يصور الثور وهو يشتبك فى معركة طاحنة مع كلاب الصيد ، والحمار الوحشى وقد طاردته قوى الطبيعة الغاضبة ، والسحاب المرزم ، والريح العاصفة والليل الزاحف ، والخوف الذى يملأ قلبه ، حتى محبوبته لا يذكرها الا وهى مرتحلة .

٥ ـ لثقافته ، ونعنى بها احاطته بالتراث الشعرى « فهو من الشعراء الرواة » ، ولاتساع تجاربه اسـتطاع أن يعرض أفكاره ومعانيه المحدودة بفعل البيئة المغلقة فى صور قشـيبة وأزياء من اللفظ والعبارة تجعلها جديدة، ولقد كان كما لمسنا ذلك يحاذر من تكرار الصور فيضيف اليها بعض اللمسات الصغيرة حتى تتجـدد معالمها ، كما أنه يمتاز بالقدرة على اكتشاف المشابهة بين أشـياء تبدو للانسان العادى متباعدة ، كصورة جرعات المـاء التى تشبه القطا ؛ كما يورد هذه الصورة التى لا شك انها أثر من آثار الحضر فى شعره ، ربما سمع بها فى البصرة أو الكوفة أو شـاهدها عند أمير من الأمراء الذين تردد عليهم ، وهى صورة فتاة تلبس ثوبا بدون كمين ، وتروح بمروحتها المصنوعة من ريش الطواويس لتطرد الذباب عن وجه أمير فارسى .. ولقد شبه ذنب ناقته وهى تحركه كلما نقلت رجلا بهذه الصورة الحضرية الرائعة (١) كما أن له معرفة بالأنواء ، ومهاب الرياح وأسماء الأمكنة التى يتحدث عنها ، وخبرته بمعرفة أوصاف الحيوانات والطيور والحشرات وعاداتها كاشارته دائما الى قوة حاسة الشم عند الثيران والحمر الوحشية مثل قوله :

أمسى بوهبين مجتـازا لمرتعـه
من ذى الفوارس تدعو أنفه الربب (٢)

---

(١) أشار اليها بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى .

(٢) الربب ـ بفتح الراء المياه الكثيرة ، وبالكسر جمع ربة ما تصلح عليه الابل من نبات وهو المناسب هنا .

كما يشير الى قوة حاسة السمع عندها ، وروح الشك التى تسيطر عليها ويبدو أن هاتين الحاستين وهما حاسة الشم ؛ وحاسة السمع قويتان عند الشاعر ، فهو كثيرا ما يكرر فى شعره كلمات الأرج ولطائم المسك كقوله :

اذا استهلت عليه غبية أرجت
مرابض العين ، حتى يأرج الخشب (١)
كأنه بيت عطار ، يضمنه
لطائم المسك يحويها وتنتهب (٢)

ومى محبوبته ترش المسك على شعرها ، وترائبها ، وصدرها بل تجعله شعارا تحت ثيابها ، ولفمها رائحة عطرية محببة حتى بعد القيام من النوم ؛ واذا كان الثور الوحشى حديد السمع ؛ فهو يتوجس « ركزا (٣) ؛ بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب » ــ فان الشاعر يسمع وسط صمت الصحراء هماهم كغناء النصارى ، أو غناء محب عاشق يضرب فى رمال الصحراء .

فلاة لصوت الجن فى منكراتها
هزيز ، وللأبوام فيها نوائح (٤)

٦ ــ قدرته على اختيار الزاوية التى يلتقط منها صورة المنظر ، فحين يريد أن يشبه مية البيضاء الجسم التى تدهن بالعطر

---

(١) غبية ــ مطر غليظ ، ارجت ــ فاحت منه رائحة طيبة .

(٢) لطائم المسك ــ أوعية المسك .

(٣) ركزا ــ همسا .

(٤) هزيز ــ حفيف وسرعة كصوت الريح وسرعتها ، الأبوام ــ البوم .

والطيب ؛ بالظبية لا يشبهها بها الا وهى واقفة فى الضحى أو قرب المساء لتنكسر الأشعة الذهبية على جسمها فتطليه بلون أشعة الشمس الصفراء ، وكذلك حينما يشبه الثور الوحشى المنكمش فى ظل شجرة الأرطى ، يشبهه بعزب يلتف فى ثوبه أو قبائه ، لقد شبه امرؤ القيس جبل ثبير وقد ألبسه المطر ثوبا من العشب اليابس بعجوز يلتف فى ثوبه أو عباءته المخططة ؛ وذو الرمة هنا ؛ شبه الثور بعزب ملتف فى قبائه ومن الواضح أن نظرة ذى الرمة أدق من نظرة امرىء القيس ، لا من باب التعصب له ، وانما لأن كل انسان يعرف أن الشيخ العجوز كثيرا ما يلتف فى قبائه من البرد، وليس كل انسان يدرك أن العزب ينكمش فى نفسه وحيدا وبخاصة فى الليل .

ويفعل ذلك فى وصفه للأزهار والرياض التى كثيرا ما يصورها وهى بمعزل عن غيرها ليكون أدعى للاعجاب بها ، وقد هطلت عليها الأمطار فازدهرت وتفتحت ، ثم كفت الأمطار عن التهطال ، ولكنها تراوحها بين آن وآخر .

هذه هى خصائص فنه فى وصف الطبيعة - الى جانب ما سنتناوله بالتفصيل عن صوره وتشبيهاته ، ودقة اختياره لكلماته ؛ وتركيبه للعبارة تركيبا خاصا يسهم فى جلاء الصورة وتثبيتها فى النفس .

الباب الرابع

المديح والفخر والهجاء في شعر ذي الرمة

المديح :

لقد بلغ المديح فى عصر بنى أمية أعلى ذروته ، فكان الشعراء يترددون على أبواب الامراء ، والخلفاء ، ويتبارون فى المديح ليحصل كل منهم على أكبر قدر من عطايا الامراء والخلفـــاء ، وكان النقاد والخلفاء ذاتهم يدفعون الشـــعراء الى التنافس بنقدهم لمدائحهم ، واجزالهم العطايا للبعض دون البعض الآخر . كما فعل عبد الملك ابن مروان اذ حرم عبيد الله بن قيس الرقيات من أن يعطيه شيئا على قصيدته التى مدحه بها قائلا له :

تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وذلك فى قوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبـين كأنه الذهب

وتقول فى مصعب بن الزبير :

انما مصعب شـــهاب من الله ... تجلت عن وجهـــه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه ... جبـروت ولا به كبرياء

بل ربما كان من أسباب تلك الأهاجى التى شاعت فى ذلك العصر الى جانب الاسباب الاخرى السـياسية والقبلية هو الصراع على التقرب الى الخلفاء ؛ ونيل الحظوة لديهم وهـــذا ما كان يقلق شاعرنا ذا الرمة ، فكثيرا ما شكا من آنه لم يعامل معاملة الفحول من الشعراء .. لهذا فقد حاول أن يشارك بنصيب فى فن المديح،

فتردد على البصرة والكوفة وخراسان والشام وغيرها مادحا بعض الولاة والامراء ، ولقد مدح هشام بن عبد الملك أميرا وخليفة بثلاث قصائد ، كما عتب على عمر بن عبد العزيز حين توجه لمدحه مع من توجه فتركه واقفـا منتظرا على بابه دون أن يأذن له ، واذا كان الشعراء سواه قد قبلوا الذل والاهانة فانه لم يقبل ذلك وهو ينتمى الى بنى تميم القبيلة الشهيرة التى لولا الاسلام ما أعطت حبل مقادتها لأحد كما يقول هو فى بعض قصائده ، لهذا عتب عليه عتابا قاسيا ، واصفا كرم نفسه ، شاكيا متألما من المرض الذى حال بينه وبين التعجيل بمدحه :

وقائلة ما بال غيلان لم يلح
الى منتهى الحاجات لم تدر ما شغلى

ولو قمت مذ قام ابن ليلى لقد هوت
ركابى بأفواه السماوة والرجل

ولكن عدابى أن أكون أتيته
عقائل أوصاف يشبهن بالخبل

أتتنى كلاب الحى حتى عرفننى
ومدت نسوج العنكبوت على رحلى(١)

ومدح ابراهيم بن هشام بن الوليد بن المغيرة خال الخليفة هشام ، الذى عزل من أجله عبد الله بن عبد الله النضرى وولاه بدلا منه على المدينة ومكة والطائف بقصيدة واحدة ، كما مدح عبد الملك بن بشر بن مروان وهو ابن عم الخليفة هشام بن عبد الملك ببيت فى قصيدة طويلة عدد أبياتها تسعة وستون بيتا وهذا البيت هو :

نؤم فتى من آل مروان أطلقت
يداه ، وطابت فى قريش مضاربه

كما مدحه بأربعة أبيات فى نهاية قصيدته التى مطلعها :

---

(١) سبق شرح الأبيات .

خليـــلى عوجا عوجة ناقتيكما
على طلل بين القـــلات وشـــارع(١)

وما أظنه قد مدح عبد الملك بن مروان لأنه لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره يوم وفاة عبد الملك بن مروان الذى توفى عام ٨٦ هـ بينما ولد ذو الرمة فى العـــام السابع والسبعين من الهجرة والقصيدة التى أولها :

بكيت ، وما يبـــكيك عن رسم منزل
كسحق سبا باقى السخوم رحيضها(٢)

والتى فيها :

اليك ولى الحق أعلمت أركبـــا
أتوك بأنضاء قليل خفوضها (٣)

أعتقد أنه قد مدح بها هشام بن عبد الملك ، لا عبد الملك بن مروان كما زعم ابن يموت فى مختاراته لشعر ذى الرمة ، واذا كان قد حاول أن يمدح بعض الخلفاء وأقاربهم كعبد الملك بن بشر وابراهيم بن هشام، فلقد تردد على أكثر من واحد من الولاة والأمراء ويظهر أنه حين قعد به حظه عن التطلع الى أبواب الخلفاء رضى بمدح الولاة والقضاة ورجال الشرطة ٠

فلقد مدح من هؤلاء عمر بن هبيرة الذى كان واليا على العراق وخراسان ولاه هشام بن عبد الملك عام ١٠٤ هـ ثم عزل عام ١٠٥هـ وولى بدلا منه على هذه الاقاليم خالد بن عبد الله القسرى ، كما مدح

(١) عوجا ـ ميلا واتجها ٠

(٢) سحق ـ قديم بال ، سبا ـ ثوب من الحرير ، السخوم ـ السواد أى المنزل اسود كهذه الثياب ، رحيضها ـ غسلها ٠

(٣) أنضاء ـ ضعاف مهازيل ، قليل خفوضها ـ الخفض الراحة أى راحتها قليلة ، أعلمت ـ أخبرت وأرشدت ، اركبا ـ جمع راكب ٠

مالك بن المنذر بن الجـارود الذى كان رئيسا للشرطة فى مدينة البصرة ، ولقد كان عبد الملك بن بشر بن مروان أيضا واليا على البصرة حين مدحه ذو الرمة بقصيدته السالفة ، كما مدح المهاجر ابن عبد الله الذى كان واليا على اليمامة بقرابة ثلاث قصائد ولقد كانت احدى هذه القصائد وهى قصيدته التى مطلعها :

عفـا الزرق من مى فمحت منـازله
فما حوله صمانه ، فخمائله (١)

شكوى من عتيبة بن طرثوث الذى احتال بواسطة رومى كاتب المهاجر فسلب ذا الرمة وقومه بئرهم التى يتجمعون حولها ، معبرا عن مخاوفه من أن يحصل عليها بواسطة أكاذيبه ، وبما يقدمه للوالى من رشاوى .. فيقول :

لعـل ابن طرثـوث عتيبة ذاهـب
بعاديتى تكذابه ، وجعـائله(٢)

بقـاع منعناه ثمـانين حجة
وبضعا لنـا احراجه ومسايله (٣)

جمعنا به رأس الرباب فأصـبحت
تعض معا بعد الشـتيت بوازله(٤)

الى أن يقول :

اذا خـاف قلبى جوسـاع وظلمه
ذكرتك أخرى فاطمـأنت بلابله

---

(١) محت ـ زالت وذهبت ، صمانه ـ حجارته ، وخمائله ـ أشجاره ٠

(٢ ، ٣ ، ٤) عاديتى ـ بئرى ، تكذابه ـ كذبه فى ادعائه ، وجعائله ـ جمع جعالة ـ رشوة ومال يبذله ، منعناه ـ حميناه ، حجة ـ سنة ، احراجه ـ أحراشه ، مسايله ـ جمع مسيل للماء ، بوازله ـ أبله المسنة والمعنى اجتمعت الرباب وهو اسم قبيلة الشاعر حول هذا البئر واتحدت بعد تفرق فأصبحت تدافع عن نفسها متحدة ٠

كمـا مدح المـلازم بن حريث الحنفي ، وأبان بن الوليد ، وعبيد الله بن معمر التميمي ، وأبا غسان مالك بن مسمع الذى كان رئيسا لقبيلة بكر فى البصرة فانضم الى عبد الملك بن مروان وقت أن كانت البصرة تحت حكم عبد الله بن الزبير ، وقد كان مصعب أخوه واليا عليها ، ويظهر أنه كان فيما بعد ذا منصب وجاه ، وقد شكا منه الشاعر لأن على بابه الحراس يحولون بينه وبين القاصدين «والباب دون أبى غسان مسدود» كما مدح هلال بن أحمد التميمى الذى قتل آل المهلب، وقضى على قوتهم، وأخيرا فلقد كان أكثر تردده على بلال بن أبى بردة الذى كان واليا على شرطة البصرة عام ١٠٩هـ ، وفى سنة ١١٠ ضم له خالد بن عبد الله القسرى الامامة والقضـاء والاحداث الى ولايته على الشرطة(١) والذى يقـال عنه انه أول من أظهر الجور من القضاة، وكان يقول: ان الرجلين ليتقدمان الى فأجد أحدهما على قلبى أخـف فأقضى له(٢) وروى أنه وفد على عمر بن عبد العزيز بخناصرة فلصق بسارية من المسجد فجعل يصلى اليها ويديم الصلاة ، فقال عمر بن عبد العزيز للعلاء بن المغيرة بن البدار ان يكن سر هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراق غير مدافع فقـال العلاء : أنا آتيك بخبره فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعشاء ، فقال: اشفع صلاتك فان لى اليك حاجة ، ففعل فقال له العلاء قد عرفت حالى مع أمير المؤمنين ، فان أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ قال لك عمالتى سنة وكان مبلغها عشرين ألف ألف درهم قال فاكتب لى بذلك، فكتب له بذلك، فأتى العلاء عمر بالكتاب فلما رآه كتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وكان والى الكوفة : أما بعد فان بلالا غرنا بالله فكدنا أن نغتر فسبكناه فوجدناه خبثا كله والسلام . ويروى أنه كتب الى عبـد الحميد : اذا ورد عليك كتابى هذا فلا تستعن بأحد من آل أبى موسى على عملك .. قال أبو العباس المبرد « وكان بلال داهية لقنا ؛ أديبا » ويبدو أن بلالا هذا كان يقبل على ذى الرمة ، ويجزل له العطاء ، ولقد حاول

---

(١) الطبرى جـ ٧ .

(٢) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٢٦٨ .

بعض الحاقدين على ذى الرمة ان يصرفه عنه، فلقد قال له: «رؤبة.. علام ؟ تعطى ذا الرمة ، وهو يعمد الى مقطعاتنا فيفصلها ، فيمدحك بها، فقال : والله لو لم أعطه الا على تأليفه لأعطيته وأمر له بعشرة آلاف درهم » (١) ؛ كما قيل لذى الرمة أيضا « لم خصصت بلالا بمدحك ؛ قال : لأنه أوطأ مضجعي ، وأكرم مجلسى فحق له أن يستولى على شكرى لما وضع من معروفه عندى (٢) لذلك فقد مدحه بخمس قصائد يظهر فيها الجد والاعتناء ، والحرص على رضاه واعجابه .

اسلوبه فى المدح :

لذى الرمة ثلاثة أنواع من شعر المديح ، **أولها** هو المدح الذى يصدر فيه عن ذات نفسه ، وتحس فيه الصدق ، والانفعال وعدم التكلف ، وهذا النوع هو الشعر الذى يمدح فيه بعض الولاة أو القادة الذين ينتمون الى القبيلة التى ينتمى اليها الشاعر ، وهى قبيلة بنى تميم ، وكان الشاعر حين يمدح هؤلاء التميميين انما يمدح نفسه ، وقومه ، من ذلك مدحه لهلال بن أحمد التميمى الذى قضى على سلطان آل المهلب فى السند ، وهو يمدحه بالكرم فى بيت واحد على عادة القدامى فى المدح بالكرم ثم يأخذ فى وصف بطولته، وحسن قيادته للجند ، وقتله للأعداء وقضائه على الأزد قوم المهلب الذين كانوا ذوى عدد وعدد حتى تمنوا لو أن المهلب (لم يولد ولم يلد) ؛ وبهذا الانتصار رفع هلال مجد تميم حتى تمنت النساء أن يفدينه بالمال والولد :

القائد الخيل تمطو فى أعنتها
اجذام سير الى الأعداء منجرد (٣)

رفعت مجد تميم يا هلال لها
رفع الطرف على العلياء بالعمد (٤)

---

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٣) تمطو ـ تتبختر ، اجذام ـ اسراع ، منجرد ـ مواصل السير نحوهم .

(٤) الطراف ـ بيت من جلد .

حتى نســـاء تميـم وهى نائية
بقـلة الحزن فالصـــمان ، فالعقد

لو يستطعن اذا نابتـــك نائبة
وقينك المـــوت بالآباء والولد

تمنت الأزد اذ غبـت أمورهم
أن المهـــلب لم يولد ، ولم يلد (١)

كانوا ذوى عدد دثر ، وعائرة
من الســلاح وأبطـال ذوى نجد (٢)

فما تركت لهم من عين باقية
الا الأرامل والأيتـــام من أحـد

ويختمها بهذا الفخر الذى وصل فيه الذروة التى ما بعدهـــا ذروة :

فى طحمة من تميم لو يصــك بهـــا
ركنـــا ثبير لأمسى مائل الســند (٣)

لولا النبوة ما أعطوا بنى رجل
حبـل المقـــادة فى بحر ولا بلد (٤)

ومن المعروف أن بنى تميم كانوا أكثر القبائل ثورية وتمردا، كما أنهم من أوائل من ارتدوا عن الدين بعد وفاة الرسول ولم يعودوا الى حظيرته الا بقوة السلاح .

أما النوع الثانى : فهو المدح الذى لا ينبعث من ذات نفسه ، ولا يصدر عن غريزة الفـخر والاعتـــداد بالنفس ولكنه رغم ذلـك يحتشد له احتشادا كبيرا وهذا النوع يتمثل فى مدحه لبلال بن أبى بردة ذلك الرجل الذى وصف بأنه «أديب لبق» راوية للأشعار كثير الجدل والمناقشة للرواة والادباء كما كان كثير الضحك ولهذه الصفة

---

(١) غبت ـ تأخرت .

(٢) دثر ـ كثير ، عائرة ـ كثير .

(٣،٤) طحمة ـ دفعة كبيرة ، ثبير ـ جبل ، السند ـ ماسند منه ، المقادة ـ القيادة .

قبل منه ذو الرمة قوله : «ياغلام أعطه حبل قت لصيدح» حين مدحه ذو الرمة بالقصيدة التى يقول فيها :

رأيت الناس ينتجعون غيثا
فقلت لصيدح انتجعى بلالا(١)

وقد رأينا فيما سبق مدى اكرامه له رغم مزاعم الوشاة والحاقدين ، لهذا فقد مدحه بخمس قصائد استغرق المديح أكثر أجزائها ، ومن مظاهر اهتمامه ، واحتشاده لمدحه ، تتبعه لوصف ممدوحه بصفاته النفسية والجسدية البارزة ، فهو أبيض ، ضخم واسع العينين ، يبهر الناس بطلعته ، وهو خطيب مصقع :

اذا المنبر المحظور أشرف رأسه
على الناس جلى فوقه نظر الصقر(٢)

فسلم ، فاختار المقالة مصقع
رفيع البنا، ضخم الدسيعة والأمر(٣)

كما يصف شدته، وقوته حين ردع الثائرين فى العراق فحمى النساء العربيات اللواتى غادرهن الازواج بعد أن ذهبوا للغزو أو مطاردة الأعداء .

ونكلت فساق العراق فأقصروا
وغلقت أبواب النساء على ستر

فلم يبق الا داخر فى مخيس
ومنجحر من غير أرضك فى حجر(٤)

يغار بلال غيرة .. عربية
على العربيات المغيبات بالمصر(٥)

كما يمدح قومه ، ويصفهم بالطيبة ، والتخلق بأخلاق النبى ، والخلفاء الراشدين :

---

(١) انتجعى ـ اطلبى واقصدى .

(٢ ، ٣) المحظور ـ غير المباح ، أشرف رأسه ـ أطل على الناس . جلى ـ أظهر ، مصقع ـ فصيح بليغ ، الدسيعة ـ الأخلاق والأفعال .

(٤ ، ٥) داخر ـ صاغر ، مخيس ـ سجن ، منجحر ـ داخل فى جحره ، حجر ـ ـ ناحية ، المغيبات بالمصر ـ اللواتى غاب أزواجهن بالبصرة لأن بلالا كان أميرها .

خلفـــت أبا موسى وشرفـت مابنى
أبو بردة الفيـــاض من شرف الذكر
وكم لبـلال من أب كان طيبا
على كل باق فى الحيـاة ، أو القبر
خلال النبى المصطفى عند ربه
وعثمان والفاروق بعد أبى بكر

ولقد عودنا ذو الرمة الصدق فى التعبير عن نفسه ، بل ألزم نفسه بألا يمدح انسانا لا يستحق المديح فقال فى احدى قصائده التى يمدح بها بلالا أيضا :

ولم أمدح لأرضيه بشـعرى
لئيما أن يكون أصـــاب مالا
ولكن الـكرام لهم ثنـائى
فلا أخزى اذا ما قيـل قالا

ولعله قد تفرد بهذه الصفة الاخلاقية النبيلة عن سائر معاصريه من الشعراء الذين كانوا لا يأنفون من أن يصفوا القـاسى ، سفاك الدماء بالعدالة ، كما يصـــف الفرزدق الحجاج الذى أذل العرب ، وقتل فيهم كبرياءهم ، بل قد يهجو الشاعر قوما كبنى أمية ، ويعلن عصيانه وخلعه لطاعتهم ثم يعود ليمدحهم حين تضطره الظروف لذلك كما فعل الـكميت بن زيد الاســـدى الذى هجا الامويين ثم صالحهم ، ومثله عبيد الله بن قيس الرقيات الذى كان زبيريا ثم صار أمويا بعد ذلك .

ومن مظاهر صدقه أن مدائحه لبـــلال تدرك لأول وهلة أنها لم تصدر عن عاطفة اعجاب وانما عن رغبة فى المال مع حرص على أن يجيد فى المديح ، لهذا نجده يكرر فى القصيدة الواحدة وصفه له ولقومه بالكرم ، بل يطالبه بذلك ، فكأنه يخشى أن يحرمه من المال الذى حبر قصائده من أجل الحصول عليه ، يقول فى القصيدة السابقة :

ذخرت أبا عمرو لقـومك كلهم
بقاء الليالى عندنا حسن الذخر

أجل ، هو صادق مع نفسه ومع ممدوحيه ، فاذا كنا لا نلمس

عاطفة متدفقة فى مدائحه لبلال بن ابى بردة كالعاطفة التى تبدو فى شعره للمنتمين لبنى تميم فاننا نجد فى هذه القصائد الاهتمام ومحاولة رسم صورة للممدوح ، وحشد لكل مفاخره ، ومفاخر قومه ؛ ثم طلب عن طريق التصريح أو التلميح للعطاء ، ولقد شذت عن ذلك قصيدته التى هى آخر قصائد الديوان والتى قال عنها المبرد انها من أحسن القصائد التى مدح بها ذو الرمة بلالا ، فلقد خلت من الاوصاف العامة أو التكرار ، والالحاح فى الطلب ، وجاءت صورها وعباراتها محكمة النسج مركزة ، وقد تخيل فيها أن امرأة رأته يتردد كثيرا على البصرة فتساءلت :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة
أراك لها بالبصرة العام ثاويا

فقلت لها ، لا ان أهلى لجيرة
لأكثبة الدهنا جميعا وماليا

ولكننى أقبلت من جانبى قسا
أزورا مرءا محضا نجيبا ، يمانيا

من آل أبى موسى ترى الناس حوله
كأنهم الكروان أبصرن بازيا

وفى هذه القصيدة ، ربما لأول مرة ينتقل من وصف الناقة الى المدح ثم من المدح الى وصف الناقة ثم يعود الى المدح مرة أخرى ليختم به القصيدة ؛ حقا انه فعل مثل ذلك فى الغزل فراوح بينه وبين وصف الناقة والصحراء ومشاهداته فيها ، أما فى المدح فلم يفعل ذلك فى سوى هذه القصيدة وفى انتقاله من المدح الى الوصف أو العكس لا تشعر معه بالقصد أو التكلف وانما هو انتقال طبيعى ، انظر اليه حين أراد الانتقال الى وصف الناقة والصحراء كيف مهد لذلك فقال :

بلال أبى عِمرو وقد كان بيننا
أراجيح يحسرن القلاص النواجيا(١)

---

(١) أراجيح ـ صحراوات تتأرجح فيها الابل من السير والتعب ، يحسرن ـ تعريها من اللحم ، القلاص ـ الابل ، النواجيا ـ السريعة سميت نواجيا تفاؤلا .

فلولا أبو عمــرو بلال تزغمت
بقطر ســـواها عن ليال ركابيا(١)
اذا ما مطـــوت النسع فى دف حرة
الـــــخ . . . .

أما النوع الثالث : فهو هذا المديح الذى تدفعه اليــه الحاجة فيما يبدو أو حب مجاراة الكبار من الشعراء فهو لا يصدر فيه عن عاطفة حب أو فخر أو اعجاب كما فىالنوع الأول أو عن عاطفة ولاء كما فى النوع الثانى .. لذلك جاء شعره فى هـــذا النوع الثالث لا يمت الى المدح بصلة سوى أنه قد قاله فى شـــخص بعينه ، وذو الرمة المرهف الحس الذى كان ينشد شعره فى البصرة ودموعـــــه تسيل بغزارة على وجهه ولحيته ، وصاحب النفس الطموح الأبية ، لم يستطع أن يكذب أو يلبس شعره قناعا براقا زائفا ، وانما غلبه صدقه على رغبته ، فجاءت قصائده فى هؤلاء الذين لا يكن لهم حبا أو ولاء فاترة خالية حتى من عبارات المجاملة ، والا فماذا نقول عن شاعر يمدح خليفة بقصيدة طويلة يستغرق كل أبياتها فى وصف رحلته ، وناقته ، ومفتخرا بنفسه ، وتحمله لمشاق السفر ، ولميذكر هذا الخليفة بسوى أنه قد قصده متحملا عناء السفر ، «ولم آتك من أجل أن تعيننى فى خصومة ، ولا مستجيرا بك من جريرة مجرم ، على نجائب هى من « عطـاء الله » لا من عطاء خليفة أو أمير ، نتقى أعداءها بقبيلة رهيبة تضم بينها كل فتى مشبوح الذراعين تتقى به الحرب «شعشاع وأبيض فدغم» ولنعرض بعضا من أبياتها التى ذكر فيها الخليفة :

اليـــك أمـــير المؤمنين تعسفت
بنا البعد أولاد الجديل وشدقم (٢)

---

(١) تزغمت ـ رغت ، مطوت ـ مددت ، النسع ـ حبل تشدبه الرحال ، دف ـ جنب ناقة كريمة .

(٢) تعسفت ـ تسير على غير هدى ، الجديل وشدقم ـ فحلان تنسب اليهما الابل الكريمة .

نواشـــط من يبرين أو من حـذائه
من الأرض تعمى فى النحاس المخزم (١)

الى أن يقول :

جشمت اليك البعـد لا فى خصومة
ولا مستجيرا من جريرة مجـــرم (٢)

ولو شـــئت قصرت النهـــار بطفلة
هضيم الحشا ، براقة المتبســـم (٣)

تحن الى الدهنا بخفـــان ناقتى
وأنى الهوى من صوتها المترنم

الى ابل بالزرق أوطان أهلهـا
يحلون منها كل عليـــاء ؛ معلم (٤)

نجائب ليست من مهور أشابة
ولا دية كانت ولا كســب مأثـم (٥)

ولكن عطاء الله من كل رحلة
الى كل محجوب السرادق ؛ خضرم (٦)

تبرك بالسهل الفضاء وتتقى
عـداها برأس من تميم عرمرم

ثم يواصل الفخر بقومه فيقول :

وان تدع قيسا قيس عيـــلان يأتها
بنو الحرب يســـتعلى بهم كل معظم

كثير الحصا عال لمن فـــوق ظهرها
بهـــامة ملك يفتح الناس مقرم (٧)

---

(١) تعمى ـ ترمى بالزبد الذى يسيل على مافى أنفها من حلقات النحاس (النحاس المخزم) •

(٢) جريرة ـ جريمة •

(٣) طفلة ـ ناعمة ، هضيم الحشا ـ ضامرة الخصر •

(٤) كل علياء ـ مكان عال ، معلم ـ كالجبل وهو العلم •

(٥) أشابة ـ مختلطة •

(٦) محجوب السرادق ـ ملك لايراه الناس ، خضرم ـ كثير العطاء •

(٧) مقرم ـ سيد •

هذا هو نموذج يشبه أن يكون كاملا فى بيان معالم هذا النوع من المدح ، الذى قد يكتفى فيه ببيت من عتاب ، كما فعل مع أبى غسان مالك بن مسمع الذى لم يذكره فى قصيدته الطويلة بسوى قوله :

ان العراق لأهــلى لم يكن وطنــا
والبــاب دون أبى غسان مسدود

ومثل ذلك قصيدته التى يلوم فيها نفسه ، ويعاتب الخليفة عمر بن عبد العزيز ؛ بل يفخر بكرم نفسه معرضا أو متهما الخليفة عمر بن عبد العزيز بالشح والبخل ، ويجاهر فيها بأن مايحزنه هو سهره فى تحبير قصائد المديح الرائعة فيه .. كما يمدح عبد الملك ابن بشر بن مروان ببيت واحد فى قصيدة طويلة له هو :

نــؤم فتى من آل مروان أطلقــت
يداه ، وطــابت فى قريش مضــاربه

ويمدح هشام بن عبد الملك أيضا ببيت واحد فيقول :

الى ابن أبى العــاصى هشــام تعسفت
بنا العيس من حيث التقى الغاف والرمل(١)

بل قد يجمع بين المدح والهجاء فى القصيدة الواحدة كما فى مدحه للملازم بن حريث الحنفى الذى يمدحه فيقول :

أعاذل ان ينهض رجــائى بصــدره
الى ابن حريث ذى النــدى والمكارم

ثم ينتقل الى هجاء امرىء القيس قوم هشام المرئى الذى التحم معه فى معركة هجائية استمرت فترة طويلة فيقول :

أحار بن عمرو لامرىء القيس تبتغى
بشــتمى ادراك العــلا والمكارم

---

(١) الغاف ـ شجر بعمان .

كأن أباهـــا نهشـــل أو كأنهـــم
بشقشـــقة من رهط قيس بن عاصم

وغير امرئ القيس الروابى وغيرها
يداوى به صـــدع الثأى المتفاقم (١)

لا نحب أن نعرض نماذج لهذا اللون من المديح أكثر من ذلك • وانما نقول ان هذا اللون الأخير من المديح هو الذى جعـل نقاد الشعر ورواة الأدب يتهمون ذا الرمة بالتقصير فى فن المدح وهذا فى رأيهم من أسباب تقصيره عن أن يلحق بالفحول من آمثـــال الأخطل والفرزدق ، وجرير ، يقول ابن قتيبة : « وقالوا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها وانما وضعه عندهم أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء » (٢) ويسأل الفرزدق قائلا : فمالى لا أعد فى الفحول من الشعراء ؟ فيجيبه قائلا : « يمنعك من ذلك ذكر الأبعار ، وبكاؤك الديار » وكان الأصمعى يقول :

« انما وضع من ذى الرمة أنه كان لا يحسن أن يهجو ؛ ولا يمدح» فما السر فى انصرافه عن المدح وتقصيره ، خاصة مع هؤلاء الخلفاء والأمراء الذين أشرنا اليهم فى النوع الأخير من فن المديح ، يرجع سر ذلك ـ فى رأينا ـ الى حساسية ذى الرمة ، وعلم النفس يقرر أن السوداويين الذين يميلون الى الضمور والنحـــول كذى الرمة يكونون ذوىأنفس منفعلةمتوترة حساسة انطوائية غالبا ؛ فلميكن يروق له ما يعامل به الشعراء على آبواب الحكام والولاة لذلك كان كثيرا ما يعاتبهم عتابا هو أدخل فى باب الهجاء منه فى باب العتاب كما فعل مع الخليفة عمر ، ومع ابن مسمع •

بل قد هجا أحدهم وهو الحكم بن عوانة الوالى على خراسان لأنه عاب شعره كما يقول صاحب كتاب الأغانى ، لذلك لم يقبـــل بنفس راضية على مدحهم ، كما أنه فيما يبدو كان يأمل أن يبهرهم

---

(١) الثأى ـ الفتق •

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبه •

باتجاهه الجديد في عرض صور البادية وما فيها ؛ وقد بهر هذا الشعر سكان الباديه فدانوا يعجبون بشعره ، أما النقاد المحترفون فقد قالوا : ان شعره لا يشبه شعر العرب الا واحدة تشبه شعر العرب وهي التي يقول فيها « والباب دون أبي غسان مسدود » وقد نسى الشاعر أن هؤلاء الخلفاء والحكام أنانيون بطبعهم لا يستهويهم الا أن يشاهدوا صورهم وصور أمجادهم وبطولاتهم الزائفة غالبا في مرايا قصائد الشعراء ، ولا يروق لهم الفن الذى لا يتحدث عن ذواتهم مهما كان رائعا جديدا ، وهناك **سبب ثالث** هو أن ذا الرمة رغم فقره وحاجته حتى زعم ابن عياش « أنه كان طفيليا يأتي العرسات (١) كان ينظر الى هؤلاء الأمراء والحكام على أنهم لا يفضلونه فى شيء فقبيلته بنو تميم من أكبر القبائل العربية وقد تولى عدد كبير منها الامارة أو قيادة الجيوش ، وربما كان بعض الأمراء أقل شأنا منه ، خاصة أن علو الشأن وانخفاضه يتوقف على العائلة التى ينتمى اليها هذا الأمير أو ذاك لذلك وجدناه يهجو بعضهم ويعاتب البعض الآخر ، ويفتخر بقومه فى مجال مدح الخليفة ، وكأنه يهدده بقومه ، وقلمانجده يعود الى الواحد منهم ليمدحه مرة أخرى ولم يمدح سوى بلال الذى كان يعزه ويكرمه بأكثر من قصيدتين ، وخلاصة رأينا أن ذا الرمة يملك من وسائل النجاح فى فن المديح مالا يملكه سواه ، فهو غني بصوره ، كما كان يلم الماما واسعا بمحامد الممدوح القديمة والحديثة ، ومفاخر أجداده ، وقومه قبل أن يمدحه ثم يستعين بكل ذلك فى قصائد مديحه ، بل نجح فيما لم ينجح فيه شاعر معاصر كأحمد شوقى الذى أخذ عليه بأن ملامح من يمدحهم أو يرثيهم تكاد تختلط بملامح غيرهم حتى قيل انه قد يرثى انسانا فاذا لم يمت بدل اسمه باسم آخر قد مات ـ أقول ان ذا الرمة نجح فى رسم ملامح ممدوحيه النفسية والجسمية ؛ فاذا كان قائدا وصفه بصفات المحارب معددا معاركه وانتصاراته واذا كان قاضيا تحدث عن عدالته وتمسكه بما جاءت به الشريعة الاسلامية ، كما يذكر اسمه ولقبه وكنيته

---

(١) الاغانى جـ ١٦ .

أحيانا فى القصيدة الواحدة متعرضا لذكر صفات آبائه وأجداده وأيامهم فى الجاهلية ومفاخرهم فى الاسلام ٠٠ ان شاعرنا هذا لم يكن يعمد الى الصفات المألوفة المبتذلة ليخلعها على ممدوحه ـ حقا ان بعض قصائده لا تخلو من ذلك ولكنه يمدح كل انسان بما هو موصوف به فى الواقع ، بل ان الموقف من الممدوح والمناسبة التى مدحه من أجلها كثيرا ما تلقى ظلها على مدائحه ، لذلك أكثر من وصف المهاجر بن عبد الله بالعدالة ، ورد المظالم الى أصحابها ، وتمييزه للحق من الباطل مهما كان الخصم بليغا ذلق اللسان ، وكيف يروع الظالم وينكل به ، لأنه استعان به ذو الرمة فى استرداد البئر التى سلبها من قومه عتيبة بن طرثوث ٠٠ ولعل ما أخره عن الفحول لم يكن هو التقصير فى فن المديح أو الهجاء ، وانما لأسباب أخرى سنتبينها فيما بعد :

الفخر والهجاء :

لج الهجاء بين ذى الرمة وهشام المرئى ، ويبدو أن ذا الرمة هو الذى بدأ هذا الهجاء اذ أنه مر على قرية لامرىء القيس تدعى مرأة أو القصيبة من حوران فلم ينزلوه ولم يقروه واضطر الى أن يستظل مع رفاقه بظل ثيابهم التى نشروها على سيوفهم فهجاهم هجاء مقذعا مشهرا بهم ، ومعريا بخلهم للناس حاكيا قصته معهم ، يقول فى هذه القصيدة :

نزلنا وقد غار النهار ، وأوقدت
علينا حصى المعزاء شمس تنالها (١)
فلما دخلنا جوف مرأة غلقت
دساكر لم ترفع لخير ظلالها (٢)

---

(١) المعزاء ـ الأرض الصلبة ذات الحجارة ، غار النهار ـ جاوز الزوال أى فى ساعة القيلولة ٠

(٢) مرأة ـ اسم قرية سميت باسم قبيلة امرىء القيس قبيلة المهجو ، دساكر ـ مخادع المفرد دسكرة ٠

بنينا علينا ظل أبراد يمنة
على سمك أسياف ، قديم صقالها (١)
فقمنا ، فرحنا والدوافع تلتظى
على العيس من شمس بطىء زوالها (٢)
ولو عريت أصلابها عند بيهس
على ذات غسل ، لم تشمس رحالها (٣)
وقد سميت باسم امرىء القيس قرية
كرام صواديها ، لئام رجالها (٤)

وقد رماهم بالبخل ، كما وصف نساءهم بأنهن مرتخيات البطون ، يزيد القرط سوءا قذال الواحدة منهن ، ويبدو أن هذه القصيدة لم تكن الأولى — كما ادعى صاحب الأغانى — لأن ذا الرمة يرد على هشام الذى يفخر « بزيد » بأنه بعيد عن قبيلة زيد هذه بعد الثريا ، بينما هو أى ذى « الرمة عم زيد وخالها » ..

فخرت بزيد ؛ وهى منك بعيدة
كبعد الثريا عزها وجمالها
ألم تك تدرى انما أنت ملصق
بدعوى وأنى عم زيد وخالها

وسواء أكان هذا السبب فى نشوب الهجاء بينهما أم غيره ، فان أمر هجائهما هذا قد اشتهر ، ويقال ان ذا الرمة كان مستعليا هشاما ، متغلبا عليه الى أن رفده جرير بأبيات يرد بها على قصيدة ذى الرمة السابقة جاء فيها :

---

(١) ابراد — ثياب من الحرير والمراد أنهم استظلوا بثيابهم التى رفعوها على أسيافهم .

(٢) الدوافع — الحر الشديد .

(٣) صلابها — ظهورها ، بيهس جد الشاعر ، ذات غسل — امرأة .

(٤) صواديها — نخلها .

غضبت لرحـل من عـــدى تشمسوا
وفى أى يـــوم لم تشـــمس رحالها
وفيم عـــــدى عند تيم من العـــلا
وأيامنـــا اللاتى تعـد فعالهـــــا
وضـبة عمي يا ابن ضل فلا ترم
مساعي قوم ليس منك سجالها (١)
يماشي عـــديا لؤمها لا تجنـــه
من النـــاس ما مست عديا ظلالهـا
فقل لعـــدى تســتعن بنسائهـا
على فقـــد أغيا عـديا رجالهـــــا
اذا الرم قـــد قلدت قومك رمـــة
بطيئـــا بأمر المطلقين انحلالهـــا (٢)

فغلبه هشام ، والسبب الذى من أجله أعان جرير هشاما هذا أن هوى ذى الرمة كان مع الفرزدق لما كان بين جرير وابن لجـــأ التيمي ؛ وتميم وعدى اخوان من الرباب ؛ وأخيرا يترضى ذو الرمة جريرا قائلا له : لقد تعصبت على خالك للمرئى حيث قلت كذا وكذا ، فقال له جرير : لأنه ألهاك البكاء فى ديار مية حتى استبيحت محارمك ثم يرفده بأبيات منها :

يعـــد الناســـبون الى تميـــم
بيـــوت العز أربعـــــة كبــارا
ويهلك بينهـــــا المـرئى لغـــوا
كما ألغيت فى والدية الحوارا (٣)

هذه الأبيات التى بهرت الفرزدق حين سمعها من ذى الرمة ، فادعاها لنفسه ، وعلى كل فالتلفيق واضح فى هذا الارفاد المزعوم ، فالرواة الذين أعلوا من شأن جرير هم الذين زعموا له هـــذه

---

(١) ابن ضل ـ للرجل المجهول النسب ، سجالها ـ دلاؤها والمراد اعمالها العظيمة · لاتمت اليك بصلة ·

(٢) الرم ـ قطعة الحبل البالى وهو هنا يسخر من لقب ذى الرمة ·

(٣) سبق شرحه ·

المزاعم ، فكأن جريرا قد بلغ من الشاعرية ما يجعله بأبيات يمد بها شاعرا من الشعراء يكسب له النصر ، وأبيات ذى الرمة التى يهجو بها هشاما أقوى ، وأعنف بينما أبيات هشام التى زعموا أنها مما أمده به جرير تدور حول معنى جزئى واحد هو تعرض ذى الرمة ورفاقه للشمس المستعرة دون أن يجدوا الستر أو المأوى ، بينما تناول ذو الرمة فى هجائه قصة بخلهم ، وعرضها فى ثوب من الواقع الحى أو الخيال الذى هو أشبه بالواقع الحى ، كما استغل عنصر المقابلة والتضاد فى بيان بخلهم ، فنخلهم كريم ، وهم بخلاء ، وبيوتهم توصد عند ما يشاهدون ضيفا ، والنساء المرئيات المرتخيات البطون من الحمل والترهل لا يزين القرط قذالهن ، وانما يزيده قبحا على قبح ‥ (١) وقد مات ذو الرمة خلال تلك المعركة فزعم النـاس أن هشاما غلبه ‥ ليس من همنـا الدفاع عن ذي الرمة ، بل كنا نود لو أنه أطاع خلقه الرضى ، ونفسه الشاعرة ، ولم يطع الفرزدق أو جريرا فى تحريشهما له للاشتباك مع هشام ابن سعد بن عبد مناة الذى ينتمى مثله الى فرع من فروع بنى تميم فى هذا الهجاء ، ولكن الأدلة التى بين أيدينا من شعره تثبت تفوقه فى هذا الفن وتمكنه منه ، حقا انه كان يصنع صنيع الهجائين من أمثال الفرزدق وجرير ، ولكنه لم يكن مقلدا لواحد منهما ، بل ربما كان يتفوق عليهما فى أن أهاجيه الممتزجة بالفخر كثيرا ما كانت تعتمد على صور من الواقع « مع سخرية » يمتاز بها عن سواه ، وسنكتفى بعرض هذا النموذج من شعره الذى يهجو فيه هشاما مفتخرا بنفسه وبقومه ، وفى هذه القصيدة يعتمد على أسـلوب المفارقة فيتحدث عن معارك قومه ، وانتصاراتهم ثم يعرج الى المهجو فيجرده ويجرد قومه من مثل ذلك فبينما تثير خيولهم النقع يثير قوم امرىء القيس التراب بالفئـوس لأنهم فلاحون أو حراثون يلبسون ثياب اللؤم ويمشون بأكتاف مائلة من الارهاق والعمل ؛ والعربى يحتقر الريفى الذى يسكن القرى وهذا أثر من آثار العصر العبودى الذى يحتقر فيه السادة العمل الذى هو من شأن العبيد ،

---

(١) الاغانى جـ ١٦ .

وكثيرا ما وصفهم بأنهم ليسوا عربا فشعورهم الصهباء تشى بذلك ، كما يرمى نساءهم برجل يدعى ابن خوط يظهر أنه أمير يقيم فى قصر منيف واسع .

واذا كان أسرف فى هجاء هشام فان ذلك لم يشغله عن هجاء غيره ، ولقد كان يذود عن شعره بالتهديد بالهجـــاء ، فلقد هدد أبا عمرو بن العلاء حين أيد رأى بلال بن أبى بردة أو مال قليلا فى الرأى ، كما هجا الأعور الكلبى الحكم بن عوانة الذى كان واليا على السند وخراسان ولاه هشام ذلك عام ١٠٩ لأنه عاب عليه شعره، ويهجو رجلا يدعى موسى بهذا البيت الذى يثير الضحك والسخرية فيقول :

فسـت أم موسى فوقه حين طرقت
فمازال منها منتن الريح أبخرا (١)

وفى مجال الهجاء كثيرا ما يفخر بشعره الذى يشبهه بقطيع من الابل لا يستطيع المهجو ذوده عنه :

أحين ملأت الأرض هـدرا وأطرقت
مخافة ضـغنى جنها وأسودها (٢)
عوى مرئى لى فعصـبت رأسـه
عصابة خزى ليس يبـلى جديدهـا
فأصبحت أرميـكم بـكل غريبـة
تجد الليـالى عارها وتزيدها (٣)
قواف كشام الوجـه باق حبـارها
اذا أرسلت لم يبق يوما شرودها (٤)

---

(١) طرقت ـ ولدت بعسر وشدة .

(٢) هدرا ـ أى يهدر بشعر كالجمل والهدر صوت الجمل .

(٣) تجد ـ تجدد .

(٤) الشام ـ مفردها شامة وهى نقطة سوداء فى الوجه ، حبارها ـ أثرها ، شرودها ـ شاردها أى لايقدر أحد على ردها اذا سارت فى الناس .

توافى بها الركبـــان فى كل موسم
ويحـلو بأفواه الرواة نشـيدها (١)

هـذا لون من أهاجيه كما رأينا يمتـــاز بالجدة والابتكار فى التصوير ، والبعد عن الدوران حول المعنى التـــافه الهزيل ، كما يمتاز بالوضوح ، والاتكاء على أرض الواقع ، والاستمداد من أحداث الحاضر والماضي ؛ وبخاصة أيام قومه فى الجاهلية • يعـرض ذلك فى أثواب زاهية من التصوير والتعبير مع ايقاع موســيقى جميل يجذب اليه القلوب ، كما يستولى على الحواس •

ولعلنا نخرج من هذا العرض بأن شاعرنا لم يقصر بـه عجز عن مجاراة شعراء المديح أو الهجاء ••• وانما قصرت به أنفته ، وتقواه ؛ واقتناعه بأن تلك الصور الرائعة التى يعرض فيها مناظر الصحراء وما فيها تضمن له السبق والتقدم وتروق الحكام والرواة كما راقت لسكان البادية •• وقصر به عمره القصير ، فلقد مات فى الأربعين من عمره ؛ وقعد به عن بلوغ شأو هؤلاء المتقدمين صغر سنه ، كما كان يحســده معاصروه من الشـــعراء ، فعن صالح ابن سليمان راوية ذى الرمة « أن الفرزدق وجريرا كانا يحسدان ذا الرمة » وقال حماد الراوية « ما أخر القوم ذكره الا لحداثة سنه وأنهم حسدوه » وقد سأل الوليد بن عبـــد الملك كلا من الفرزدق وجرير عنه فشهدا بأنه « أخذ من طريف الشعر ، وحسنه مالم يسبقه اليه أحد غيره » فقال الخليفة : «أشهد لاتفاقكما فيه أنه أشعر منكما جميعا •• » ولا شك أنه لو عاش قليلا ولم يكن ربيقة كما قال الصيقل حين أنشد شعره فاستحسنه ، لكان له شأن كبير ، كما أن التعصب لشاعر دون شاعر لأسباب سياسية أو قبلية قد رفع من بعض الشعراء كما وضع من البعض الآخر •

---

(١) توافى بها الركبان ـ جاءوا بها وتناقلوها •

الباب الخامس

مميزات أسلوبه

مميزات شعره :

اذا كان الفنان الملهم يمتاز عادة بأسلوبه الخاص به ، والذى تتشكل بمقتضاه صـــوره وتراكيب تعبيراته فان ذا الرمة شاعر ذو أسلوب متفرد ، بل لا أنكر أن الذى جذبنى اليه ، وحببنى فى شعره هو ذلك الجديد فى أسلوبه ، والذى نحاول أن نتعرض له فى هذا الفصل من البحث ، والحق أن ميزات أسلوبه كثيرة ومتداخلة ، وربما كان التعرض لدراسة بعضها يحفه الخطر من حيث انه لم يتناول بالدرس من قبل بل ان بعض الظواهر كظاهرة التقديم والتأخير لا نجد لها نظيرا فى شعر شاعر آخر وهى فى حاجة الى أكثر من دراسة متخصصة .

١ ـ ظاهرة التقديم والتأخير :

بما أننا قد أشرنا اليها فى صدر البحث هذا لأهميتها وتفرده بها فلنتناولها بشىء من الافاضة .. لقد لاحظنا أن ذا الرمة خاصة حينما ينفعل وتلهث أنفاسه ، وتضـــطرب نفسه ، وتغيم الرؤى أمام عينيه ، فالشاعر الحق يكتب وهو فى شبه غيبوبة أو فى نصف اغفاءة ـ يختل فى يديه تركيب الجملة الروتينية المألوفة ، ويحدث فى تركيباته تقديم ، وتأخير ، وفصل بين المبتدأ والخبر أو الصفة والموصوف قد يطول بل قد تمر بضعة أبيات ثم يأتى بعدها الخبر أو الصفة وهو يكثر دائما من تقديم الحال على صاحبها ، حقا ان هذا جائز عند النحاة ولكنه ليس الأسلوب المألوف المعتاد ، من ذلك قوله :

لا ، بل هو الشوق من دار تخونها
مرا سحاب ، ومرا بارح ترب (١)

ومن التقديم قوله :

والهم « عين أثال » ما ينازعه
من نفسه لسواها موردا أرب

وأصل التركيب لا ينازعه أرب الى مورد سوى هذا المورد ، بل لأول مرة نجد شاعرا يقدم أداة العطف والمعطوف على المعطوف عليه فيقول :

خلاء تحن الريح أو كل بكرة
بها من خصاص الرمث كل ظلام (٢)

وتركيب الجملة هكذا كما يقول شارح الديوان : ألا حييا دارا خلاء تحن الريح فيها كل ظلام أو كل بكرة من خصاص الرمث . كما يقدم الصفة على الموصوف في قوله : «كأنه من كلى مفرية سرب» أى كأنه سرب من كلى مفرية أو قوله : «كأنه متقبى بلمق عزب» ومن ذلك تقديمه المعطوف وهو « وذا غدائر واردات » على المعطوف عليه وهو مقلد حرة » فى قوله :

تريك وذا غدائر واردات
يصبن عشاعث الحجبات سود (٣)
مقلد حرة أدماء ترمى
بحدتها بفاترة ، صيود (٤)

ومن ذلك قوله :

أللربع ظلت عينك الماء تهمل

والعبارة : أللربع ظلت عينك تهمل الماء

---

(١) تخونها ـ تنقصها ، بارح ـ ريح حارة .

(٢) سبق شرحه .

(٣،٤) واردات ـ شعر طويل ، الحجبات ـ رءوس الأوراك ، عثاعث ـ لينة كالأرض الرملية ، مقلد ـ عنق ، أدماء ـ ظبية بيضاء ، فاترة ـ ساكنة الطرف، صيود ـ تصيد القلوب بجمالها والمعنى : تريك جيدا أبيض كجيد ظبية ذات طرف فاتر صيود ، وتريك غدائر طويلة تصل الى رءوس الأوراك الممتلئة .

ثانيا ـ الفصل بين أجزاء الجملة :

وشبيه بهذا التصرف فى الجملة بالتقديم ؛ والتأخير ، ذلك الفصل بين أجزاء الجملة أو بينها وبين بعض ملحقاتها ، بل قد يستغرق الفصل بضعة أبيات كاملة ، من ذلك فصله بين الصفة والموصوف، فى البيت الذى أشرنا اليه سابقا اذ يأتى بالموصوف وبعد أربعة أبيات كاملة يأتى بالصفة ، ولا مانع من أن نورد الأبيات جميعا للاستدلال على هذه الظاهرة يقول :

ألا حبيبا بالزرق دار مقام
لى وان هاجت رجيع سقامى (١)
على ظهر جرعاء الكثيب كأنها
سنية رقم ، فى سراة قرام (٢)
الى جنب مأوى جامل لم تدع به
من العنن الأرواح غير حطام (٣)
كأن بقايا حائل فى مراحه
لقاطات ودع أو قيوض يمام (٤)
ترائك أياسن العوائد بعدما
أهفن ؛ وطار الفرخ بعد رزام (٥)

(١ ، ٢) رجيع سقامى ـ مرضى العائد الراجع ، جرعاء ـ أرض صلبة رملية ، رقم ـ نقش ، سنية ـ غالية ، قرام ـ ثوب يستتر به ، والمعنى أن هذه الجرعاء مخططة بخطوط مختلفة كنقوش تبدو فى ثوب غالى الثمن .

(٣) جامل ـ جمال ، العنن ـ حظائر الابل ، الأرواح ـ الرياح ، حائل ـ بعر مضى عليه حول ، ودع ـ خرز أبيض .

(٤) لقاطات ـ جمع لقاطة أى يلتقطه من يريد ، قيوض ـ قشر بيض .

(٥) العوائد ـ الطيور التى تريد العودة الى بيضها ، ترائك ـ هذا البيض متروك لفساده ، أهفن ـ اصابتهن الهيف أى الريح الحارة ، رزام ـ عجز عن النهوض والمعنى الى جنب مأوى للجمال قد حطمته الريح ، والبعر القديم فى هذا المكان كالخرز أو قشر بيض اليمام الذى خرج منه الفراخ ، ويئس اليمام من العودة اليه .

خــــلاء تحن الريح أو كل بـــــكرة
بهـــــا من خصاص الرمث كل ظـــــلام

فخلاء فى البيت الأخير ـ كما هو واضح ـ صفة لدار فى البيت الأول ، ويأتى بمثل هذا التركيب الغريب فيصــف دمعه الغزير « كأنه من كلى مفرية سرب » فلقد تمت الجملة بذكر ركنيها ولم تعد فى حاجة الى أية مكملات بعد ذلك ، وننتظر بعد ذلك من الشاعر أن يبدأ مستأنفا جملة جديدة ، ولكنه يفاجئنا بوصفه لكلمة « كلى مفرية » فيقول والقراء بالجر :

وفراء غرفية أثأى خوارزهـــــا
مشلشل ضيعته بينهـــــا الكتب (١)

ويفصل بين المضاف والمضاف اليه فى هذا البيت الذى يرى النحاة أن الفصل فيه ضرورة ؛ ويعلق سيبويه عليه بقوله : « فهذا الفصل قبيح » فيقول :

كأن أصوات من ايغـالهن بنـــــا
أواخر الميس أصـــوات الفراريج (٢)

ومن الواضح أن التركيب هو : كأن أصوات أواخر الميس من ايغالهن بنا أصوات الفراريج ومثله قوله :

نضـــــا البرد عنه فهو ذو من جنونه
أجارى تسهاك وصوت صلاصل (٣)

والتركيب المألوف : فهو ذو أجارى « كما يفصل بين « لم » الجازمة والفعل الذى دخلت عليه فيقول :

« كأن لم سوى أهل من الوحش تؤهل » وسيبويه يعلق على مثل ذلك قائلا :

---

(١) وفراء ـ واسعة ، غرفية ـ مدبوغة بالغرف (اسم نبات) ، أثأى ـ أفسدها، خوارزها ـ خائطوها ، مشلشل ـ سائل .

(٢) الميس ـ شجر تصنع منه الأعواد التى توضع على ظهر البعير ليحمل عليها .

(٣) تسهاك ـ سرعة جرى .

والكلام منه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، والمستقيم القبيح أن تضع اللفظ فى غير موضعه نحو : قد زيدا رأيت (١) .

فما السر فى تبديله لتركيب الجملة المألوفة ، وتغييره فيها بالتقديم والتأخير والفصل بين أجزاء الجملة فصلا يطول أحيانا كثيرة ، ويكون أحيانا بين مالا يمكن أن يفصل بينهما كالفصل بين « لم » التى لا تدخل الا على الفعل المضارع ، وفعلها ، وكالفصل بين المضاف والمضاف اليه ، يمكننا فى ضوء هذين البيتين اللذين يمدح بهما بلال بن أبى بردة ، واللذين قد عيبا عليه ، فقيل انه اقتدى فيهما بأثر غيره ، فأساء التعبير : يمكن أن نتعرف على السر .. يقول ذو الرمة :

كأن الناس حين تمر حتى
عواتق لم تكن تدع الحجالا (٢)
قياما ينظرون الى بلال
رفاق الحج أبصرت الهلالا

نجد أن فكرة الشاعر التى يريد أن يعبر عنها تنمو وتتكامل أثناء التعبير عنها ليس قبل ذلك : فحين يقول « كأن الناس حين تمر » يرى أن المبالغة لا تتم والصورة لا تكتمل الا بابراز العواتق من خدورهن لمشاهدة موكب الممدوح ؛ فبدون صقل وصناعة يضيف « حتى عواتق لم تكن تدع الحجالا » كما يضيف الى البيت الثانى قوله « رفاق الحج » التى يخلو منها البيت الذى تأثره أو تأثر معناه كما يقولون وهو :

.... كأنهم يرون به الهلالا

ولا شك أن رفاق الحج أكثر تطلعا وتشوقا الى رؤية الهلال من غيرهم خاصة اذا كانوا برؤيته يفطرون من صيام ويعجلون بأداء شعيرة من شعائر الحج أو يرتحلون .

---

(١) كتاب سيبويه ج ١ صفحة ٣٦ .

(٢) عواتق ـ فتيات جميلات ، الحجالا ـ البيوت .

وفى البيتين السابقين (١) « ومن حاجتى ، لولا التنائى الخ .. نجد نموا من نوع آخر ، فهو ليس نموا فكريا وانما هو نمو نفسى ؛ أو ما يشبه التذبذب النفسى . فهو يقول : « ومن حاجتى » وفى نيته أن يتبعها بقوله : « منحت الهوى » لكنه يتردد نفسيا ؛ أى حاجة تلك التى ترغمه على أن يمنح هواه من ليس بالمتقارب؟، فيضيف ما يشبه أن يكون استداركا وهو « لولا التنائى » أى بسبب هذا التنائى ؛ ولكنه ليس بالشخص الضعيف الذى ينتقل بهواه وراء كل انسان ، وان كان بعيدا بوده عنه أو بمكانه وشخصه ، فأضاف اضافة أخرى هى « وربما » ولا شك أن كل اضافة منهما لا يمكن للنفس الشاعرة المرهفة أن تستغنى عنها أو تتناساها فى مجال التعبير النفسى الدقيق الذى يجرى فى مسارب الذات ويعبر عما فيها من قلق أو تردد أو اضطراب ؛ ممتزج باحساسات أخرى من الرغبة والحنين ؛ والخوف ، من اثارة غضب أو سخط من يحب؛ وقد يحدث أن تتسابق احساساته النفسية لروعة أجزاء ما يصف ، فهو يريد أن يعبر عن جمال عنق محبوبته فيقول « تريك » فقط ، ويقفز الى بؤرة الشعور اعجابه بشىء آخر لا يقل جمالا عن الاول بل يتفوق عليه فيعدل عن الأول الذى كان مقدرا له فى بناء العبارة أن يكون معطوفا عليه ليقدم الشىء الجديد الذى قفزت ذكراه الى نفسه قفزا سريعا لم يدع له مجالا للتراجع فيقول :

تريك ؛ وذا غدائر .. واردات
يصبن عثاعث الحجبات ؛ سود
مقلد حرة أدماء ترمى
بحدتها بفاترة صيود

وبمثل ذلك يمكن أن نعلل للفصل بين المضاف والمضاف اليه فى قوله : «كأن أصوات من ايغالهن بنا» الخ .. ومن قبيل التذكر العقلى عطفه « وحولا » على « كأن القطر والريح غادرا » فهو بعد استكمال أجزاء الجملة تذكر عاملا ثالثا قد ذهب بآثار هذه الديار

---

(١) البيت هو :

ومن حاجتى لولا الثنائى وربما   منحت الهوى من ليس بالمتقارب

وهو مرور حول على الارتحال عنها فأضاف « وحولا » ليستكمل كل أجزاء الفكرة التى يعبر عنها، ومن عادته دائما فى صوره تتبع الأجزاء الصغيرة والدقيقة لرسم ملامح الصورة ، أما تأخيره الخبر بعد أبيات ، أو الفصل بين الجار والمجرور ومتعلقه أو بين الصفة والموصوف فلأسباب تكنيكية غالبا ، فهو يؤخر مثلا الجار والمجرور لأن مفعول الفعل المتعلق فى حاجة لاضافة بعض الصفات اليه لرسم ملامحه ؛ فيؤخر لأجل ذلك الجار والمجرور الذى سينتقل به الى شىء جديد هو « ريح الخزامى » التى تحملها الرياح المتعبة اللواغب ؛ لكن ذلك لا يمنعنا من أن نوافق بعض اللغويين والنقاد القدامى فى أنه ربما يلجأ الى ذلك أحيانا ليستقيم له الوزن ، من ذلك قوله : « ألربع ظلت عينك الماء تهمل » فتقديم المفعول به على الفعل فى هذه العبارة لا سبب له ؛ فى رأينا ـ سوى اقامة الوزن لذلك جاء تركيب البيت ركيكا، كما قد يفصل أحيانا ليجتذب اليه النحاة واللغويين الذين كان الشعراء يحبون أن يستشهدوا بأشعارهم فتزداد ذيوعا ، بل هدد بعض الشعراء الرواة اللغويين بالهجاء ليرغموهم على رواية أشعارهم والاستشهاد بها لذلك تألم ذو الرمة حين أجاب أبو عمرو بن العلاء بلال بن بردة على سؤاله :

هل تروون لذى الرمة ؟ فقال : نروى له على تضعيف .. فقال ذو الرمة له : « لولا أننى رأيتك تحتطب فى حبله لهجوتك » من هذا الفصل السابق بين « لم » والفعل « تؤهل » بسوى ؛ والفصل بين المضاف والمضاف اليه فى قوله « فهو ذو من جنونه ـ أجارى » ولقد أورد ابن طباطبا عددا من هذه التركيبات التى يراها غير مستقيمة ودعا شداة الأدب الى عدم التأثر بها فقال : فأما هذه الأبيات المستكرهة الألفاظ ؛ المتفاوتة النسج ؛ القبيحة العبارة التى يجب الاحتراز عن مثلها (١) ثم يسوق شواهد على ذلك لشعراء مختلفين منهم ذو الرمة فى بيته « كأن أصوات من ايغالهن بنا ـ أواخر الميس » البيت .

---

(١) معيار الشعر ص ٤٠ .

ثالثا : الصورة الشعرية :

عن « حماد أن أحسن الناس (١) تشبيها فى الجاهلية امرؤ القيس ؛ وأحسنهم تشبيها فى الاسلام ذو الرمة » وكان ذو الرمة يعرف ذلك فى نفسه ، ولقد قال مرة اذا قلت كأنه ثم لم أجد مخرجا فقطع الله لسانى « وعن محمد بن سلام » كان لذى الرمة حظ فى حسن التشبيه لم يكن لأحد من الاسلاميين .. » .

والحق ما قال هؤلاء النقاد ، فذو الرمة فى الكثير من شعره يرسم لوحات واسعة (٢) يضع بعضها بجانب البعض الآخر فى القصيدة الواحدة ؛ وربما لا تربطها فى القصيدة الواحدة سوى أنها صور شعرية أو لوحات فنية معروضة فى صالة عرض واحدة ؛ وتحمل سمات شخص بعينه ، وهو فى رسم هذه اللوحات الكبيرة يستعين بأداتى التشبيه والاستعارة لتلوين وتظليل لوحاته هذا الى جانب التصرف فى تكوين العبارة والموسيقى وغير ذلك وهو يستعين بالتشبيه أكثر من الاستعانة بالاستعارة ؛ بل أغلب تشبيهاته من النوع الذى تذكر فيه الأداة وهى كأن غالبا ؛ والاستعارات تكثر فى شعره حين ينفعل بعنف ، وتختلط فى مخيلته المرئيات ، فلا يستطيع أن يفصل بين ما هو حقيقى وما هو خيالى ويظهر ذلك واضحا فى غزلياته حين يشتد به الهيام . ومثل ذلك الكناية وهى قليلة فى شعره :

ومن كناياته قوله :

صمت الخلاخيل خود ليس يعجبها
نسج الأحاديث بين الحى والصخب (٣)

ومن الاستعارات الرائعة قوله :

---

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) أشار الى ذلك الدكتور شوقى ضيف فى بحثه القيم عن ذى الرمة فى كتاب التطور والتجديد فى العصر الأموى .

(٣) خود ـ شابة ناعمة جميلة .

تراءى لنا من بين سجفين لمحة
غزال أحم العين بيض ترائبه (١)

وهو فى استعاراته وصوره عامة يميل الى التجسيم والتشخيص مع ميل للتلوين بالألوان الزاهية ، انظر اليه وقد جعل للريح ذيلا منمنما لما يثيره من رمال وبقايا أعشاب يابسة :

والركب تعلو بهم صهب يمانية
فيفا عليه لذيل الريح نمنيم (٢)

والليل : « قد صبغ الحصى بمدآد » ومن التشخيص تلك الشمس الحيرى (والشمس حيرى (٣) لها فى الجو تدويم) وحين توشك أن تغرب تشبه حال انسان يعاني سكرات الموت :

فلما رأين الليل ، والشمس حية
حياة الذى يقضى حشاشة نازع

والليل شجر أسود :

أكلفه أهوال كل تنوفة
لموع ؛ وليل مطلخم غياطله (٤)

بل الليل كطائر يحط حتى يلمس الأزهار بقوادمه : « دنا الليل حتى مسها بالقوادم » والنجوم تعوم فى السماء :

تجوز منها زائر بعد ما دنت
من الغور أرداف النجوم العوائم (٥)

والشعر ينسدل على غصن من أغصان البان :

وذو غدر فوق الذنوبين مسبل
على البان ، يطوى بالمدارى ويسرح

---

(١) سجفين ـ السجف ـ الستارة ، أحم العين ـ اسود العين ، الترائب ـ عظام الصدر .

(٢) صهب ـ ابل يضرب سوادها الى حمرة ، فيفا ـ المستوى من الأرض نمنيم ـ منقوش .

(٣) تدويم ـ وقوف .

(٤) مطلخم ـ أسود ، غياطله اشجاره .

(٥) تجوز ـ اجتاز وأقبل ، أرداف ـ أواخر .

وللريح أنفاس ضعيفة متعبة :

بريح الخزامى هيجتهـــا وخبطة
من الطـل أنفاس الرياح اللواغب

وفى الفجر يغبش الليل مصابيحه :

الى نضوة عوجاء والليـــل مغبش
مصابيحه ؛ مثل المها واليعـــافر (١)

والنجوم مصابيح ذات عيون ضيقة ضعيفة :

مصابيحـــه خوص العيون كأنهـــا
قطـــا خامس ، أسرابـــه متيمم

والمسافرون يقتاتون الأحاديث يتلهون بها أو يقطعون بهـــا الوقت « وغبراء يقتات الأحاديث ركبها » وللأرض سنام » منعنـــا سنام الأرض .. « وللرمل أنف « وان حبا من أنف رمل منخر » وللنسيم روح تهلك :

وقف كجلب الغيم يهلك دونـــه
نسيم الصبا واليعملات العواقد (٢)

لقد حاولت أن أعرض نماذج لصور من استعاراته ؛ لأن النقاد القدامى قد أفرطوا فى الحديث عن التشبيه عنده افراطا يوهـــم بأن كل صوره لا تتعدى لونا واحدا هو أقلها جمالا فى رأى البلاغيين وأعنى به التشبيه ؛ حقا ان التشبيهات فى شعره أكثر ؛ ولكن ذلك لا يمنع من ان الاستعارات تكثر فى شعره أيضا خاصة حين لايقصد التصوير قصداً ؛ وانما يندمج فى موضوعه ، ويعيش فى داخله :

وهو فى صوره عموما يميـــل الى **التركيز** ، كما يميـل الى **الاستيعاب** ، ولا منافاة بينهما فالمراد بالتركيز البعـد عن ترهل الصورة ؛واضافة الذيول اليها،وذلك يمكن مع استيعاب كل الأجزاء الضرورية لرسم الصورة ؛ فمن تركيزه هذه الصورة التى يريد أن

---

(١) نضوة عوجاء ـ ناقة هزيلة ، مغبش ـ مطفىء ، المها ـ البقر الوحشى ، اليعافر ـ مفردها يعفور وهو ـ الغزال لونه لون تراب الأرض .

(٢) قف ـ أرض غليظة ، جلب الغيم ـ أوله ومقدمته ، اليعملات ـ الابل ، العواقد ـ القويات .

يشبه فيها العذارى الجميلات بالظباء ، والجآذر فى وقت واحد فلم يلجأ الى تعداد المشبه به ؛ وانما ألف صورة جديدة تجمع بين أعناق الظباء ومحاسنها الأخرى وبين عيون صغار البقر الوحشى ، فقال :

وتحت العوالى ، والقنا مستظلة
ظباء أعارتها العيون الجآذر

وقد ظن الدكتور شوقى ضيف (١) خطأ أن الشاعر يصف نساء أسيرات لأنه قد قرأ البيت منفصلا عن القصيدة .

والشاعر يتحدث عن محبوبته مى وأترابها وقد ارتحلن الى أماكن أخرى بعد أن تعذرت الحياة فى ديارهن ؛ وقد سرن يحدوهن ويحميهن شباب القبيلة برماحهم أو هن تحت أعواد الهودج التى تشبه العوالى والقنا ؛ وقبل هذا البيت :

فقد أورثتنى مى مثل الذى به
هوى غربة ، دانى له القيد قاصر

ومن الاستيعاب تشبيهه الفجر وقد بدا فى أخريات الليل وقد بقيت من الليل بقية بحصان أبيض البطن مال جله الذى يغطى به ظهره قليلا ؛ واللون أشقر ، فهنا لونان هما عمود الصبح الأبيض وبقايا من الليل شقراء لاختلاط بياض الصبح فيها وحمرة الأفق بسواد الليل :

وقد لاح للسارى الذى كمل السرى
على أخريات الليل فتق مشهر
كلون الحصان الأنبض البطن قائما
تمايل عنه الجل ؛ واللون أشقر

ويميل بشكل واضح الى رسم **الصور الحركية** ؛ بل لا يحب أن يلتقط صورة المنظر بريشته الشاعرة الا وهو فى وضع متحرك ، يصور الثور وهو يقاتل الكلاب، وتقاتله ، والنعامة وهى تسرع مذعورة

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الاموى .

على فراخها بعد أن أقبل الظلام ؛ واكفهر الجو ؛ والقطا وقد شرب فهو عائد ممتلىء الحواصل بالماء ، والرجل أثناء تحركها « ورجل كظل الذئب » وحين تسير الناقة :

تموج ذراعاها ؛ وترمي بجوزها
حذاراً من الايعاد ؛ والرأس مكمح (١)

وفى سراب الصحراء يبدو كل شيء يتحرك فالابل كزوارق تسبح في نهر دجلة : » قراقير فى صحراء دجلة تسبح » وقنن الجبال تبدو كل واحدة منها كأنها فرس كميت يبارى الخيل فى الجرى :

ترى القنة القوداء منه كأنها
كميت يبارى رعلة الخيل فارد (٢)

والجبل وهو يرتفع وينخفض كفرس أعرج يتبع الخيل « أحوى يتبع الخيل ظالع » ومن أروع صوره الحركية تلك اللوحة التى يرسمها لقطيع من الحمير الوحشية ، حين انشق عمود اللوحة أبصرت جداول تترقرق كالسيوف البيضاء اللامعة ، ففرحت وأخذت تحوم حول الماء ثم تنظر اليه من كل جانب ، وتنفض أوتهزأذنابها مبتهجة ثم شرعت تصف خدودها الواحدة بجوار الأخرى خائضة فى الماء الى نصف سيقانها وأخيرا أخذت تشرب جرعات من الماء كظهور القطا المتتابع ؛ بعضه فى اثر بعض :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت
جداول أمثال السيوف القواطع
فلما رأين الماء قفرا جنوبه
ولم يقض اكراء العيون الهواجع (٣)

---

(١) جوزها ـ وسطها ، مكمح ـ مرفوع .

(٢) القنة القوداء ـ القمة العالية ، رعلة ـ رعيل أى عدد كبير ، فارد ـ ينفرد .

(٣) قفرا جنوبه ـ لايوجد حوله أحد ، ولم يقض اكراء العيون الهواجع ـ اكراء ـ نوم ، والهواجع ـ النائمة . والمعنى أنه كان ذلك ولم تزل فى الليل بقية ، فالنائم لم يستيقظ من نومه .

فحومن ؛ واستنفضن من كل جانب
وبصبصن بالأذناب حول الشرائع (١)

صففن الخدود ، والنفوس نواشـــز
على شط مسجور، صخوب الضفادع(٢)

فخضخضن برد الماء حتى تصوبت
على الهول فى الجارى شطور المدارع(٣)

يداوين من أجوافهـــن حــرارة
بجرع كأثباج القطـــا المتتابع (٤)

لقد حملت هذه الأبيات كل سماته التصويرية ؛ من دقـــة واستيعاب ؛ الى تصوير حسى ونفسى (على الهول ، النفوس نواشز) والجو الذى يحيط بالمنظر ، كل شىء هادىء حول الماء ؛ وهى عطشى والضفادع فقط هى التى تنق فى الماء وتصخب ٠٠ ان الانســان ليعجب كيف تأتى له أن يرسم هذه الأجزاء الدقيقة بتلك العناية ؛ فكل شىء فى اللوحة محدد تحديدا دقيقا انظر اليه وقد حدد المكان الذى بلغه الماء من سيقانها اذ لم يتجاوز أنصاف مدارعها ، ويرسم لوحة للنعامة وهى ترعى ؛ فهى تطول وتقصر :

وكم نفرت دونـــك من صـــوار
ومن خرجاء مرئلة وخـــود (٥)

---

(١) استنفضن ـ نظرن ، بصبصن ـ حركت أذنابها ، الشرائع ـ جمع شريعة أى منهل الماء ٠

(٢) نواشز ـ خائفة ، مسجور ـ مملوء ٠

(٣) خضخضن ـ حركن الماء ، تصوبت ـ انحدرت ، شطور المدارع ـ أنصاف القوائم : والمعنى حركن الماء ثم خضن فيه الى أن تغطت بالماء أنصاف القوائم منها ٠

(٤) أثباج ـ ظهور ٠

(٥) صوار ـ قطيع من البقر الوحشى ، خرجاء ـ نعامة فيها سواد وبياض ، مرئلة ـ لها رئال وهى أفراخ النعام ، وخود ـ الوخد نوع من السير وهو اتساع الخطو فى السير ٠

تقاصر مرة ، وتطول أخــرى
تسف المرو أو قطع الهبيــد (١)
وان نظـرت الى شــبح أمجت
كامجــاج المعبدة ؛ الشــرود (٢)

ولما كان صاحب ذاكرة واعية وعين لاقطة ، وقـــدرة على التأليف ـ رأى مشابه بين أشياء لا يرى فيها انسان سوى ذى الرمة أى تشابه أو التقاء ؛ فكأن كل ما فى الحياة أرضها وسمائها ؛ من مناظر جمعت في وعاء أمام عينيه ؛ يختار منه ما يشاء لما يشـــاء بل ان بعض الصور يفاجأ بها القارىء فيذهل ، من هذه الصــور الغريبة ، صورة الفجر وهو يسوق أمامه الثريا ، وهذه صــورة يمكن أن تكون عادية ولكن الشاعر يجعل الفجر يسوقها بملاءتــه أو لافا اياها فى ملاءته البيضاء الشفافة فيقول : « وساق الثــريا فى ملاءته الفجر » «والخد الناعم كمرآة الغريبة» وخد كمرآة الغريبة اسجح « وأرض محبوبته عطرية الأنسام فكأن العطر يخوض فى برد أنفاسها فى الليل :

تطيب بها الأرواح حتى كأنمــا
يخوض الدجى فى برد أنفاسها العطر

والكلاب تنقض على الثور « أمثال الزنابير » وللثور جبهة ، والليل حين ينصرم كرواق يتهدم :

حتى اذا الدجى مـــالت أواخـــره
مثل الرواق ، ولاحت جبهة النـــور

ويشبه عين الناقة وقد ارتسمت صورتها فى ماء الجـــدول بميم ..

كأنما عينهـــا منها وقد ضمرت
واحتثها السير فى بعض «الأضا» ميم

والجندب يغرد فكأن له طنبورا يعزف عليه :

---

(١) تسف ـ تأكل ، المرو ـ الحجارة الصغيرة ، الهبيد ـ الحنظل المكسر .
(٢) أمجت ـ ابتعدت ، المعبدة ـ الجربى المبعدة عن بقية الابل .

يضحى به الأرقش؛الجون القرا غردا
كأنه زجل الأوتار ــ مخطـــوم (١)

وينكمش الثور من الخوف والبرد فيشبه العـــزب المتقبى بقبائه « كأنه .. متقبى يلمق عزب» ولعمق نظرته فى الحياة ، وعمق انسانيته واتساعها يرى الكون شيئا واحدا فسيان عنده أن يشبه المرأة بالظبية أو البقرة الوحشية أو يعكس فيشـــــبه البقرة الوحشية أو الظبية بالمرأة ؛ من ذلك تشبيهه الرمل بأوراك العذارى فيقول :

ورمل كأوراك العذارى قطعتـــه
اذا جللته المظلمات الحنـــادس (٢)

وعمود الصبح جيد ولبة :

كأن عمود الصـــبح جيـد ولبة
وراء الدجى من حـــرة اللون حاسر

وللحب ورق أخضر يذبله الهجران » .

اذا الهجر أودى طوله ورق الهوى
من الالف لم يقطع هوى مية الهجـــــر

والصحراء مثل كف المشترى غير أنها وأسعة :

ودو ككف المشـــترى غير أنـــه
بساط لأخفاف المراسيل واسع (٣)

والبقر والظباء ، كالنجوم أو ذبالات مضاءة :

بها العين والآرام فوضى كأنهـــا
ذبال تذكى أو نجوم طوالع (٤)

---

(١) الجون ــ الأسود ، القرا ــ الظهر ، زجل الأوتار ــ طنبور ، مخطوم ــ مشدودة عليه الأوتار .

(٢) الحنادس ــ الظلمات الشديدة .

(٣) دو ــ صحراء لها دوى من شدة مافيها من صمت .

(٤) العين ــ البقر الوحشى المفرد عيناء ، الآرام ــ الظباء المفرد رئم ، فوضى منتشرة ، تذكى ــ تشعل وتوقد .

والنجوم كالبقر والظباء :

وردت وأرداف النجـــوم كأنهـــا
وراء السماكين المها واليعـــافر (١)

« ولقد أخذ عليه قوله يصف الكلاب ..

حتى اذا دومت فى الأرض راجعـــه
كبر ، ولو شاء نجى نفســـه الهرب

قالوا والتدويم انما هو فى الجو ؛ يقال دوم الطائر فى السماء اذا حلق ، واســـتدار فى طيرانه ؛ ودوى فى الأرض اذا ذهب .. لكن مثل ذى الرمة الذى تختلط فى مخيلته المرئيات ، وتتشابه؛ وكثيرا ما تمثل الأرض سماء ، والبقر والظباء نجوما تسبح فيهـــا لا يقاس فنه بالمقاييس اللغوية الجامدة ، لقد تجلى فى مخيلته أن هذه الـكلاب وهى تلف وتدور طيور تحلق وتدور فعبر عن دورانهـــا والتفافها بفعل يستعمل عادة للتحليق فى الفضاء والدوران فيها .. ومن الصور الغريبة تصويره لقلوب الخائفين بأنها قد هوت فى خوافى أجنحة الطير ؛ وتعبيره «بهوت» و « فى خوافى » و « مطعمـــات لوامع » كل ذلك خطوط وألوان تلتقى فى رسم صورة الفزع ؛ فالقلب الخائف يهوى « ويختبىء فى مكان خفى ؛ والمطعمات اللوامع هى الطيور التى تطير بسرعة كالنسر والعقاب فأجنحتها تهتز بسرعة واستمرار ؛ ومن أغرب وأعجب الصور هذه الصورة التى يتحدث فيها عن الناقة وهى تقطع المسافات واللحظات الزمنية يطلع عليهـــا نجم ثم يغيب فيطلع آخر وهكذا فيقول :

اذا اغتبقت نجما ، فغار تسحرت
علالة نجم آخـــر الليل طـــالع

والغبوق هو شرب الخمر مساء وضده الصبوح ، فكأن النجم اللامع كأس من الخمر تغتبق به الناقة فى بدء سيرها وتتســـحر

---

(١) السماكان ـ نجمان نيران (الاعزل والرامح) ، اليعافر ـ الظباء .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبه .

بآخر فى آخر الليل ، لقد أخذ ذو الرمة ينشد احدى قصائده التي يصور فيها رءوس رفقة السفر ؛ وهى تهتز وتنحنى من الاعياء والمام النوم بها فجعلها ظلعا أى عرجا والعرج عادة توصف به الأرجل لا الرءوس ، لهذا صاح به أعرابى قائلا : ما رأيت أحدا أظلع الرأس غيرك فقال ذو الرمة : نعم واستمر فى انشاده ا

اذا انجابت الظلماء أضحت رءوسها
عليهن من طول الكرى وهى ظلع (١)

هذه صورة غير عادية صدرت عن شاعر غير عادى ؛ ومثل هذا الشاعر والشعر كثيرا ما يتنكر له زمنه الذى لم يعتد سماع مثل هذا الجديد الذى جاء به .

ان شاعرنا يتجنب دائما التعبير المباشر حتى كأن بينهما عداء ، ويلجأ فى تعبيره الى الصور ، حتى اذا أراد ذكر الحيوانات فهو لا يذكرها بأسمائها ، وانما يذكرها بصفاتها ويدعك أنت تستشف من الصفات معرفة نوع هذا الحيوان أو غيره من الموصوفات ؛ فحين يريد أن يصف الثور مثلا يفاجئك بهذه النقلة اليه :

أذاك أم نمش بالوشى أكرعه
مسفع الخد، غاد، ناشط، شبب(٢)

ومن المامك بهذه الصفات والتى تليها تدرك أنه يتحدث عن الثور الوحشى ؛ وكذلك يفعل حين يصف الحمار الوحشى فيقول :

وثب المسحج من عانات معقلة
كأنه مستبان الشك أو جنب (٣)

---

(١) الأغانى جـ ١٦ والظلع ـ العرج .

(٢) نمش ـ منقط ، أكرعه ـ قوائمه (أرجله) ، مسفع الخد ـ أسود ، شبب ـ شاب قوى .

(٣) المسحج ـ الحمار المعضض ، عانات معقلة ـ جماعات وقطعان الحمر الوحشية بهذا المكان ، مستبان الشك ـ فيه عرج طفيف ، جنب ـ مريض بجنبه .

يحدو نحائص أشباها محملجة
ورق السرابيل ، فى ألوانها خطب (١)

وتلتقى كلاب الصيد بالثور فى معركة ضارية ؛ فيرسم لك ملامح هذه الكلاب دون ذكرها فيقول :

هاجت له جوع ، زرق ، مخصرة
شوازب ، لاحها التغريث والجنب (٢)
غضف ، مهرته الأشداق ، ضارية
مثل السراحين، فى أعناقها العذب(٣)

ويلوح الصبح ، فيعبر عنه هكذا :

ولاح أزهر مشهور بنقيته
كأنه حين يعلو عاقرا لهب

ولقد أدى به ذلك فيما بعد الى نظم أحجية شعرية ؛ أطلق عليها « أحجية العرب » ، يذكر فيها ملامح أشياء ثم يدعك تستنتج ما هى ، ومن أبياتها قوله :

وسقط كعين الديك عاورت صاحبى
أباها وهيأنا لموقعها وكرأ (٤)
مشهرة لا يمكن الفحل أمها
اذا نحن لم نمسك بأطرافها قسرا(٥)
أخوها أبوها ، والضوى لا يضرها
وساق أبيها أمها اعتقرت عقرا (٦)

---

(١) يحدو ـ يسوق أمامه ، نحائص ـ اتنا وحشية ، محملجة ـ شديدة ورق السرابيل ـ وبرها كالرماد فى اللون ، خطب ـ خضرة تضرب الى السواد .

(٢) مخصرة ـ كلاب ضامرة ، شوازب ـ يابسة ، لاحها ـ غيرها ، التغريث ـ العطش ، الجنب التصاق رئته من العطش .

(٣) غضف ـ المفرد أغضف أى مائلة الآذان الى الأقفية ، مهرتة الأشداق ـ واسعة الأفواه ، السراحين ـ الذئاب ، العذب ـ سيور تشد فى أعناق الكلاب .

(٤) سقط ـ أى النار ، أباها ـ الزند .

(٥،٦) الفحل ـ الزند ، أخوها أبوها ـ أخو الزند ، ساق أبيها أمها اى أنهما من شجرة واحدة هى شجر المرخ .

والمراد بذلك « الزند » ، التى يقدح منها النار ؛ هـــــذه الأحجية وغيرها عمل عقلى متكلف لا يلمس فى القارىء وجدانه؛ ولا يهز مشاعره . وبالرغم من أن عددا كبيرا من صوره وتشبيهاته لا ترسم ملامح الموصوف من الداخل ، كما تعكس احساس الشاعر الا أن عددا غير قليل منها نستشف فيه روح الشاعر ونفسيته ؛ من ذلك قصر الزمن مع حبيبته حين يغيب الغيور أبوها أو زوجها :

اذا غاب عنهن الغيور وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك
تهللن واستأنســـن حتى كأنمـــا
تهلل أبكار الغمـــام الضواحك

وأيام اللهو جميلة قصيرة كظل الكرم :

فدع ذكر عيش قد مضى ليس راجعا
ودنيـــا كظل الكرم كنا نخوضهـــا

وهذه الصور المتألقة الباسمة تكشف عن نفس راضية ؛وقلب مبتهج :

كأن أدمانها ، والشمس جانحـــة
ودع بأرجائها فض ، ومنظـوم (١)
يضحى به الأرقش الجون القرا غردا
فى لحنه عن لغات العرب تعجيـم

لكنه حينما لا ينفعل يأتى ببعض الصور التى يتشابه فيهـــا طرفا التشبيه تشابها خارجيـــا لا نفسيا من ذلك تشبيه الدموع « بفرائد خانتها سلوك النواظم » فحبات الدر المنفرطة الجميـــلة لا تشبه تلك الدموع الحزينة ؛ والبلاغيون وان لم يكونوا اشترطوا المشابهة التامة الا أنهم جعلوا من شروط التشبيه البليغ أن يتشابـــه فيه الطرفان فى أكثر صفاتهما وكشبيهه بيض النعـــام بجماجم انفلقت أو « حنظل خرب » وصغارها سود « كأنها شامل أبشارها جرب »وقد يأتى بصور متتابعة متكلفة ، وذلك حين يريد أن يظهر

---

(١) ادمانها ــ ظباؤها البيض ، فض ومنظوم ــ منثور ومنظوم .

براعته فى التصوير • وأخيرا فان مما يميز شاعرنا عن سائر شعراء عصره كجرير والفرزدق وأضرابهما هو تعبيره بالصورة • وبغضه الواضح للتعبير المباشر ، وتعليق جرير الذى علق به حين ذكر قوله :

ومنتزع من بين نسعيه جرة
نشيج الشجا جاءت الى ضرسه نزرا(١)

فقال : قاتل الله ذا الرمة حيث يقول : «ومنتزع من بين نسعيه جرة » أما والله لو قال من بين جنبيه لما كان عليه من سبيل ، هذا التعليق دليل على اختلاف ما بين الشاعرين ؛ فجرير يميل الى التعبير المباشر «من بين جنبيه» أما ذو الرمة فيهرب من التعبير المباشر الى التعبير المجازى « من بين نسعيه » والنسعان هما حبلا الحقب والتصدير اللذان يشد بهما القتد الى البعير • ذلك لأن ذا الرمة لا يكتفى بالمعنى العام وأنما يغوص الى المعنى النفسى البعيد لينقله نقلا أمينا دقيقا ، فحين يريد أن يعبر عن الرياح الواهنة الضعيفة يعبر عنها هذا التعبير الدقيق الذى ما كان ليتأتى له التعبير عنه بغير الأسلوب المجازى فيقول : «حشاشات أنفاس الرياح الرواجف» والحشاشة البقية الباقية من النفس أو يقول :

بريح الخزامى هيجتها ؛ وخبطة
من الطل أنفاس الرياح اللواغب

فالرياح اللاغبة المنهكة ضعيفة الأنفاس ، وعن السهر ودبيبه فى عظام رفقة السفر يقول مصورا له بالبقية من بقية كأس الكرى!

أخى قفرات دببت فى عظامه
شفافات أعجاز الكرى وهو أخضع (٢)

---

(١) نسعيه ـ أى حبل الحقب وحبل التصدير ويكونان عادة على صدره وحقويه قبل مؤخرته ، نشيج ـ تنفس ، الشجا ـ الضيق أو شىء فى الحلق ، نزرا ـ قليلة ، والمراد أنه أخرج اجترارته • من بين حبلى التصدير والحقب فجاءت قليلة •

(٢) شفافات ـ بقايا ، اعجاز الكرى ـ أواخر النوم ، أخضع ـ منكس الرأس •

ولبعض الصور عنده ظلال تمتد على غير المشبه كقوله :

وفرد يطير البق عند خصيله
بذب كنفض الريح ذيل السرادق (١)

هذا التصوير يتجاوز وصف ذيله الى وصف الثور نفسه وبيان ضخامته .

رابعا ـ الموسيقى الداخلية فى شعره :

يقول بروكلمان «وهو كعادة الشعراء الجاهليين قد نظم شعره من الأبحر الطويلة فيكثر عنده الطويل ؛ والكامل ؛ والبسيط ، والوافر ولكنه يحسن مطابقة الحروف للمعانى ، فيصور ضرب رجل الجندب على الرمل بترديد الراء والضاد (٢) وهذه المطابقة هى التى أطلقنا عليها الموسيقى الداخلية ، والتى تشمل ما أشار اليه بروكلمان وما هو أوسع من ذلك فمن هذا ..

(أ) ترديده لأسماء الأصوات : كقوله :

تداعين باسم الشيب فى متثلم
جوانبه من بصرة وسلام (٣)

وقد سبقه الى ذلك الراعى فى قوله :

اذاما دعت شيبا بجنب عنيزة
مشافرها فى ماء مزن ، وباقل

والشيب صوت يدعو الابل للشرب ، كما أنه تقليد لشربها الماء ، ويقول « حتى اذا هأها به وأسدا » وهأها صوت لحثه على السير ، ويقول :

---

(١) خصيله ـ ذنبه .

(٢) تاريخ الادب العربى لبروكلمان جـ ١ .

(٣) اسم الشيب ـ حكاية صوت مشافر الابل عند الشرب ، البصرة ـ الحجارة البيضاء الرخوة ، سلام ـ حجارة واحدها سلمة ، متثلم ـ حوض فيه ثلم أى كسر.

اذا ما ارتمى لحيـــاه يائين قطعت
نطاف المراح الضامنات القوارح (١)

أى قال : يا ٠٠ يا ٠٠ «وفرخ النعام يصحو من النوم فينادى أمه « بماء » بألف ممالة :

ونادى به « ماء » اذا ثار ثـــورة
أصيبح ، أعلى نقبة اللون ، أطرق(٢)

ومن أصوات زجر الابل : هيد ، هيد ٠٠ « اذا حدا هن بهيد، هيد» ويحكى صوت التثاؤب ، فالمسافرون اذا تثاءب أحدهم أعدى بتثاؤبه الآخرين :

تعـــادوا « بيهيا » من مداركة السرى
على غائرات الطرف،هدل المشافر(٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة فى الديوان :

(ب) اختيار ألفاظ ذات جرس خاص :

ومن ذلك أيضا اختياره للكلمات ذات الرنين والايقاع الذى يوحى بمدلول الكلمة ، واللغة العربية غنية بمثل هذه الكلمت ، والشاعر الفحل الملهـم هو الذى يســـتفيد من امكانيات اللغة ، ويستخرج أجمل وأروع مافيها ٠٠ ومن هـــذه الـكلمات الموحية قوله : رضراض الحصا ٠٠ فتـــكرار الراء والضاد يوحى بارتطام الحصا بعضه ببعض وقد دفعت به الريح ، وكلمة «نقنق» ٠٠ فى قـــوله :

يخيل فى المرعى لهن بشخصه
مصعلك أعلى قلة الرأس ، نقنق(٤)

---

(١) نطاف ـ بول ، المراح ـ الابل المرحة النشيطة ، الضامنات ـ الحاملات القوارح ـ الظاهرات الحمل ٠ والمعنى اذا ماحثها على السير بقوله : يا ٠٠ يا ٠٠ قطعت الابل الحوامل النشيطة بولها وواصلت سيرها ٠

(٢) اذا ثار ـ قام من نومه ، أصيبح ـ أحمر مع بياض وهو ولد الظبية ، النقبة ـ اللون ، أطرق ـ مسترخى اليدين من الضعف ٠

(٣) هدل ـ متدليات المشافر ٠

(٤) يخيل ـ يبدى شخصه لهن ، مصعلك ـ ظليم (ذكر النعام) صغير الرأس٠

فالظليم ينقنق بصـوته ، ولكلمة « حسيس » التى اذا مدت أعطت صوتا ضعيفا واهنا كصوت سكون الصحراء فى قوله :

بها من حسيس القفر صـوت كأنه
غنـاء آناسي بهـا وتنادى

وكذلك اختياره لكلمة « عزيف الجن » ولم يقل عزف لأن حرف المد وهو الياءيوحى بالصوت فى قوله :

ورمل عزيف الجن فى عقداته
هـدوءا كتضراب المغنين بالطبل (١)

وقوله : تطخطخ الغيم حتى ماله جوب ، يوحى بما فى الغيم من أصوات للرعد والبرق وتجمع للسـحب ، والتعبير « بارثعنت هواضبه » يوحى بسقوط المطر على الصخر،ويختارللتعبيرعنالابل الطوال العالية كلمات طويلة أيضا فيقول :

هيهـات خرقاء ، الا أن يقربهـا
ذو العرش ، والشعشعانات الهراجيب

ومن الكلمات الصـوتية التى يستعملها : هينوم ، وهمهيم ، وهزيز الريح ، وخضخضوا فى المـاء •• وغـير ذلك مما لا يهمنا حصره ، وانما يهمنـا التعريف به كظـاهرة من ظواهر الموسيقى الداخلية عند شاعرنا ذى الرمة ••

(ج) واذا كان يستغل ايقاع الكلمة المفردة فى الايحاء بمعنى مايريد ، فانه كذلك ودون ارادة واعية منه ــ يسـتغل الامكانيات الصوتية التى يحدثها تجاور بعض الكلمات ، وتكرار بعض حروف معينة فى العبارة وذلك شائع فى شعره كثير ، فهو حين يرغب فى تصوير صوت جناحى الجندب يكرر حرف الراء والضاد ليحدث هذا الاثر فيقول :معروريا ،رمض الرضراض يركضه(٢) فلقد كرر الراء ست مرات والضـاد أربـع مرات فى جملة واحـدة •• وما أروع

(١) عقداته ــ رماله المنعقدة •

(٢) معروريا ــ يركبه عاريا ، رمض ــ الشديد الحرارة ، الرضراض ــ الحصا المتحرك بهبوب الريح ، والمعنى أن الجندب يقف على الحصا الحار العارى يركضه ويدفعه بجناحيه •

تصويره لأصوات الهينمة التى تحيط بسالك الصحراء من كل جانب بقوله :

هنا ، وهنا ، ومن هنا لهن بهـــا
ذات الشمائل والايمـــان هينوم (١)

أكاد ان أقول بأن ذا الرمة كان على وعى بما يفعل ، لولا أن استغلال أصوات حروف الكلمات فى الايحاء بالمعنى لم يهتـــد اليه بشكل عقلى واع الا فى عصر الرومانســية فعمد بعض الشعراء الى نظم قصائد يكثر فيها حرف السين مثلا للأشعار بسقسقة العصافير فى الروضة التى يصفها •• وذو الرمة يشبه ضمور الحمار الوحشى بعصا قسيس ، وبالرغم من أن المعنى لا يوحى بما يوحى به تكرار السين فى قوله :

على أمر منقـــد العفـــاء كأنه
عصا قس قوس لينها واعتدالها (٢)

الا أن ذكره للقس أحاطه بجـــو كنسى ، فكرر حرف السين تصويرا لرنين أجراس الكنيسة؛ويبدو أن هناك تداعيا لفظيا كالتداعى المعنوى ، فحين يأتى بكلمة ذات أحرف معينة ، ونغمة معينة تستدعى تلك الكلمة مثيلاتها فى الاحرف والايقاع من ذلك قوله : عن كورها الكرى ، فلما قرعنا القاع ، وقوله : ولا مستجيرا من جريرة مجرم•• فالجيم والراء هما مدار هذه الكلمات الثـــلاث • كما يأتى بكلمـــات ممدودة متتالية ليوحى بضخامة الناقة وارتفاعها فيقول :

يتبعن شأو علنـــداة ، مذكرة
خطارة ؛ حرة احدى المماهـــير (٣)

فالكلمات : «علنداة ، خطارة ، مذكرة ، حرة ، احدى المماهير» كلها ممدودة أو مشددة والشدة تشـــبه حرف المد حيث ان حرفها الأول ساكن فيشبه الالف القصيرة • وقوله : «صفا رصف مجرى

---

(١) هينوم ــ هينمة وصوت خفى •

(٢) منقد العفاء ــ العفاء الوبر ، ومنقد يعنى ساقط والمراد به الحمار الوحشى، قوس ــ منارة الراهب •

(٣) علنداة ــ شديدة ــ شأو ــ سير ، المماهير ــ الماهرات فى السير •

سيول دوافع» يوحى بصفير الماء الجارى ، وصوت الريح الصادر من تكرار الميم فى قوله :

ترميه بالمور مهياف يمـانية
هوجاء فيها لباقى الرطب تجريم(١)

(هـ) المقابلة والجناس :

وقد يقابل بين بعض الألفاظ والمعانى ليعمق الجو الموسيقى ، ويزيد فى أبعاد ، وهذه المقابلة تتضح فيها العفوية كقوله فى هجاء امرىء القيس :

كثير مخازيها ، قليل عديدها

وقوله عن ناقته :

يشل نجاؤها وتبـوع بوعـا
ظهور أماعـز وبطون بيـد (٢)

ومن الجناس أو ما يقرب أن يكون جناسـا الاتيان بالكلمة ومشتقها أو نظيرها كقوله :

ممر أمـرت متنـه أسـدية
يمانية حلت جنوب المضاجع (٣)

وقوله :

طـوال الهوادى والحوادى كأنهـا
سماحيج قب طار عنها نسالها (٤)

والحوادى هى الأرجل :

---

(١) المور ـ التراب ، مهياف ـ ريح حارة ، الرطب ـ الكلأ ، تجريم ـ أى تجفف الريح مابقى من الرطب .

(٢) يشل نجاؤها ـ يطرد جريها ، تبوع بوعا ـ تبسط ذراعيها ، أماعز ـ أرض صلبة .

(٣) يصف الحمار الوحشى بأنه ممر ـ أى مفتول مدمج الخلق ، أسدية ـ سحابة بنوء الأسد ، جنوب المضاجع ـ نواحى هذا المكان . والمراد أن الذى جعله قويا مفتول العضلات أكله لنبات شرب من ماء المطر الذى هطل بنواحى مضاجع .

(٤) الهوادى ـ الأعناق ، الحوادى ـ الأرجل ، سماحيج ـ طوال أى كأنها حمر وحشية طوال الظهور ، قب ـ ضامرة ، طار عنها نسالها ـ سقط عنها شعر ولادتها .

وقوله :

« فعرضت طلقا ، أعناقها فرقا »

وقوله :

« كأن الدبا ، ماء الغضا فيه يبصق» (١)

د ـ أنواع أخرى :

وأنواع الموسيقى الداخلية فى شعره لا تنحصر فيما ذكرناه ، فمن مظاهرها هذا الترجيع الجميل فى قوله :

تذكر ألاف أتى الدهـــر دونهـــا
وما الدهـــر والألاف الا كذلك

وقوله :

نضت فى السرى منها أظلا ومنسما
بزيزاء ، واستبقت أظلا ومنسما (٢)

والتكرار الذى يكشف عن حيرة عميقة فى قوله :

ألا لا أرى مثلى يحن من الهـوى
ولا مثل هذا الشوق لا يتصرم (٣)

ولا مثل ما ألقى اذا الحى فارقـوا
ولا أثــر الأظعـــان يلقاه مسلم

كفى خزنا فى الصـــدر يامى أننى
واياك فى الأحيـــاء لا نتـــكلم

واختياره نوعا بعينه من الأفعال ليصدق فى التعبير عن الزمن المعين وذلك كاختياره الفعل المضارع لاستحضاره الصورة ؛والحركة فى قوله عن النعامة التى أدركها الليل فخشيت على فراخهـــا من الغوائل :

---

(١) الدبا ـ صغار الجراد .

(٢) الأظل ـ باطن الخف ، والمنسم ـ طرف الخف ، زيزاء ـ أرض صلبة .

(٣) لايتصرم ـ لاينتهى ولا ينقطع .

يرقد فى ظل عراص ، ويطـــرده
حفيف نافجة ؛ عثنونها حصب (١)

تبرى له صلعة خرجـاء خاضعـة
فالخرق دون بنات البيض منتهب (٢)

لا يذخران من الايغـال باقيـة
حتى تكاد تفرى عنهمـا الأهب (٣)

خامسا :

ويمتاز بالايجاز والتركيز ..

وعينـــان قال الله كونا فكانتا
فعولين بالألباب ما تفعل الخمر

أى كونا فعولين ، فكانتا فحذف كما يصر على تصغير الكلمة اذا أراد أن يتحدث عن فصيل الناقة أو طلا الظبية أو فرخ النعامة فيقول :

أعيس وأصيبح :

بها العائذ العينـاء يمشى وراءهـــا
أصيبح أعلى اللون ذو رمل طفل (٤)

ويلجأ الى **التصغير** للتعبير عن قصر الزمن :

أناة يطيب البيت من طيب نشرهـــا
بعيد الكرى ؛ زين له حين تصـبح

ولديه جرأة على الاشتقاق ؛ واختيـار الكلمات المناســبة ،

(١ ، ٢ ، ٣) يرقد يسرع ، عراص ـ غيم كثير الرعد والبرد ، نافجة ـ صوت ريح شديدة باردة ، عثنونها ـ أولها ، تبرى ـ تتعرض له فى الجرى أى تباريه، صلعة ـ صغيرة الرأس أى النعامة ، خرجاء ـ فيها سواد وبياض ، الخرق ـ الصحراء ، دون بنات البيض ـ أمام الفراخ ، الأهب ـ الجلود .

(٤) العائذ ـ بقرة حديثة الولادة ، العيناء ـ الواسعة العينين ، أصيبح ـ ولدها الأشقر ، رمل ـ نقط ، طفل ـ ناعم .

فيشتق من الفجر أفجر ومن البحر مبحور ، ومن الخريف مخرف فيقول :

ولا مخرف فرد بأعلى صريمة
تصدى لأحوى مدمع العين، عاطف(١)

ويقصد بالمخرف ظبيا ولد فى الخريف ؛ ومن « السيف » يشتق كلمة مسايف فيقول : كصفح اليمانى فى يمين المسايف» ومن الظهر أظهر « بعد الضحى وأظهر المظهر » ومن الفجر أفجر :

فما أفجرت حتى أهب بسدفة
علاجيم عين « ابنى صباح » تثيرها (٢)

ومن الغيم « تغام وتطلق » ومن الطحلب : عينا مطحلبة الأرجاء طامية فيها الضفادع والحيتان تصطخب ، وقد عيب عليه اصطخاب الحيتان ، والصواب ما قال فاصطخابها هو حركتها التى تحدثها بالقفز فى الماء •

كما أن له قاموسه الشعرى ، وبعض الكلمات التى تعتبر من لازماته وأغلب كلماته أو الكثير منها لا الأغلب يشتق من الناقة فشعره كهدر الابل « أحين ملأت الأرض هدراً » وللأرض سنام :

« منعنا سنام الأرض » • وتكثر كلمة الآنف فى شعره ، وان حبا من أنف رمل منخر و « أطافت به أنف النهار » وللجبل أنف » يممت خطمه « والريح تمرى السحاب فيمطر كما يمرى الحالب ضرع الناقة فيدر :

اذا ما استدرته الصبا وتذاءبت
يمانية تمرى الذهاب المنائح (٣)

« واستدر من الدر وهو « اللبن » كما يكثر من استعماله لكلمة « أثباج » وقد استعملها غيره كالراعى النميرى

(١) مخزف ـ ظبية ولدت فى الخريف ، صريمة ـ قطعة من الرمل ، أحوى مدمع العين ـ اسود العين وهو ولدها ، عاطف ـ لاوى عنقه أى نائم •

(٢) علاجيم ـ ضفادع ، سدفة ـ ظلمة •

(٣) الذهاب ـ السحاب ، المنائح ـ الممطر •

لكنه كلف بها فأكثر من استعمالها من ذلك : «بجرع كأثباج القطا متتابع » وللرمل أثباج ، والثبج هو وسط الشيء ٠

حتى اذا جعلتــــه بين اطهرهــــا
من عجمة الرمل أثبــــاج لها حبب

ومتون الابل كأنها « اذا أبرقت أثباج أحصنة شقر » ومن الكلمات التي يولع بها كلمة ماتت « فالشهب تموت » لأن شـــجر الأرطى يصد حرارة الصيف ؛ ويحجب أشعة الشمس اللاهبة :

ربلا وأرطى نفت عنه ذوائبـــه
كواكب القيظ حتى ماتت الشهب (١)

والصحراء : «ماتت فوقها كل هبوة »

سادسا : ومن مميزات أسلوبه **التضمين ٠ والأقواء والسناد:** وقد كان القدامى وعدد كبير من المعاصرين يعتبرون هذه عيوبا يحذر الشعراء من الوقوع فيها ذلك لأن القدامى كانوا يعتمدون على وحدة البيت فى الحفظ والاستشهاد فيريدون له أن يكون مستقلامكتفيا بذاته ليتحقق لهم ذلك أما وحدة الفكرة أو القصيدة كما يراهــا المعاصرون فلم تكن تخطر لهم على بال ، وشاعرنا ذو الرمة صاحب الفطرة السليمة ، توجهه فطرته وتقوده الى وحدة الفكرة لا وحـــدة البيت فتأتى أبيات كثيرة فى شعره يرتبط بعضها ببعض ، وفى القصيدة الواحدة نجد أن الفعل فى بيت والفاعل فى آخر :

أنخنا بها خوصـــا برى النص بدنهــا
وألصق منها باقيـــات العرائك (٢)

تذكر آلاف أتى الدهـــر دونها
ومـــا الـــدهر والآلاف الا كذلك

وجواب الشرط فى بيت وأداة الشرط فى آخر :

اذا غاب عنهن الغيــــور وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك

---

(١) ربلا ، نبات كثير أخضر ، كواكب القيظ ـ شدة حرارته ٠

(٢) خوصا ـ غائرات الأعين ، برى ـ أكل وانقص ، النص ـ مواصلة السير، بدنها ـ دهنها وشحمها ، العرائك ـ الاسنمة ٠

تهللن واستأنسن حتى كأنما
تهلل أبكار الغمام الضواحك
وكأن وخبرها فى بيت واسمها فى الذى بعده :
كأن على فيها اذا رد روحها
الى الرأس روح العاشق المتهالك (١)
خزامى اللوى هبت له الريح بعدما
علا نورها مج الثرى المتدارك (٢)

ويربط ما بين هذين البيتين بحرف العطف لأنهما يكونان فكرة واحدة فيقول :

ولما تلاقينا جرت من عيوننا
دموع كففنا ماءها بالأصابع
ونلنا سقاطا من حديث كأنه
جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع (٣)

ويأتى بالفعل تقول فى بيت والمقول والمقول له فى آخر :

تقول التى أمست خلوفا رجالها
يغيرون فوق الملجمات العوالك (٤)
لجاراتها أفنى اللصوص ابن منذر
فلا ضير ألا تغلقى باب دارك

ولا تخلو قصيدة من قصائده من هذا التضمين الذى هو من محاسن الشعر الحديث :

أما الاقواء أو السناد : فهو لا شك عيب ، ولكن لا يعتبر مأخذا الا على الدارس أما شاعر الفطرة فمهما حاول تجنبه فلا يستطيع ؛ ولقد كان ذلك من سقطات شاعر كبير كالنابغة وبيته

(١ ، ٢) رد روحها الى الرأس ــ قبلها قبلة حارة ، خزامى ــ زهر طيب الرائحة ، مج الثرى ــ المراد به الماء ٠

(٣) الوقائع ــ جمع وقيعة : أرض صلبة تمسك الماء ٠

(٤) خلوفا ــ تركها رجالها ذاهبين الى الحرب ٠

الذى جاء فيه « وبذاك خبرنا الغراب الأسود » مشهور ؛ وروى أنه قال دخلت المدينة وفى شعرى السناد وخرجت منها وأنا لا أساند وذو الرمة يصارحنا بأن هذا السناد كثيرا ما يؤرقه ليخلص شعره منه :

وشــعر قد أرقت له غــريب
أجنبه المســاند والمحــالا

واذا كنا نعرض نماذج لهذا العيب الذى هو من مستلزمات الفطرة قبل صقلها بالدرس والتعليم فنحن لا نعده عيبا خطيرا فى شعره وانما هو شىء شكلى عارض لا يغض من قيمة شعره الفنية ويفرق « ثعلب » فى قواعد الشعر بين السناد والاقواء (١)فالاقواء اختلاف حركة حرف الروى فى الكسر أو النصب أو الضم ؛والسناد هو اختلاف حركة الحرف الذى قبل الروى عند ثعلب ، وعند غيره اختلاف ما يراعى قبل الروى من الحروف والحركات ، ومن أمثلة النوع الثانى عند ذى الرمة قوله :

أما استحلبت عينــاك الا محلة
بجمهور حزوى أو بجرعــاء مالك

ثم يقول بعد أبيات منها :

اذا غاب عنهن الغيور ؛ وأشرقت
لنا الأرض فى اليوم القصير المبارك

فما قبل الحرف الأخير مفتوح بينمـا هو فى سائر أبيــات القصيدة مكسور ؛ ومن النوع الأول مما نصادفه أحيانا ـ قوله :

خليلى عوجا عوجة ناقتيكمـا
عسى الربع بالجرعـاء أن يتكلمـا
دعـانى الهـوى من حب مية والهوى
اذا غالب منى الفــؤاد المتيما

---

(١) قواعد الشعر لثعلب تحقيق د. خفاجى .

فرب بلاد قد قطعت لوصلكم
على ضامر منها السنام المحطما

ومن الواضح أن الضبط هكذا (على ضامر منها السنام المحطم) وكذلك يفعل فى قصيدته :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم (١)

فيقول بعد أبيات :

قد يترك الأرحبى الوهم أركبها
كأن غاربه يافوخ مأموم (٢)

وأخيرا من الظواهر التى كان يكثر منها فى شعره **وصفه للموصوف بالجملة** أولا ثم **المفرد** بعد ذلك ، وبالرغم من أن أحدا من النحاة الذين وقعت يدى على مؤلفاتهم لم يشر لهذا النوع من النعوت ، وهل يجوز تقديم النعت بالجملة على المفرد أم لا ، الا أن احساسى الخاص يضيق بهذا ؛ بل يوقع القارىء صنيعه هذا فى نوع من الاضطراب وربما كان سببه القافية ، لأن النعت بالمفرد يأتى قافية للبيت ؛ فيلزم ضرورة أن يتقدم عليه النعت بالجملة ومن أمثلته فى شعره قوله :

كأنها ابل ينجو بها نفر
من آخرين أغاروا غارة ـ جلب

فجلب صفة لابل أى ابل مجلوبة ينجو بها نفر من آخرين أغاروا غارة عليهم ؛ ومثل ذلك وصفه للحرباء :

كأن يدى حربائها متشمسا
يدا مذنب ، يستغفر الله ، تائب

---

(١) أعن أصلها أان ـ قلبت الهمزة عينا فى لغة بعض القبائل .

(٢) أرحبى ـ ابل رحبة الذراع أو منسوبة الى فحل اسمه أرحب ، الوهم ـ الضخم ، يافوخ ـ مؤخر الرأس . مأموم ـ مشجوج .

وأصل التركيب يدا مذنب تائب يستغفر الله ؛ ومنه أيضا :

وقد لاح للسارى سهيل كأنه
قريع هجان عارض الشول جافر (١)

أى قريع هجان جافر عارض الشول ، وقد **يحشو بعض** الكلمات ـ وهذا قليل فى شعره ـ التى تعتبر زائدة ليستقيم له الوزن ؛ رغم ما عرف عنه من معاودته لصقل أبياته وتغيير مالايراه فيها مناسبا حتى شكا بعض الرواة من فعله هذا قائلا : أفسدت على شعرك » وذلك أن ذا الرمة كان اذا استضعف الحرف أبدل مكانه (٢) .. فمن حشوه لبعض الكلمات الزائدة قوله : كسا الواكف الغادى لها ورقا نضرا « فكلمة » لها « زائدة لاقامة الوزن حيث لم يتأت له أن يقول : « كساها » وكذلك قوله :

« لمياء فى شفتيها حوة لعس » «فالحوة» واللعس بمعنى واحد هو سواد الشفة والعرب تحب ذلك لدلالته على الصحة واكتناز الشفتين وان كان (٣) « نصيب » ينصح الكميت بأن يصنع صنيع ذى الرمة فى قوله :

لمياء فى شفتيها حوة لعس
وفى اللثات وفى أنيابها شنب

وذلك حين أنشده قوله :

وقد رأينا بها حورا منعمة
بيضا تكامل فيها الدل والشنب

ومن الحشو أيضا قوله :

يذكرنى ميا من الظبى عينه
مرارا وفاها الأقحوان المنور

---

(١) قريع هجان ـ فحل ابيض ، الشول ـ الابل اللواقح ، عارض ـ لم يتبعها ، جافر ـ ممتنع عن الضراب (اللقاح) .

(٢) الموشح للمرزبانى .

(٣) الكامل للمبرد ج ١ .

فمرارا هنا زائدة لا مكان لها فى البيت ، وانما جىء بها فقط لاقامة الوزن .

هذه هى بعض خصائص أسلوب ذى الرمة ؛ كما استطعنا أن نستخلصها من شعره ولعل باحثا آخر فى المستقبل يجذبه شعره فيتوصل الى ما لم نتوصل اليه من هذه الخصائص ، ذلك لأن ذا الرمة شاعر يضم بين جنبيه الكثير من غرائب أسرار الفن التى تحتاج الى بحث دائب ؛ وتذوق خاص حتى يتوصل دارسه الى استكناه أسراره ؛ فهو فى الشعر صاحب أسلوب منفرد ، متمرد على ما ألزم نفسه به من السير على خط الاوائل ؛ والنسج على منوالهم فى بناء القصيدة العربية المتوارث ، فبالرغم من أنه قد سلك مسلكهم ؛ ونظم فى أغراضهم الا أنه بنسيجه الخاص للمادة ،التى صاغ منها قصائده استطاع أن يفلت من قبضتهم ويحطم قيودهم ، ويجعل لنفسه أسلوبا شعريا خاصا ربما لم ينجح شاعر ــ ممن أتوا بعده وحاولوا تقليده ــ أن يقتفى أثره فيه ، لأنه صادر عن عبقرية شاذة ؛ وتكوين مزاجى خاص لا يتوفر لكل شاعر .

الباب السادس

منزلته الشعرية

منزلته الشعرية :

كثيرا ما تكون الظروف السياسية ؛ أو مفهومات النقـــاد الخاطئة عن الفن فى عصر ما سببا فى الاشادة ببعض الفنانين ، وابرازهم فى دائرة الضوء ، فى حين تحجب غيرهم وتدعه فىالظل بعيدا عن أعين الناس ؛ وأسماعهم ؛ هذا ما حدث فى العصر الأموى مع أكثر من شاعر تنكر لهم عصرهم ، وقدم عليهم من هم أدنى منهم .. موهبة ؛ ومقدرة فنية ؛ وليس ذلك بغريب فى كل زمان ،ومكان فشكسبير الشاعر الانجليزى المشهور عاش مجهولا أو شبه مجهول ، ولا يزال الباحثون يناقشون قضية وجوده كانسان حقيقى ؛ وجد يوما ؛ وكان يحمل هذا الاسم .. ولم يهتد الى موهبته الفنيـــة الخارقة الا بعد مرور أعوام على وفاته .

والعامل السياسى الذى أشرنا اليه ، وربما كان له أثر فى التأخر بشاعرنا ذى الرمة عن مرتبة الفحـــــول فى عصره ، هو تشجيع خلفاء بنى أمية للشعراء الذين يقفون فى صفوفهم والذين يكيلون لهم آيات المديح والثناء ؛ وينافحون عنهم أعداءهم ؛ لهذا أقبل هؤلاء الخلفـــاء على الأخطل ، وكان عبد الملك يدعه يدخل عليه والخمر تفوح من لحيته، وقد علق صليبا ذهبيا فى عنقه، فى دولة كانت تجلد شارب الخمر اذا شرب كأسا واحدة ، وتلزم أهـــل الذمة يدفع اتاوات باهظة ، وذو الرمة شاعر يعتز بقومه بنى تميم ويرى أنه ليس أدنى شأنا من أى خليفة أو أمير ؛ فلم يبتذل نفسه على أبوابهم ؛ وان كان حاول ذلك فى استحياء واباء وهذا ما جعل

الأمويين يضيقون بالفرزدق أيضا لكثرة مباهاته بقومه ، ويقدمون عليه جريرا حينا ونصيبا حينا آخر : والنقاد قد تأثروا أيضا بهذا الجو السياسي في الأدب فجعلوا للشعر أركانا أربعة : مدح رافع ، أو هجاء واضع ، أو تشبيه مصيب أو فخر سامق ، وهذا كله ـ كما يقول البطين ـ مجموع في الفرزدق ؛ وجرير والأخطل ؛ أما ذو الرمة فهو يحسن التشبيه ، فهو ربع شاعر (١) « وجرير الذى ذكرنا فيما سبق أنه كان يحسد ذا الرمة كما كان يحسده الفرزدق أيضا وبذلك حدثنا راويته صالح بن سليمان يقول عن شعره حين سأله المهاجر أمير اليمامة عن رأيه فيه « نقط عروس وأبعار ظباء » ، ومع هذا فقد قدر من التشبيه على ما لم يقدر عليه غيره .. ويقول الأصمعى « ان شعر ذى الرمة خلو أول ما تسمعه ، فاذا كثر انشاده ضعف ، ولم يكن له حسن » وقال جرير : لو خرس ذو الرمة بعد :

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب

لكان أشعر الناس .. واتهمه الأصمعى كما أتهم الكميت « بأنهما يستكرهان الشعر وان كان ذو الرمة أحسن حالا عند الأصمعى من الكميت .. » وقال أبو عبيدة : كان ذو الرمة اذا أخذ فى النسيب ، ونعت فهو مثل جرير وليس وراء ذلك شىء فقيل له ما يشبه شعره الا بوجوه ليست لها أقفاء ، وصدور ليست لها أعجاز قال : كذا هو .. « وعيب ذو الرمة لأنه وصف عين ناقته بالميم ، فقيل : لولا أنه يكتب لما عرف الميم (٢) » .

وينقل صاحب الأغانى عن الأصمعى (٣) أنه قال : ما أعلم أحدا من العشاق الحضريين وغيرهم شكا حبا أحسن من شكوى ذى الرمة ، مع عفة وعقل رصين ، كما ينقل عن أبى عبيدة أيضا

(١،٢) الموشح للمرزبانى .

(٣) الأغانى جـ ١٦ .

قوله : ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر ثم يرد على نفسه الحجة من صاحب فيحسن الرد ثم يعتذر فيحسن التخلص مع حسن انصاف؛ وعفاف فى الحكم .. « ويسأل الوليد بن عبد الملك كلا من الفرزدق وجرير على انفراد عن ذى الرمة ، فكلاهما يقول : أخذ من طريف الشعر وحسنه ما لم يسبقه اليه غيره فقال الخليفة : أشهد لاتفاقكما فيه أنه أشعر منكما جميعا (١) .. »

لقد سقت هذه الآراء التى يبدو فيها التضارب أحيانا على لسان الشخص الواحد كما هو واضح فى كلام جرير والأصمعى وأبى عبيدة – لأثبت أن هذه الآراء ليست سوى مجرد نظرات جزئية عابرة تختلف باختلاف الحالة النفسية التى عليها الناقد أو الشاعر ولعلنا نخرج من آراء هؤلاء المخالفين بأنهم قد اعترفوا بقدرته على التشبيه ؛ وتفوقه فى النسيب ؛ وبأنه أخذ من طريف الشعر وحسنه الى ما لم يسبقه اليه غيره ، كما نؤيد أبا عبيدة فيما قاله : من أن بعض قصائده لا كلها تشبه وجوها ليست لها أقفاء ، وصدورا ليست لها أعجاز ؛ تلك القصائد فى رأينا هى القصائد المفتوحة التى لم يتمها ذو الرمة ؛ وانما كان يضيف اليها ويزيد فيها .. قال حماد الراوية « ما تمم ذو الرمة قصيدته التى يقول فيها : « ما بال عينك منها الماء ينسكب » حتى مات ، وكان يزيد فيها منذ قالها الى أن توفى ، ومن الواضح أن نقاد ذلك العصر كانوا متأثرين دائما بالمفهوم الخاطىء عن الفنان أو الشاعر الفحل هذا المفهوم الذى حدد البطين أركانه ؛ ولأن ذا الرمة لسبب أو لآخر لم ينصرف للمديح والهجاء رغم قدرته الخارقة؛على الاجادة فيهما – جعله ابن سلام الجمحى فى الطبقة الثانية مع البعيث ، وكثير والقطامى ، ولم يجعله فى طبقة جرير والأخطل والفرزدق ، ولا أعتقد أننا فى حاجة الى أن نكرر ما قلناه من أن ذا الرمة يتفوق على أولئك جميعا ؛ الذين أساءوا الى الشعر بالانحدار به الى حضيض المهاترات الشخصية ، والاستجداء الذليل .

واذا كنا قد سقنا آراء المعارضين أو المنكرين ؛ فاننا نسوق

---

(١) الأغانى ج ١٦ .

هنا أيضا .. آراء المؤيدين ؛ كما نسوق آراء بعض الشعراء أنفسهم : قال حماد الراوية : قدم علينا ذو الرمة الكوفة فلم أر أفصح ولا أعلم بغريب منه ، وعن أبى عمرو بن العلاء : ختم الشعر بذى الرمة ؛ والرجز برؤبة ؛ فسأله أحدهم : فما تقول فى هؤلاء ؟ الذين يقولون قال : كل على غيرهم ، انقالوا حسنا فقد سبقوا اليه وان قالوا قبيحا فمن عندهم ؛ وعن حماد : أحسن الجاهلية تشبيها امرؤ القيس .

وذو الرمة أحسن أهل الاسلام تشبيها .. « وأنشد الصيقل شعره فاستحسنه ؛ وقال : ماله قاتله الله ما كان الا ربيقة ؛ هلا عاش قليلا » .

وعن محمد بن سلام : كان لذى الرمة حظ فى حسن التشبيه لم يكن لأحد من الاسلاميين .. « وقيل لبلال بن جرير أى شعر ذى الرمة أجود فقال : هل حبل خرقاء بعد اليوم ملموم ـ انها مدينة الشعر » وقال جرير : ما أحببت أن ينسب الى من شعر ذى الرمة الا قوله : «ما بل عينك منها الماء ينسكب» فان شيطانه كان له فيها ناصحا . وقال الكميت حين سمع قول ذى الرمة :

أعاذل قد أكثرت من قول قائل
وعيب على ذى الود لوم العواذل

هذا والله ملهم ، وما علم بدوى بدقائق الفطنة ، وذخائر كنز العقل ، المعد لذوى الألباب ، أحسن ثم أحسن ، وعن ابن كناسة أن الكميت لما أنشد قول ذى الرمة :

دعانى ، وماداعى الهوى من بلادها
اذا ما نأت خرقاء عنى بغافل

قال : لله بلاد هذا الغلام ، ما أحسن قوله ، وما أجود وصفه ، ولقد شفع البيت الأول بمثله فى جودة الفهم ، والفطنة ، وقال حماد الراوية ؛ «ما آخر القوم ذكره الا لحداثة سنه وأنهم حسدوه» نعم انهم حسدوه ، بل ان هؤلاء الحساد هم الذين كانوا يبعثون بصبيانهم ، وأتباعهم ليتعقبوه ، ويسألوه ، مستغلين عدم معرفته لتلك العلوم التى يتدارسونها فى حلقات مربد البصرة أو كناسة الكوفة ،

فالفرزدق الشاعر الجهير الذى تتحدث بشعره الركبان ، يقول لذى الرمة : الذى جاء يطلب منه الرأى والنصيحة :

قصر بك عن اللحاق بالفحول ، ذكر الأبعار ، وبكاؤك الديار ثم ينشد ساخرا :

ودوية لـو ذو الرميمـة أمهـا
لقصر عنهـا ذو الرميم وصـيدح

قطعت الى معروفهـا منـكراتهـا
اذا اشتد آل الأمعـز المتوضـح (١)

ويغريه بالاشتباك مع هشام المرئى فى الهجاء ليصرفه عن هذا اللون الجديد من الشـعر الذى طرقه ، فلقد مر عليه يوما وهو ينشد :

وقفت عـلى ربع لميـة ناقتى
فمـازلت أبكى عنده وأسائله

فقال له : ألهاك البكاء فى الديار والعبد يرتجز بك فى المقابر يعنى هشاما المرئى ، ويعين جرير كلا من هشام وذى الرمة بشعر هجائى ضد الآخر ليصعد بينهما حرب الهجاء ، فاذا أضفنا ذلك الى ما قاله راويته صالح بن سليمان من أن جريرا والفرزدق كانا يحسدانه ، خرجنا بنتيجة شبه مؤكدة ، وهى أن هؤلاء الذين كانوا ينتقدون شعره ويقاطعونه أثنـاء القائه مدفوعون الى ذلك بأيدى غيرهم ؛ من هؤلاء هذا الخياط الذى سمعه ينشد فى المربد والناس مجتمعون اليه فصاح يا غيلان :

ألسـت الذى تستنطق الدار واقفـا
من الجهـل هـل كانت بكن حلـول

فقام ذو الرمة ، وفكر زمانا ثم عاد فقعد فى المربد ينشد فاذا الخياط قد وقف عليه ثم قال له :

---

(١) منكراتها ــ جهاتها غير المعروفة ، آل ــ سراب ، الأمعز ــ أرض صلبة .

أأنت الذى شـــبهت عنــزا بقفــرة
لهــا ذنب فوق آســـتها أم ســالم

فذهب ذو الرمة ، ولم ينشـــــد بعدها فى المربد حتى مات الخيــاط .. ولا يعنينا كثيرا ما علق به صــــاحب الأغانى : من أن ذا الرمة انتبه بعد ذلك فقال :

أرى فيك ياخــرقاء من ظبيــة الحمى
مشــابه ، جنبت اعتــلاق الحبائــل

فعينـــاك عيناها وجيدك جيدهــا
ولونك ، لولا أنه غـــير عاطــــــل

وقال حماد الراوية قدم علينــــــا ذو الرمة الـكوفة : فلم نر أحسن ، ولا أفصح ، ولا أعلم بغريب منه ، فغم ذلك كثيرا أهل المدينة فصنعوا له أبياتا جاء فيها :

رأى جمـــلا يوما ؛ ولم يك قبلهـــا
من الدهر يوما كيف خلق الأباعر (١)

فقــال : شـظايا مع ظباى ، ألاليــا
وأجفــل اجفال الظليـــم المبـــازر

فقلت له : لاذهـــل ملكمل بعــدما
ملاينفق التبــان فيـــه بعــــاذر

فقال : ما أحسب هذا من كلام العرب ، ووقف ينشد قصيدته الحائية بالكوفة الى أن قال :

اذا غير النــأى المحبين لم يـكد
رسيس الهوى من حب مية يبرح

---

(١) هذه الأبيات لامعنى لها وقد صيغت فقط للسخرية من ذى الرمة الذى يكثر من الغريب .

فناداه ابن شبرمة : ياغيلان ، أراه قد برح ، فشنق ناقته ، وجعل يتأخر بها ويفكر ثم قال : لم أجد قال الراوى : أخطأ ابن شبرمة : فان هذا مثل قول الله عز وجل : « ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .. « ومعناه لم يرها ، ولم يكد .. » وقال رجل للأصمعى : رأيت ذا الرمة بمربد البصرة وعليه جماعة مجتمعة ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد ودموعه تجرى على لحيته ، « ما بال عينك منها الماء ينسكب » فلما انتهى الى قوله :

تصغى إذا شدها بالكور جانحة
حتى اذا استوى فى غرزها تثب

قلت يا أخا بنى تميم ما هكذا قال عمك ، قال أى أعمامى يرحمك الله ، قلت الراعى قال : وما قال ؟ قلت قوله :

لا تعجل المرء قبل البرو
ك ، وهى بركبته أبصر

وهى اذا قام فى غرزها
كمثل السفينة اذ توقر (١)

ومصغية خدها للزما
م • فالرأس منها له أصعر (٢)

حتى اذا ما استوى طبقت
كما طبق المسحل الأغبر (٣)

قال : فارتج عليه ساعة ثم قال : انه نعت ناقة ملك ، ونعت ناقه سوقة ، فخرج منها على رءوس الناس ؛ « وعن عنبسة النحوى ؛ أنه قال : سمعت ذا الرمة ينشد :

---

(١) توقر ـ تملأ بالبضائع وغيرها •

(٢) أصعر ـ مائل نحوه •

(٣) طبقت ـ سارت واضعة رجلها فى موضع يدها ، المسحل ـ الحمار الوحشى

وعينـــان قال الله كـــونا ، فـــكانتا
فعولين بالألبـــاب ، ماتفعـــل الخمر

فقلت له : هلا قلت : « فعولان » فقال : لو قلت سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ، والله أكبر كان خيرا لك « أى أنك أردت القدر » وأراد ذو الرمة كونا فعولين . وأراد عنبسة : «وعينان فعولان» (١)وقد رأينا أن بعض الشعراء حاول أن يصرف عنه قلب الوالى الذى يحبه ويقربه « بلال بن أبى بردة ، فقال له : لم تعطيه وهو يعمد الىمقطعاتنا فيضمها ، ويمدحك بها ..»؟ لهذا اضطر شاعرنا الانطوائى الرقيق الذى ينشد شعره ، ويبكى ــ الى الدفاع عن شعره بالفخر به حينا ، وتهديد من ينال من شعره بالهجاء ، كما فعل مع أبى عمرو بن العلاء ، بل هجا واليا هو الحكم بن عوانة الوالى على فارس وخراسان .. لقد آلم هؤلاء الحاقدين أن يروا نجمه الشعرى فى صعود دائما فترصدوه ، أو دفعوا بمن يترصده ؛ وان شاعرا شابا مثله : يفضله الوليد بن عبد الملك على الفرزدق وجرير ، ويتعصب له أهل البادية الذين تضرب اليهم أكباد الابل بحثا عن كلمة فصيحة أو بيت شعرى ؛ ويسمع أعرابى شعره وهو ينشده راويته صالح بن سليمان فيقول له : أشهد أنك فقيه تحسن ما تقرأ » فيظنه قرآنا ؛ ان شاعرا مثل هذا حرى بأن يحقد عليه ؛ وتدبر له المكائد من الكبار والصغار معا « لقد كان ذو الرمة صريحا واضحا فى الحديث عن شعره اذ قال : من شعرى ماطاوعنى فيه القول وساعدنى تقولى : « خليلى عوجا من صدور الرواحل » ، ومنه ما أجهدت فيه نفسى وهو : « أأن توسمت من خرقاء منزلة » ، ومنه ما جننت به جنونا وهو : « ما بال عينك منها الدمع ينسكب ».

ولقد كان لذى الرمة أكثر من راوية يرددون شعره فكان منهم صالح بن سليمان ، وعصمة بن مالك ، وذكوان وغيرهم كما شهد بعض معاصريه من الشعراء : فلقد روى أبو العباس فى الكامل : أن الكميت بن زيد أنشد نصيبا فاستمع له ، فكان فيما أنشده :

---

(١) هذه رواية الأغانى التى صححناها فيما سبق كما جاء فى الديوان .

وقد رأينا بهـا حورا منعمـة
بيضـــا تكامل فيها الدل والشنب

فثنى نصيب خنصره فقال له الكميت ما تصنع ، قال أحصى أخطاءك .. ، تباعدت فى قولك ، « تكامل فيها الدل والشنب » : هلا قلت كما قال ذو الرمة: «لمياء فى شفتيها حوة لعس» البيت..

ولقد عرض الكميت بن زيد هذا قصيدته : « طربت وما شوقا الى البيض أطرب » على ذى الرمة ، قائلا : « لماذا لا اجيد الوصف مثلك ، فقال له ذو الرمة : لأنك تصف ما تسمع ، وأصف أنا ما أرى .. لقد امتد أثر ذى الرمة الى الأجيال التى بعده فلقد حفظ شعره كله فى صباه هارون الرشيد ، كمـا كان الهـادى يعجب بشعره فعمل له ابراهيم الموصلى الألحان الماخورية (١) وقال غنيت بها الهادى فاستحسنها ؛ وكاد يطير بها فرحا ؛ وأمر لى لكل صوت بألف دينار ، منها : « ألا يا سلمى يا دارمى على البلى » « ومنزلتى مى سلام عليكما » وغيرها كما تأثر به الى حد كبير ابن المعتز الشـاعر وحاول أن يفتن فى التشبيه مثله : ولكنه لم يصل الى مكانته وان كان اتكأ على صوره ، وتأثر بتشبيهاته قال أبو اسحاق الحصرى(٢) وكان أبو العباس عبد الله بن المعتز فى المنصب العالى من الشعـر والنثر ، وفى النهاية فى اشراق ديباجة البيان ، والغـاية من رقة حاشية اللسان . »

ثم يقول : « وليس بعد ذى الرمة أكثر افتتانا ؛ وأكبر تصرفا واحسانا فى التشبيه منه .. » واجتمع بعض الأدباء والشــعراء عند ابن المعتز فأخذوا فى تذاكر الشـعر وتفضيل بعض الأبيات التى تدور حول معني واحد على بعض الى أن قال أحدهم ، بـل الأحسن قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى
وساق الثريا فى ملاءته الفجـر

(١) الاغانى ج ١٦ .

(٢) زهر الاداب ج ١ ص ٢١٩ .

فقال أبو العباس عبد الله بن المعتز : هـــذا لعمرى نهاية الخبرة ، وذو الرمة أبدع الناس استعارة ، وأبرعهم عبارة (١) وفى رسالة للقاضى الفاضل أرسل بها الى والد ابن سـناء الملك (٢) يقول : « وما تغصصت الا بغيبة ابن المعتز عن أن يسمع كما نسمع ؛ فيقطع بفضله كما نقطع ، ويكف عن عدواء تشبيهه ويغض من غلواء توجيهه ، ونوافقه على انه اتكأ واتكل على ذى الرمة فى طريقه ؛ ومستأنسا بأنس رفيقه ، فما ترك له تشبيها الا نقله وصقله ٠٠» وهذا اعتراف من القاضى الفاضل وشهادة على أن ذا الرمة قد أثر أثرا كبيرا فى ابن المعتز الذى تتبع تشبيهاته بالنقل والصقل ٠٠ ويفضل صاحب كتاب المعانى أبو هلال العسـكرى ذا الرمة على ابن المعتز حين يوازن بين بيتيهما فى وصف الحرباء :

يقول ذو الرمة :

كأن يدى حربائهـا متشمسـا
يـدا مـذنب يسـتغفر الله تائب

ويقول : وقد جعل الحرباء يصفر لونه ٠٠ البيتان وقد سبق لنا ذكرهما ، وقوله :

« يصلى بها الحرباء للشمس ماثلا »

ويقول ابن المعتز :

كأن حرباءها والشمس تصـهره
صال لنا من لهيب النار مقرور (٣)

ويعقب أبو هلال على ذلك بقوله : وهذا تشبيه مصيب أيضا الا أن للأول (ما قاله ذو الرمة) ماء وطلاوة ليس لذا ؛ (٤) ويظهر أيضا حب أبى العلاء المعرى لذى الرمة فى كثرة الاستشهاد بشعره

(١) زهر الآداب جـ ٢ ٠
(٢) مشكلة العقم والابتكار للدكتور الاهوانى ٠
(٣) صال ــ يتدفأ بالنار ٠
(٤) المعانى جـ ١ ص ٧ ٠

وضرب المثل بحبه ، يقول من رسالة بعث بها الى أبى الحسن محمد بن سعيد بن سنان « تهدى الى حضرة الشيخ الجليل والده عضد الله الجماعة ببقائه سلام ذى الرمة على مى ، والحادرة على سمى (١) .

ويقول ابراهيم بن العباس :

يمر الصبا صفحا بساكن ذى الغضا
فيصدع قلبى أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب ، وانما
هوى كل نفس حيث كان حبيبها

وقد أغار فيهما كما يقول أبو هلال على ذى الرمة فى قوله:

اذا هبت الأرواح من نحو جانب
به أهل مى زاد شوقى هبوبها
هوى تذرف العينان منه وانما
هوى كل نفس أين حل حبيبها

بل لم يسلم شاعر ما ممن أتوا بعد ذى الرمة من تقليده والتأثر بصوره ، وهذا أبو نواس الشاعر المصور المبدع يستمد من ذى الرمة بعض معانيه وصوره التى ذكر عددا منها مهلهل بن يموت فى كتابه « سرقات أبى نواس » مثال ذلك قول ذى الرمة :

سقاه السرى كأس النعاس فرأسه
لدين الكرى من آخر الليل ساجد

سرق معناه أبو نواس فقال :

أبيض فضفاض الرداء أزهرا
أسقته كف الليل أكؤس الكرى

وأصدق دليل على عبقريته ، ونبوغه الفنى ، تتبع أمثال هؤلاء الأعلام لمعانيه ، وتأثرهم بشعره وشهادة عدد كبير من أهل

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ٥٦ .

العلم بالفن واللغة حتى ان بعض النحاة واللغويين الذين لاتهمهم سوى الكلمات اللغوية ، والأساليب العربية العتيقة قد علقوا على شعره بما يفيد الاستحسان ، قال السيرافى وهو يعلق على بيت لذى الرمة من الأبيات التى آستشهد بها سيبويه ، وهو : ـ

هجوم عليها نفسه غير أنه
متى يرم فى عينيه بالشبح ينهض (١)

يفاجئه بسرعة فينظر اليه ، فجعله مفاجأة لنظره كشىء واحد رمى به ؛ « وهو من بديع الكلام وفصيحه » .. ويقول محمد ابن سلام : أنشدت يونس النحوى قول امرىء القيس :

اذا ما الثريا فى السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل (٢)

فزوى وجهه ،وجمع حاجبيه ، وقال : أخطأ مع احسانه ، ان الثريا لاتعترض وانما الاعتراض للجوزاء ، هلا قال : كما قال ذو الرمة .

وردت اعتسافا (٣) ؛ والثريا كأنها
على قمة الرأس بن ماء محلق

وقد أخذ هذا المعنى فيما بعد أبو القاسم الأنطاكى فقال :

كأن الثريا ابن ماء علا
فضم الجناح ، ومد العنق

وفى العصر الحاضر اهتم بشاعرنا عدد من الباحثين نذكر منهم

---

(١) الشبح ـ الشبح أى الشخص ، يصف هنا ذكر النعام (الظليم) بأنه يهجم على بيضه بنفسه ليجثم عليه فاذا رأى شخصا مقبلا نهض عنه .

(٢) أثناء الوشاح ـ المفرد ثنى أى انثناءاته ، المفصل ـ الذى فصل بين حباته بخرز أو غيره .

(٣) اعتسافا ـ على غير هدى ، ابن ماء ـ اسم طائر .

الدكتور شوقى ضيف الذى كتب عنه فصلا ضافيا فى كتابه « التطور والتجديد فى العصر الأموى » والدكتور محمـد مندور الذى قام بدراسة صوتية لنماذج من شعره ، والأستاذ محمود محمد شاكر ، والمستشرق كارل بروكلمان فى كتابه القيم : تاريخ الأدب العربى والدكتور محمد صبرى فى كتابه « ذو الرمة » .

كيلانى حسن سند

مراجع البحث

مراجع قديمة :

١ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى
٢ ـ البيان والتبيين للجاحظ
٣ ـ تاريخ الطبرى
٤ ـ التاريخ الكبير لابن عساكر
٥ ـ تزيين الأسواق لداود الأنطاكى
٦ ـ الحيوان الجاحظ
٧ ـ خزانة الأدب للبغدادى
٨ ـ ديوان جميل تحقيق (د / نصار)
٩ ـ ديوان ذى الرمة مكارتنى ١٩١٩ م
١٠ ـ ديوان المجنون تحقيق / عبد الستار أحمد فراج
١١ ـ ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى
١٢ ـ رسائل أبى العلاء
١٣ ـ روضة العاشقين لابن الجوزى
١٤ ـ روضة المحبين لابن القيم الجوزية
١٥ ـ زهر الآداب للحصرى

١٦ ـ **شرح القصائد العشر** للتبريزى
١٧ ـ **الشعر والشعراء** لابن قتيبة
١٨ ـ **طبقات الشعراء** لابن سلام
١٩ ـ **طوق الحمامة** لابن حزم
٢٠ ـ **عيار الشعر** لابن طباطبا
٢١ ـ **قواعد الشعر** لثعلب ـ تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى
٢٢ ـ **الكامل** للمبرد
٢٣ ـ **مختارات الشنتمرى** للشنتمرى ـ تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى
٢٤ ـ **مصارع العشاق** ابن السراج
٢٥ ـ **مقدمة ابن خلدون** ابن خلدون
٢٦ ـ **الموشح** للمرزبانى
٢٧ ـ **وفيات الأعيان** لابن خلكان

مراجع حديثة :

٢٨ ـ **أدب الطبيعة** محمد عبد اللطيف السحرتى
٢٩ ـ **ابن سناء الملك** للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٣٠ ـ **تاريخ الأدب العربى** لبروكلمان
٣١ ـ **تاريخ التمدن الاسلامى** لجورجى زيدان
٣٢ ـ **التاريخ السياسى** للدكتور حسن ابراهيم
٣٣ ـ **تجارب شعرية** كيلانى حسن سند
٣٤ ـ **التطور والتجديد فى العصر الأموى** الدكتور شوقى ضيف

٣٥ ـ **ثلاث مقالات فى الجنس** لفرويد
٣٦ ـ **الحب العذرى** لموسى سليمان
٣٧ ـ **الحب المثالى عند العرب** د / يوسف خليف
٣٨ ـ **الحب والغزل بين الجاهلية والاسلام**
(لعبد الله أنيس الطباع)
٣٩ ـ **حديث الأربعاء** د / طه حسين
٤٠ ـ **الراعى النميرى** د / محمد نبيه حجاب
٤١ ـ **شعر الرعاة** ترجمة د / صقر خفاجة
٤٢ ـ **الشعر المصرى بعد شوقى**
د / محمد مندور
٤٣ ـ **الشوامخ (ذو الرمة)**
د / محمد صبرى
٤٤ ـ **الطبيعة فى الشعر الأندلسى**
د / محمد جودة الركابى
٤٥ ـ **فجر الاسلام** د / أحمد أمين
٤٦ ـ **القبائل العربية القديمة والحديثة**
(عمر كحالة)
٤٧ ـ **من شعر الطبيعة فى الأدب العربى**
(د / سيد نوفل)
٤٨ ـ **مجلة الكاتب المصرى ـ المجلد الثانى سنة ١٩٤٦ فبراير**
٤٩ ـ **مجلة المجلة عدد (١٣ من مايو سنة ١٩٦٦)**

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٣٧٩